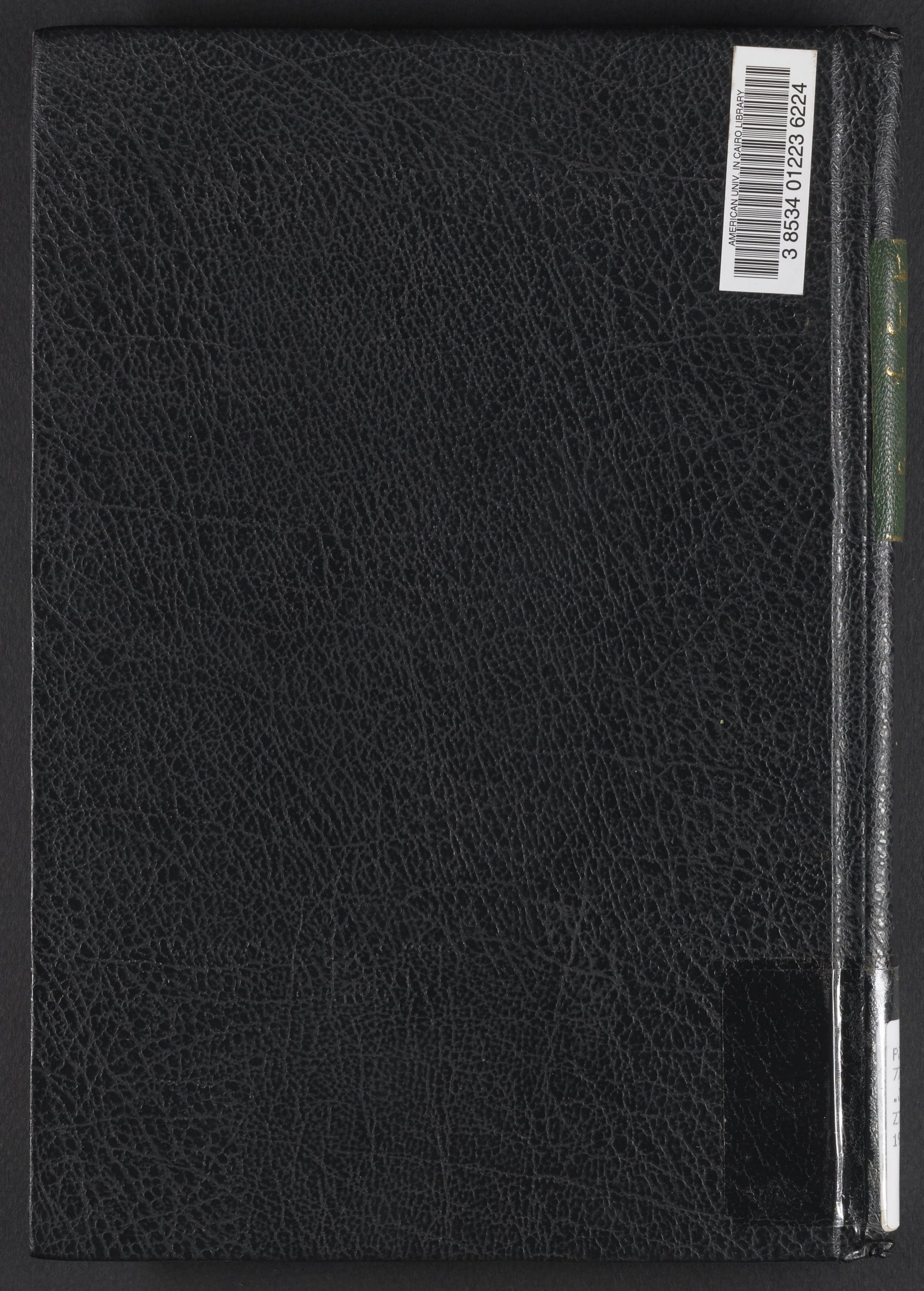

AMERICAN UNIV. IN CAIRO LIBRARY
3 8534 01223 6224







شفيق جبري

الجاحظ

معلم العقل والأدب

ملتزم الطبع والنشر
دار المعارف بمصر

شفيق جبري

الجاحظ

معلم العقل والأدب



ملتزم الطبع والنشر
دار المعارف بمصر

مستهل القول

الحاجة إلى الأساليب الحديثة في الأدب مشتدة في عصرنا هذا فكأنما الأسماع قد مجّت ما نردد سنين طويلة وكأنما القلوب قد لفظت ما نمضغ.

على أننا لو نظرنا في أدب العرب لتبين لنا أن النفوس في كل عصر من عصور هذا الأدب كانت تتطلع إلى الأساليب الجديدة سواء أكانت هذه الأساليب في التقدم أم في اللغة نفسها فاللغة لم تكن إلا سلسلة تنتقل حلقاتها في كل عصر من العصور من شكل إلى شكل ، وقد يطول بنا الكلام على هذه الأطوار كلها و إنما أضرب أمثالاً يسيرة على سبيل التوضيح .

لقد كان النقد قديماً في لغة العرب ولكننا لا نجاوز عهد النابغة الذبياني مخافة أن نضيع في مجاهل لا مخرج لنا منها .

للعرب في الجاهلية مجالس أدب وأسواق ، أشهر هذه الأسواق سوق عكاظ التى كانت تقام في أول ذي القعدة فلا تزال يباع ويشترى فيها إلى حين الحج وكان قيامها بين نخلة والطائف .

شيخ النقدة في الجاهلية النابغة الذبياني وهو صاحب نعيم وترف كان يأكل ويشرب في آنية الفضة والذهب من عطايا النعمان وأبيه وجده ، لا يستعمل غير ذلك .

فالنابغة كان يضرب له قبة من أدم بسوق عكاظ فتأتيه الشعراء فتعرض عليه أشعارها فيحكم ، فلننظر في طراز هذا الحكم .

أول من أنشده الأعشى ثم حسان بن ثابت ثم أنشده الشعراء ثم أنشدته الخنساء :

وإن صخراً لتأتم الهداة به   كأنه علم في رأسه نار

ولما سمع قول الخنساء قال : والله لولا أن أبا بصير أنشدني آنفاً لقلت إنك أشعر الجن والإنس، فقام حسان وقال : والله لأنا أشعر منك ومن أبيك ، فقال له النابغة : يا ابن أخي أنت لا تحسن أن تقول :

فإنك كالليل الذي هو مدركي   وإن خلت أن المنتأى عنك واسع

فخنس حسان لقوله .

هذا نمط من نقد النابغة . وإلى القارئ الكريم نمطاً آخر مثله :

قدم النابغة المدينة فدخل السوق فنزل عن راحلته ثم جثا على ركبتيه ثم اعتمد على عصاه ثم قال : ألا رجل ينشد ، فتقدم قيس بن الخطيم فجلس بين يديه وأنشده :

* أتعرف رسماً كاطراد المذاهب *

فلم يزده على نصف البيت حتى قال له النابغة : أنت أشعر الناس يا ابن أخي !

من هذه النماذج يتبين لنا أن النقد كان في بعض الأحايين مجرداً ، يحكم النابغة لشاعر من الشعراء من دون أن يوضح شيئاً من أسباب التفضيل والتمييز .

فلننتقل إلى صدر الإسلام ولنذكر في هذه المرة نوعاً من نقد النساء فقد كان للنساء مجالس حافلة ، من هذه المجالس مجلس سكينة بنت الحسين ومجلس عائشة بنت طلحة فكانت عائشة تفد على هشام فيبعث إلى مشايخ بني أمية فيحضرون ويسمرون عنده فلا يتذاكرون شيئاً من أخبار العرب وأشعارها وأيامها إلا أفاضت معهم فيه ولا يطلع نجم ولا يغور إلا سمته فكان مجلسها منضداً فيه الريحان والفواكه والطيب المجمر فتخلع على كل امرأة تحضر المجلس من نسوة قريش خلعة تامة من الوشي والخز ونحوهما ولم يكن لعائشة شبه في زمانها حسناً ودماثة وجمالاً وهيئة ومتانة وعفة .

وكذلك سُكينة بنت الحسين فقد كانت عفيفة ، سلمة ، برزة من النساء ، تجالس الأجلة من قريش ويجتمع إليها الشعراء وكانت ظريفة مزّاحة .

كانت أحسن الناس شَعَراً وكانت تصفف جمتها تصفيفاً لم ير أحسن منه حتى

عرف ذلك وكانت تلك الجمة تسمى « السكينية » وكان عمر بن عبد العزيز إذا وجد رجلاً يصفف جمته السكينية جلده وحلقه .

كان يجتمع في منزل سكينة أمراء الغناء وهم معبد وابن سريج والغريض وحنين فتأذن للناس إذناً عاماً حتى تغص بهم دارها فتأمر لهم بالأطعمة فيأكلون و يسمعون الغناء وتجيز المغنين وربما أعطت بكل بيت ألف درهم .

هذا افتراء على السيدة سكينة بل هذا الكبرى

وقد كان لها ميل إلى الغناء فكانت تبعث إلى ابن سريج بشعر وتأمر أن يصوغ فيه لحناً يناح به فيصوغ اللحن ابن سريج وإذا اجتمع نسوة وذكرن عمر بن أبي ربيعة وشعره وظرفه ومجلسه وحديثه وتشوقن إليه بعثت إليه سكينة رسولاً فيوافي عمر مجلسهن فيحدثهن حتى مطلع الفجر .

* كانت سكينة تنقد الغناء وتنقد الشعر ولما غنى الغريض وابن سريج ✲ عوجي علينا ربة الهودج ✲ قالت والله : ما أفرق بينكما وما مثلكما عندي إلا كمثل اللؤلؤ والياقوت في أعناق الجواري لا يدرى أي ذلك أحسن .

* فالذي يهمنا من شأن هذه المجالس صبغتها الأدبية فكانت سكينة تحكم بين رواة الشعر فقد اجتمع راوية جرير وراوية جميل وراوية نصيب وراوية الأحوص فافتخر كل رجل منهم بصاحبه وقال : صاحبي أشعر ، فحكَّموا سكينة لما يعرفونه من عقلها و بصرها بالشعر فخرجوا يتهادون حتى استأذنوا عليها فأذنت لهم فذكروا لها الذي كان من أمرهم فقالت لرواية جرير : أليس صاحبك الذي يقول :

طرقتك صائدة القلوب وليس ذا وقت الزيارة فارجعي بسلام

وأي ساعة أحلى من الطروق ؟ قبح الله صاحبك وقبح شعره !

ثم قالت لرواية جميل : أليس صاحبك الذي يقول :

فلو تركت عقلي معي ما طلبتها ولكن طلابيها لما فات من عقلي

فما أرى بصاحبك من هوى إنما يطلب عقله ! قبح الله صاحبك وقبح شعره !

ثم قالت لرواية نصيب : أليس صاحبك الذي يقول :

أهيم بدعد ما حييت فإن أمت فواحزنا من ذا يهيم بها بعدي

فما أرى همه إلا فيمن يعشقها بعده! قبحه الله وقبح شعره!

ثم قالت لرواية الأحوص: أليس صاحبك الذي يقول:

من عاشقين تراسلا وتواعدا ليـلاً إذا نجم الثريا حلقا

باتا بأنعم ليـلة وألذها حتى إذا وضح الصباح تفرقا؟

قال: نعم، قالت: قبحه الله وقبح شعره، ألاّ قال: تعانقا! فلم تثن على أحد منهم في ذلك اليوم ولم تقدمه. وفي رواية أنها قالت لصاحب جميل: أليس صاحبك الذى يقول:

فياليتني أعمى أصم تقودني بثينة لا يخفى عليّ كلامها؟

قال: نعم، قالت رحم الله صاحبك إنه كان صادقاً في شعره، وكان جميلاً كاسمه.

فالحكم في هذه المرة لم يكن مجرداً وإنما ذكرت فيه الأسباب التى من أجلها كان يرد الشعر أو يقبل، فكان نقد سكينة معنوياًّ يتعلق بالمعنى من حيث موافقته للذوق أو انحرافه عن الذوق. وعلى كل حال فإنه يختلف عن نقد النابغة الذي ذكرته، فإن فيه جولة للفكر، وعليه مسحة من الشعور.

هذا مجلس من مجالس نقد النساء للشعر في الصدر الأول للإسلام. فلنشهد مجلساً من مجالس بني أُمية:

كان الأخطل يجيء وعليه جبة خز وحرز خز، في عنقه سلسلة ذهب فيها صليب ذهب، تنفض لحيته خمراً حتى يدخل على عبد الملك بغير إذن وربما دخل عليه وقد شرب فيكلم الخليفة ويخلط في كلامه ويقول:

إذا شرب الفتى منّا ثلاثاً بغير الماء حاول أن يطولا

مشى قرشية لاعيب فيها وأرخى من مآزره الفضولا

وبلغ من دالته على عبد الملك بن مروان أنه دخل عليه يوماً فاستنشده، فقال الأخطل: قد يبس حلقي فمر من يسقيني، فقال عبد الملك: أسقوه ماء فقال الأخطل:

شراب الحمار وهو عندي كثير ، فقال عبدالملك : فاسقوه لبناً، فقال: عن اللبن فطمت، فقال : فاسقوه عسلاً ، فقال الأخطل : شراب المريض ، فقال عبد الملك : فتريد ماذا ؟ قال : خمراً يا أمير المؤمنين ، قال : أو عهدتني أسقي الخمر لا أم لك ، لولا حرمتك بنا لفعلت بك وفعلت ، فخرج الأخطل فلقي فرّاشاً لعبد الملك فقال : ويلك إن أمير المؤمنين استنشدني وقد صحل صوتي فاسقني شربة خمر فسقاه ، فقال : اعدله بآخر ، فسقاه آخر فقال : تركتهما يعتركان في بطني ، اسقني ثالثاً ، فسقاه ثالثـاً ، فقال : تركتني أمشي على واحدة اعدل ميلي برابع فسقاه رابعاً فدخل على عبد الملك فأنشده :

خف القطين فراحوا منك وابتكروا وأزعجتهم نوى في صرفها غـير

فقال عبد الملك :

خذ بيده ياغلام فأخرجه ثم ألقى عليه من الخلع ما يغمره وأحسن جائزته وقال : إن لكل قوم شاعراً و إن شاعر بني أُمية الأخطل .

إني أرى أن الحكم على الأخطل لايخلو من صبغة سياسية لأن الأخطل كان هواه في خلفاء بني أُمية .

فلننتخب طرازاً آخر من النقد في ذلك العصر :

أنشد جرير قول عمر بن أبي ربيعة :

سائلا الربع بالبلى وقولا هجت شوقاً لي الغداة طويلا

أين حي حلوك إذ أنـ ـت محفوف بهم آهل أراك جميلا

قال : ساروا فأمعنوا فاستقلوا وبرغمي لو استطعت رحيلا

سئمونا وما سئمنا مقاماً وأحبوا دماثة وسهولا

فقال جرير : إن هذا الذي كنا ندور عليه فأخطأناه وأصابه هذا القرشي .

إننا نستنبط من قول جرير أن النفوس تطلعت إلى أُسلوب حديث في الشعر غير الأسلوب الذي كان الشعراء يتبعونه في الجاهلية وهـذا التطلع يدلنا على طور

جديد ، فجرير وأمثاله كانوا يريدون أن يسمعوا أشياء لم تألفها أسماعهم ، والنفوس في كل عصر تميل إلى الشيء الطريف .

وقد كان في الإسلام مجالس أدب تشبه مجالس الأدب في الجاهلية ، منها مربد البصرة ومسجد الكوفة فكان يتوافق جرير والفرزدق بالمربد للهجاء وكان لراعي الإبل والفرزدق وجلسائهما حلقة بأعلى المربد بالبصرة يجلسون فيها .

وكما كان لخلفاء بني أمية مجالس أدب فكذلك كان لخلفاء بني العباس أشباه هذه المجالس وربما كانت مجالس المنصور والمهدي والرشيد والمأمون وغيرهم من الخلفاء وأبناء الخلفاء والأمراء والوزراء أعمر وأحفل ولكني أتخطى الكلام على هذه المجالس فأذكر طرازاً من نقد الرواة في ذلك العصر فقد ظهر أبو عبيدة والأصمعي وأبو زيد الأنصاري وظهر حماد الراوية والمفضل الضبي وخلف الأحمر .

ولكن الجاحظ قد كفانا مؤنة الحكم على نقد هؤلاء الرواة ، فأجمل الكلام على خصائص هذا النقد فقال :

« طلبت الشعر عند الأصمعي فوجدته لايعرف إلا غريبه ، فسألت الأخفش فلم يعرف إلا إعرابه ، فسألت أبا عبيدة فرأيته لا ينفذ إلا فيما اتصل بالأخبار » .

وقال في موضع آخر :

« ولم أر غاية النحويين إلا كل شعر فيه إعراب ، ولم أر غاية رواة الشعر إلا كل شعر فيه غريب أو معنى صعب يحتاج إلى الاستخراج ، ولم أر غاية رواة الأخبار إلا كل شعر فيه المشاهد والمثل » .

فالذي يستخلص من كلام الجاحظ أن الذوق الأدبي في النقد قد لوّن بألوان شتى فمرة كان الذوق يصبغ بصباغ نحويّ ومرة بصباغ لغويّ ومرة بصباغ إخباريّ . إن هذا الكلام على صحته في أكثر مواطنه لا يخلو من مبالغة صاحبه فيه في بعض الأحيان فالجاحظ قال : طلبت الشعر عند الأصمعي فوجدته لا يعرف إلا غريبه ، ولكن الذي وصل إلينا من أمر الأصمعي أن له آراء في الشعر والنقد لا تدل على أنه

لا يعرف إلا غريب الشعر ، حتى كان الرشيد يقول له : يا أصمعي ما تطاق في الشعر.

فلننظر في نوع من أنواع نقده :

سئل عن بشار ومروان بن أبي حفصة أيهما أشعر ؟ فقال : بشار ، فسئل عن السبب في ذلك فقال : لأن مروان سلك طريقاً كثر من يسلكه فلم يلحق بمن تقدمه وشركه فيه من كان في عصره و بشار سلك طريقاً لم يسلك وأحسن فيه وتفرد به وهو أكثر تصرفاً وفنون شعر وأغزر وأوسع بديعاً ومروان لم يتجاوز مذهب الأوائل .

فإذا دققنا فى هذا النقد وجدنا فيه ناحية جديدة فالنقد في هذه المرة مفصل فإذا حكم الناقد بين أسباب التفضيل والتمييز ، فبشار أشعر من مروان لأنه سلك طريقاً لم يسلكه غيره من الشعراء وهنا تعترضنا مسألة القديم والحديث فى الأدب ، فالشاعر المبرز إنما هو الذي يذهب مذهباً يتفرد فيه فلا يشبه غيره من المذاهب ، فرأي الأصمعي في بشار يشبه رأي جرير فى عمر بن أبي ربيعة فالنفوس قد ازداد تطلعها إلى نواح جديدة فى الشعر .

هكذا كان نقد بعض الرواة حتى جاء المؤلفون وشرعوا فى تأليف الكتب فى النقد فدخل النقد فى طور جديد من حيث الترتيب والتأليف ، من هؤلاء المؤلفين محمد بن سلاّم صاحب طبقات الشعراء فقد فصَّل الشعراء من أهل الجاهلية والإسلام والمخضرمين فأنزلهم منازل واحتج لكل شاعر بما وجده له من حجة وما قال فيه العلماء ولكن جوهر النقد لم يختلف عما كان عليه فى القديم فكان الحكم لشاعر من الشعراء لمتانة شعره أو لشرود قافيته أو لابتكار أسلوبه وكل هذا كان منه شيء فى القديم .

غير أن هؤلاء المؤلفين أخذوا يطعنون على ثقة بعض الرواة الذين أشرت إليهم وهذا أفق جديد فى التمحيص والتدقيق فمن قول ابن سلاّم فى الطعن على هؤلاء الرواة :

« فلما راجعت العرب رواية الشعر وذكر أيامها ومآثرها استقل بعض العشائر شعر شعرائهم وما ذهب من ذكر وقائعهم وكان قوم قلَّت وقائعهم وأشعارهم وأرادوا

أن يلحقوا بمن له الوقائع والأشعار فقالوا على ألسن شعرائهم ثم كانت الرواة بعد فزادوا فى الأشعار وليس يشكل على أهل العلم زيادة ذلك ولا ما وضع المولدون » .

ولو نبه ابن سلام وغيره من الذين طعنوا على ثقة بعض الرواة على كل الزيادات التى زادها هؤلاء الرواة لنقي الشعر العربي فلم يبق مجال لارتياب المرتابين بصحة بعض هذا الشعر . ووجه آخر في التمحيص أن القوم أخذوا يفرقون بين لسان حمير ولسان الحجاز . فقد أشار ابن سلام إلى قول أبي عمرو بن العلاء فى هذا الأمر :

ما لسان حمير وأقاصي اليمن بلساننا ولا عربيتهم بعربيتنا .

وهذان الأمران : زيادة الرواة واختلاف لسان حمير والحجاز ، هما المحوران اللذان يدور عليهما شك بعض أُدباء هذا العصر فى الأدب الجاهلي .

نعم ، جاء المؤلفون فى النقد كالجاحظ وابن قتيبة وقدامة بن جعفر وابن عبد ربه والآمدي والجرجاني وابن رشيق وغيرهم ولكن المجال لا يتسع للكلام على مذاهبهم كلها فأكتفي بالإشارة إلى ابن قتيبة صاحب كتاب الشعر والشعراء .

فمن قوله في بعض نقده :

« ولا نظرت إلى المتقدم منهم — أي من الشعراء — بعين الجلالة لتقدمه ولا المتأخر منهم بعين الاحتقار لتأخره بل نظرت بعين العدل على الفريقين وأعطيت كلاًّ حقه ، ووفرت عليه حظه فإني رأيت من علمائنا من يستجيد الشعر السخيف لتقدم قائله ويضعه موضع متخيره ، ويرذل الشعر الرصين ولا عيب له عنده إلا أنه قيل في زمانه ورأى قائله » .

لقد أخذ الفكر يتحرر فما كل قديم من الشعر مستحسن ولا كل حديث مستقبح والقديم كان قديماً بالقياس إلى عصرنا ، وهو حديث بالقياس إلى العصر الذي ظهر فيه ، فامرؤ القيس قديم في عصرنا هذا ، ولكنه حديث في عصره لأنه ابتدع أشياء لم تعرفها العرب .

جاء هؤلاء المؤلفون وفي جملتهم قدامة بن جعفر فوضع كتابه (نقد الشعر) فذكر فيه حد الشعر ، فقال في حده :

قول موزون مقفًّى يدل على معنى ؛ وذكر نعت اللفظ ونعت الوزن ونعت القوافي ، وذكر معاني الشعر كالمديح والهجاء والنسيب والمراثي والوصف والتشبيه وأشار إلى عيوب الوزن وعيوب القوافي وعيوب المعاني . والخلاصة أن النقد في هذه المرة تقيد وأصبح تابعاً لقواعد ، فمن شروط اللفظ مثلاً أن يكون سمحاً ، سهل مخارج الحروف من مواضعها، عليه رونق الفصاحة مع الخلو من البشاعة . فهذه الكتب وأمثالها تشبه كتب الفن الشعري في لغات الإفرنجة فإن أصحابها لا ينظرون إلى آثار العقل والعاطفة إلا من حيث الصور الفنية . فمن نقد قدامة أن النابغة طعن على حسان بن ثابت بقوله :

لنا الجفنات الغرّ يلمعن بالضحى وأسيافنا يقطرن من نجدةٍ دما

وقال : لو قال حسان بالدجى لكان أحسن من قوله بالضحى إذ كل شيء يلمع بالضحى .

فقال قدامة : وهذا — أي نقد النابغة — خلاف الحق وعكس الواجب لأنه ليس يكاد يلمع بالنهار من الأشياء إلا الساطع النور ، الشديد الضياء ، فأما الليل فأكثر الأشياء مما له أدنى نور وأيسر بصيص يلمع فيه فمن ذلك الكواكب وهي بارزة لنا مقابلة لأبصارنا دائماً تلمع بالليل ويقل لمعانها بالنهار .

فمن هذا يتبين لنا أن النقاد أخذوا يتوسعون في نقدهم فإذا فضلوا لفظاً على لفظ لمحوا إلى أسباب التفضيل ، وأعملوا فكرهم في التمييز .

ولكن الذي توسع في قواعد الفن الشعري إنما هو ابن رشيق في كتاب العمدة ، على أنه مع توسعه لم يجاوز نقده الاقتصار على الصور الفنية ، فمن قوله في فضل الشعر :

« كل منظوم أحسن من كل منثور من جنسه في معترف العادة ألا ترى أن الدرّ، وهو أخو اللفظ ونسيبه وإليه يقاس وبه يشبه، إذا كان منثوراً لم يؤمن عليه ولم

ينتفع به في الباب الذي له كسب ومن أجله انتخب وإن كان أعلى قدراً وأغلى ثمناً » .

فالشعر عبارة عن ألفاظ تشبه الدر على أن ابن رشيق كان يعرف أن العرب احتاجت إلى الشعر لتتغنى بمكارم أخلاقها وطيب أعراقها وذكر أيامها الصالحة وأوطانها النازحة ولكنه نظر إلى ظواهر الأكسية التي كانت تصون كرم هذه الأخلاق وطيب هذه الأعراق وصلاح تلك الأيام ونزوح تلك الأوطان ولم يتغلغل في بواطن هذا الكرم وهذا الطيب .

على أن المؤلفين لم يقتصروا على وضع قواعد الشعر وفنه فإنهم حلقوا في سماء أعلى فعدلوا عن النظر إلى العمل فأفردوا لنقد شاعر من الشعراء باباً خاصًّا وعملوا فيه كتاباً على حدة ، منهم القاضي الجرجاني صاحب كتاب « الوساطة بين المتنبىء وخصومه » فالنقد في هذه المرة قد لبس برداً قشيباً وظهرت فيه آفاق جديدة ، من هذه الآفاق الكلام على عوامل البيئة والمزاج فطفق النقاد يعترفون بآثار البيئة والمزاج في نتائج الخواطر وثمرات القرائح ، فمن كلام القاضي الجرجاني :

« وقد كان القوم يختلفون في ذلك وتتباين فيه أحوالهم فيرقّ شعر أحدهم ويصلب شعر الآخر ويسهل لفظ أحدهم ويتوعر منطق غيره وإنما ذلك بحسب اختلاف الطبائع وتركيب الخلق ، فإن سلاسة اللفظ تتبع سلاسة الطبع ودماثة الكلام بقدر دماثة الخلقة وأنت تجد ذلك ظاهراً في أهل عصرك وأبناء زمانك وترى الجافي الجلف منهم كزّ الألفاظ معقد الكلام وعر الخطاب حتى إنك ربما وجدت ألفاظه في صورته ونغمته وفي جرسه ولهجته ومن شأن البداوة أن تحدث بعض ذلك » .

إلا أن القاضي الجرجاني مع تنبيهه على تأثير البيئة في العبقرية لم يطبق هذا المذهب في نقده فلم يبين تأثير البيئة في شعر المتنبىء ونحن نعلم أن أبا الطيب المتنبىء طلب اللغة والأدب في البادية وصحب الأعراب فغادرت البادية في ذهنه صوراً ظهرت آثارها على شعره في جميع أطواره ، فالجرجاني اكتفى بالإشارة إلى عمل البيئة

في القرائح والخواطر ولم يذكر شيئاً من هذا العمل في شعر المتنبي .

وإلى جنب هذا كله نوع آخر من النقد لا بأس بالإشارة إليه وهو أسلوب الذين كتبوا في تراجم الشعراء والكتاب ، إننا نجد في معظم كتاباتهم أساليب متشابهة وألفاظاً متقاربة بحيث يخيل إلينا أن الشعراء أو الكتاب الذين يتكلم عليهم أصحاب هذه التراجم متماثلون في كمال أدبهم وتمام عبقريتهم ، فمن قول الذين كتبوا في التراجم : فلان أحد أفراد الدهر في النظم والنثر ، فلان فرد دهره وشمس عصره ، فلان أعجوبة الزمان ونادرته وفريد عصره وباقعته ! فكأن الكتاب والشعراء كلهم أعاجيب الزمان ونوادره وآحاد الدهر وشموسه وكم اشتهيت أن أرى ليلاً مظلماً إلى جنب شمس من تلك الشموس !

من هذه الأمثال القليلة يتبين لنا كيف كان بعض النقد في الجاهلية وصدر الإسلام وفي زمن بني أمية وبني العباس فتارةً كان هذا النقد مجرداً ليس فيه شيء من الحجج وتارة كان معنوياً فيه القليل من الفكر والشعور ، وحيناً كان سياسياً وحيناً كان فيه نزعة إلى تجديد الأدب ثم صبغ النقد بصباغ لغوي أو نحوي أو إخباري ثم اشتدت النزعة إلى التجديد ثم ألف النقدة كتبهم ومالوا إلى القليل من التمحيص ثم تحرر النقد فما كل قديم حسن ولا كل حديث قبيح ثم وضعوا له قواعد أشبه شيء بقواعد الفن الشعري ثم توسعوا فيه فظهرت عوامل حديثة في النقد ، عامل البيئة وعامل المزاج ثم وقف النقد الأدبي وقفته حتى طلع العصر الحديث .

وما أظن أن أدباً من الآداب قد نمت مذاهبه وامتدت ظلاله في العصور الأخيرة دون أن يكون للنقد الأثر الأبلغ في نمو هذه المذاهب وامتداد هذه الظلال . فالأدب الألماني في القرن التاسع عشر قد انبلج نوره من آفاق الناقد (لسينغ) وقد كان النقد روح الأدب الفرنسي من ثلاثة قرون ولم يحدث حادث في هذا الأدب وفي أذواق أهله من القرن السادس عشر حتى يومنا هذا إلا كان النقد مصدر هذا الحادث أو أصله . فإذا عرفنا كيف ننقد وضح ما خفي من جمال أدبنا وازداد رونق هذا الأدب .

وكما كان النقد يتنقل في كل عصر من العصور من طور إلى طور فكذلك اللغة فإنها لم تثبت على حال من أحوالها لا في جاهليتها ولا في إسلاميتها ولا في أمويتها ولا في عباسيتها ، فلنضرب مثلاً لذلك : في الجاهلية أسماء أُطلقت على مسميات ثم ماتت هذه الأسماء وولدت بعدها أسماء غيرها عفت على ما قبلها ، من هذا القبيل ما قاله صاحب الجمهرة[1] :

أسماء الأيام في الجاهلية : السبت شِيار ، والأحد أوَّل ، والاثنين أهون وأوهد ، والثلاثاء جُبار ، والأربعاء دُبار ، والخميس مؤنس ، والجُمُعة عَرُوبة .

وأسماء الشهور في الجاهلية : المؤتمر وهو المحرَّم وصفر وهو ناجر وربيع الأول وهو خُوَّان وربيع الآخر وهو وُبصان وجمادى الأولى الحَنين وجمادى الآخرة رُبَّى ورجب الأصم وشعبان العاذل ورمضان ناتِق وشوال وَعْل وذو القعدة وَرْنة وذو الحجة بُرَك .

هذا مَثل الأسماء التي عاشت ثم ماتت ، فلنضرب مثلاً للأسماء التي كانت تدل على معنى خاص في عصر من العصور ثم جاء عصر فنقلها عن معناها الأول إلى معنى آخر : من هذا القبيل ما قاله ابن فارس في فقه اللغة[2] :

كانت العرب في جاهليتها على إرث من إرث آبائهم في لغاتهم وآدبهم ونسائكهم وقرابينهم ، فلما جاء الله تعالى بالإسلام حالت أحوال ونسخت ديانات وأبطلت أمور ونقلت من اللغة ألفاظ عن مواضع إلى مواضع أُخر بزيادات زيدت وشرائع شرعت وشرائط شرطت فعفى الآخر الأول ، فكان مما جاء في الإسلام ذكر المؤمن والمسلم والكافر والمنافق وإن العرب إنما عرفت المؤمن من الأمان والإيمان وهو التصديق ثم زادت الشريعة شرائط وأوصافاً بها سمي المؤمن بالإطلاق مؤمناً ، وكذلك الإسلام والمسلم إنما عرفت منه إسلام الشيء ، ثم جاء في الشرع من أوصافه ما جاء ، وكذلك

---

(١) المزهر الجزء الأول ص ١٠٨ .
(٢) المزهر الجزء الأول ص ١٤١ .

كانت لا تعرف من الكفر إلا الغطاء والستر ، فأما المنافق فاسم جاء به الإسلام لقوم أبطنوا غير ما أظهروه وكان الأصل من نافقاء اليربوع ، ولم يعرفوا في الفسق إلا قولهم فسقت الرُّطَبة إذا خرجت من قشرها ، وجاء الشرع بأن الفسق الإفحاش في الخروج عن طاعة الله تعالى .

والشواهد على الألفاظ الإسلامية كثيرة فمن شاء التوسع في معرفتها فليرجع إلى كتب اللغة .

إنّا ندرك من هذا أن اللغة في الجاهلية والإسلام كانت تنبسط من طور إلى طور ولو خلصنا إلى العصر العباسى لأحطنا علماً بمقادير الألفاظ التي نبتت على جذع اللغة العربية ولم تكن من قبل على هذا الجذع .

* * *

إذا عرضنا اللغة في أي عصر من عصورها وجدنا أنها يتنازعها حزبان من أبنائها: حزب يحاول إبقاءها على حالتها وحزب يذهب بها مذهباً جديداً .

فالطائفة التي تحرص على إبقاء اللغة فى حالة ثابتة دون شيء من التبديل والتغيير تحتج بحجج شتى ، منها : تعلقها بمذاهب حضارتها وحرصها على تقاليدها واعتناؤها بتلفظ أولادها ورغبتها الغريزية في أن تكون لها لغة مصطفاة ثم إذا تعمقنا في البحث عن الأسباب التي من أجلها يحافظ المحافظون على لغتهم وجدنا أن لكتب الدين تأثيراً عظيماً كالتوراة والقرآن و إذا جاوزنا هذه الناحية إلى ناحية أبعد تجلت لنا شدة استمساك المحافظين بلغتهم بسبب الكتب الأدبية التى أولعوا بها لجمالها وحسنها فهذه هي أعظم الأسباب التي تدفع المحافظين إلى التمسك بمحافظتهم فهم يريدون صفاء اللغة وقد تجمع هذه الأسباب كلها كلمة واحدة وهي : ثقافة الفكر .

والحزب الآخر أي الحزب الذي يذهب باللغات مذهباً جديداً فإنه يتوسل إلى ذلك بثلاث وسائل : إما بقلب اللفظ و إما بقلب الصرف والنحو و إما بقلب المفردات ، إني لا أشغل القارئ بالبحث عن تغيير اللفظ وتغيير الصرف والنحو و إنما

أذكر له قلب المفردات فإن الأمة تكتسب كل يوم أموراً وأفكاراً حديثة وأنماطاً فى الحس والفهم جديدة فلا بدّ لها من أسماء جديدة لمسميات جديدة ، وهـذه الأسماء تؤدي فى الأغلب إلى انقراض كلمات لأن الأفكار الحديثة والألفاظ الدالة عليها تعفّي على آثار الألفاظ القديمة[١].

وعلى ذكر الأسماء الجديدة التى تحتاج إليها الأمة لإطلاقها على المسميات الجديدة رأيت أن أعرب في هذا المقام مقالاً وقع عليه نظرى في جريدة « الطان » من سنين وهذا هو المقال :

« إذا طرحتك النوى مطارحها فكتب لك أن تزور باريز استطعت أن تذوق حلاوة الدنيا وتشعر بنضارة الحياة ، ومن محاسن باريز الفتيات العاملات اللواتي ينصرفن فى الصباح إلى العمل انصراف النحل إلى اجتناء الزهر ثمّ يفرغن من عملهن فيلهون ولا لهو العنادل على ملتفّ الأغصان . أطلق الفرنسيون على هـذه الفتيات اسم (Midinettes) فالاسم مشتق من كلمة (Midi) ومعناها الظهيرة لأنهن يفلتن فى الظهيرة كما تفلت الطيور من الأقفاص فيخرجن من المخازن والمعامل فيسرحن كما يسرح سرب المها ، فإذا سمعت أحاديثهن على الطريق فكأنك قد سمعت دوي النحل فترى الشوارع والمطاعم والمقاهي والملاهي مكتظة بهن فإذا رأيتهن رأيت الألوان على مختلفها وعرفت كيف تكون الابتسامات على الثغور وكيف تكون الخواطر على البال ، شعر قصير وشباب ناعم وقامة رشيقة وخلقة فتانة ، فهن نضارة باريز وغضارتها ولولاهنّ لما كان لباريز رونق وبهجة فكلمة (Midinette) العذبة ترد بطبيعتها على شق القلم وطرف اللسان ، أدمجها كبار الكتاب في رواياتهم فتأصلت في اللغة إلا أنها عرضت يوم الخميس الماضي على قاعة باريز الفتانة أي على الأكاديمية الفرنسية وليدة (ريشوليو) وكان لها أمل أن تحتفي بها لعذوبتها ونعومة صباها ولكنها لم تمهد لها سبيلاً في معجمها فقطبت فى وجهها واطّرحتها .

---

(١) رأي الأستاذ (دار مستتر) Darmesteter صاحب كتاب حياة الألفاظ .

وقد أسف صاحب المقال الأسف كله على اطّراح هذه الكلمة مبيناً أنه ليس من شأن الأكاديمية قلب الألفاظ المصطلح عليها واحتقارها ، وإنما مهمتها المحافظة على المصطلحات الكثيرة الدلالة . وقد أضاف الكاتب إلى كلامه : أن من الواجب الإقتداء « بما لرب » و« موليير » في المسامحة والاستئناس بالمصطلحات المستفيضة في طبقات الشعب ثم ختم مقاله بما يلي :

« اللغة التي لا يزيد غناها قليلاً فى كل يوم تفتقر وتنضب وقد كان كتابنا فى عصر التجديد لا يجهلون ذلك فكانوا يفتشون عن أسلوب فيه حياة وخفة وله طعم ولون ويقتبسون استعاراتهم عن مصطلحات الصيادين وعن كلام أمراء البحر وتعابير أصحاب المطابع فكانوا يجدون أنه من الضروري أن ينشأ على الجذع اللغوي القديم طعم على شرط أن يكون هـذا الطعم سهلاً دالاً على شيء قد ولده الاصطلاح ، فلم لا ننحو نحوهم ؟ » .

هذه حجج المحافظين والمجددين . فلننظر في أعمال الحزبين ، فإذا عمل حزب من الحزبين عمله على حدة وأعرض عن الحزب الآخر فماذا يحدث ؟

إذا انحصرت اللغة في ناحية واحدة سكنت حركتها ونضب معينها ولا ريب فى في أن الشعوب التي ليس لحضارتها تبديل تستطيع أن تحافظ على لغتها على وجه الدهر من دون أن يمس هذه اللغة شيء فإذا كان الفكر ثابتاً لا يتغير فاللفظ الذي يدل على هـذا الفكر يثبت ولا يتغير ولكن إذا بلغ الحرص على التقاليد مبلغاً يمنع اللغة عن تتبع مذاهب الأفكار والمعاني واستحكم التناقض بين أفكار الأمة وبين القوالب التي تفرغ فيها هذه الأفكار نفدت مادة اللغة فكلّت وهلكت ، على نحو ماحدث في اللغة اللاتينية المدرسية أي لغة الكتاب الرومانيين وطبقات الناس العالية ، فإن هـذه اللغة امتنعت عن تتبع اللغة العامية في نموها وتشددت في المحافظة على أسلوب مقدس ، وفي آخر الامبراطورية هلكت وتركت المجال للغة العامية الحية القوية التي

انفجرت من ينابيعها لغات شتى ولهجات مختلفة ، مستعدة للاستيلاء على الميراث الذي خلفته اللغة الفصحى .

و إذا عمل الحزب الذي يذهب باللغة مذهباً جديداً عمله على حدة دون الاستعانة بمذهب المحافظين ، فإن اللغة تقذف يومئذ مقاذف مختلفة ، فتتحول سريعاً ، فمرة تتعاقب عليها عدة بطون ، فتصل إلى حالة كثيراً ما تختلف عن الحالة السالفة حتى تكاد تكون لغة جديدة وأحياناً تتشعب إلى طائفة من اللغات وهذه اللغات تتشعب أيضاً إلى ما لا حدَّ له ، فقد قيل إن في جملة أهل اللغات المتوحشة بطناً من الناس يشهد لغات تولد ثم تموت لتتولد على شكل آخر إلا أن هذا التغيير المستمر قد جاوز الحد حتى أصبح مخالفاً لأغراض اللغة وغايتها ، وأضاع على اللغة قسماً من فائدتها ومنفعتها ، ففي بعض لغات المتوحشين لا يفهم الشيوخ معاني كلام الأحداث ، فإن في هذا الأمر شيئاً غير طبيعي يشبه في علم اللغات عجائب المخلوقات في علم التاريخ الطبيعي ، ثم ما هو السبب في هذا التطور الذي لا نهاية له ؟ إن هو إلا جهل المتوحشين الذين يتكلمون بهذه اللغات وضعف عقولهم لأن اللغة تتأيد بالحضارة[1] .

هذه أمثال نستدل بها على اليسير من أطوار النقد واللغة . ومنها يتضح لنا أن الإسلام جاء بألفاظ لا عهد للجاهلية بها ، وأن النقد كان يصبغ بصباغ خاص على حسب ما يقتضيه روح العصر ، فلم يخل عصر من عصورنا من آثار التجديد فإن للطبيعة وللاجتماع عوامل لا مندوحة لها عن أن تعمل في الأدب ومادته ، و إذا كان للانتخاب الطبيعي وللتناحر على الحياة آثار في عالم المخلوقات الحية فإن عالم الأفكار وصورها لا يستطيع أن ينسلخ من هذه الآثار ، فلسنا نعجب كما قلت من أن يكون التجديد إنما هو روح العصر فقد وصلت إلينا آثار لغات الغرب ، ووقفنا على هذه الآثار وقابلنا بين أساليب البحث في أدبنا و بين أساليب البحث في أدب الغرب فأدركنا

---

(١) رأي الأستاذ (دار مستتر) صاحب كتاب حياة الألفاظ .

نقصنا وعملنا على تتميم هذا النقص لأنا قادرون على الكمال ، فليس فى هذا غضاضة علينا فإن أدبنا بفضل الأساليب الحديثة فى البحث والتنقيب سينكشف لنا الغطاء عن كثير من محاسنه فنذوق منها ما لم نذق ، و إنما الشأن فى مجامع هذه الأمور أن نحافظ على روح لغتنا وعلى عبقريتها ، وأريد بهذه المحافظة أن تكون العربية لغتنا في بحثنا وتنقيبنا دون أن تفسدها العجمة .

أول عهدي بالجاحظ

من ثلاث وعشرين سنة اشتريت كتاب (الكامل) للمبرد وعلى هامشه فصول مختارة من كتب أبي عثمان ، قرأت أول هذه الفصول وهو مقتطف من كتابه في الحاسد والمحسود ، وقد فتنتُ بهذا الفصل الفتنة كلها ، حتى وصلت إلى قوله[1] :

« وما لقيت حاسداً قط إلّا تبين مكنونه بتغير لونه ، وتخوّص عينه ، وإخفاء سلامه ، والإقبال على غيرك ، والإعراض عنك ، والاستثقال لحديثك ، والخلاف لرأيك » .

فاستوقفني هذا الكلام ، فقلت في نفسي : ما أعلم صاحبه بطبيعة البشر ، ما ألصقه بمداخلهم ومخارجهم ، ما أكشفه لأغطية قلوبهم ، لا يكاد يخفى عليه شيء مما تشتمل عليه جوانحهم ، إنه لشديد التدقيق ، يقرأ على صفحات الوجوه ما كتب في أعماق الصدور . نعم ، لما وصلت إلى صفات الحاسد وهي : تغيّر اللون وتخوّص العين و إخفاء السلام وما شابه ذلك ، قلت في نفسي : لا يخلو الجاحظ من أن يكون محسوداً فى عصره ، حتى كان يقع نظره على حاسده ، فيتأمل فى وجهه ، ومن منّا لا يعرف الحاسد ، من منّا لا يرى تخوّص هذه العين وتغيّر هذا اللون فى كل يوم ؟ لقد قلت فى نفسي : لا يخلو الجاحَظ من أن يكون محسوداً فى عصره ، حتى اطلعت على ما رواه المسعودي فى هذا المعنى ، قال[2] :

« ذكر أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ أنه كان يؤلف الكتاب الكثير المعاني ، الحسن النظم ، فينسبه إلى نفسه ، فلا يرى الأسماع تصغي إليه ، ولا الإرادات تتيمم نحوه ، ثم يؤلف ما هو أنقص منه مرتبة ، وأقل فائدة ، ثم ينحله عبد الله بن المقفع

---

(١) الجزء الأول ص ٦ .

(٢) كتاب التنبيه والإشراف — طبع ليدن — ص ٧٦ .

أو سهل بن هارون ، أو غيرهما من المتقدمين ومن قد صارت أسماؤهم فى المصنفين ، فيقبلون على كتبها ، ويسارعون إلى نسخها ، لا لشيء إلا لنسبتها إلى المتقدمين ، ولما يداخل أهل هذا العصر من حسد من هو في عصرهم ، ومنافسته على المناقب التي يخص بها ، ويعنى بتشييدها » .

لما قرأت هذا الكلام سهل عليّ أن أدرك السر فى إبداع الجاحظ فى وصف الحاسد ، وفهمت حينئذ ما قاله أحد كتاب الإفرنجة الكبار : روّض قلمك على كتابة أشياء شعرت بها . فالجاحظ أبدع فى وصف الحاسد ، ومعظم هذا الإبداع ناشئ عن أنه وصف شيئاً كان يشعر به ويعوذ بالله من شره . وإذا وصفت في كلامي على حياته ، شكواه اللؤم ، تكشف لنا ضجره من الحسد ، وبرمه به ، ولِمَ نجد الفرق فى التأثير بين الكتاب مثلاً أو بين الشعراء ؟ إني أعتقد أن هذا الفرق إنما مصدره فى الأغلب من الأحوال قوة الشعور وضعفه ، أو صدقه وكذبه .

ولكن هل فضّلت دراسة الجاحظ لأنه برّز في وصف الحاسد ، فلو كان الأمر كذلك فما أضيق مذاهب الجاحظ !

فلنستثر الذاكرة مرة ثانية : كنت أطالع كتاباً فرنسيًّا اسمه (الطريقة الأدبية[1]) تكلم صاحب هذا الكتاب على خطاب خطبه (رنان) Renan في « السوربون » فى ٢٩ مارس سنة ١٨٨٨ ، قال صاحب الكتاب وهو يعني (رنان) :

« لقد بيّن الخطيب أن روح الإسلام الحقيقي إنما هو مخالف للعلم ، ولئن نشأ في العالم الإسلامي من القرن الثامن إلى القرن الثالث عشر أصحاب فكر وأهل عقول راجحة ، فهذا سببه أن الإسلام فى تلك العصور لم ينبسط سلطانه بعد ، فإن الخلفاء البارقة سيرتهم الذين كانوا فى عصر (الكارولنجيان) لم يتكامل إسلامهم ، وفلسفة اليونانيين العقلية هي التي أضاءت على عهدهم ، وكذلك الأمر فى الأندلس على زمن ابن رشد ، فقد كان اليونانيون وحدهم ينبوع العلم ، فالنهضة لم تكن عربية

(١) — للأستاذ بيزار Bezard — ص ٢٨ .

ولا إسلامية ، وفى اليوم الذي اشتد فيه الإسلام ، أي من بعد سنة ١٢٧٥ بوجه التقريب ، انحطت عقول المسلمين انحطاطاً يؤسف ويحزن . ثم ذكر صاحب هذا الكتاب كلاماً لرنان وهذا هو الكلام :

« إن الذي يميّز العالم الإسلامي إنما هو اعتقاد المسلمين أن البحث لاطائل فيه ، ولا شأن له ، وأنه قد يؤدي إلى الكفر ، فعلم الطبيعة يؤدي إلى الكفر لأن هذا العلم ينازع الله سلطانه ، وعلم التاريخ يؤدى إلى الكفر لأنه إذا امتد إلى العصور التي جاءت قبل الإسلام أحيا أضاليل قديمة ، فمعتقدات هذا شأنها تؤدي إلى النتائج الآتية : أن يصبح خمول الذهن وقلة المبالاة من الفضائل ، فكلمة : والله أعلم ، إنما هي فصل الخطاب فى كل مناظرة إسلامية » .

قرأت هذا الكلام وقلت فى نفسي : أصحيح أن الإسلام حال دون العلم ، حتى تغلغلت فى كتب الجاحظ وقرأت كتاب (الحيوان) من أوله إلى آخره فاهتديت فيه إلى أساليب في تحقيق صاحبه وتجربته في أمور العلم يحار فيها الإنسان ، فكأن الجاحظ عالم من علماء الحيوان ، فلا يمرّ بأمر من أمور الحيوان سواء أكان هذا الأمر صغيراً أم كان كبيراً إلا اهتم به ، وسيتبين هذا كله فى كلامي على علمه وعلى تحقيقه ، وإنما يكفيني فى مثل هذا المقام أن أذكر كلمته في التحقيق العلمي ، وهي تجمع لنا طائفة من مذهبه : ليس يشفيني إلا المعاينة[1] ، وأظن أن الكلام على هذا التحقيق سيطول ، فأرجئه إلى حينه . وهذه ناحية من نواحي الجاحظ الجليلة الشأن ، فإن كلمة مثل هذه الكلمة : ليس يشفيني إلا المعاينة ، إنما هي كلمة خالدة فى علم الطبيعة ، وهل علوم الطبيعة إلا نتائج المعاينة والتجريب والفرض والمقالة والتصنيف .

ولم لا أذكر من الآن أسلوباً من أساليبه فى التحقيق ، حتى نقارن بينه و بين

---

(١) كتاب الحيوان — الجزء السادس ص ١٤٩ .

علماء الحيوان فى عصرنا هـذا ، وحتى نقول فى أنفسنا : أفيختلف أبو عثمان عن هؤلاء العلماء ؟ قال وهو يصف الظليم [1] :

« باب آخر وهو عندي أعجب من الأول ، وهو ابتلاعه الجمر ، حتى ينفذ إلى جوفه ، فيكون جوفه هو العامل في إطفائه ، ولا يكون الجمر هو العامل في إحراقه ، وأخبرني أبو إسحق إبراهيم بن سيار النظام ، وكنا لا نرتاب بحديثه إذا حكى عن سماع أو عيان ، أنه شهد محمد بن عبد الله يلقي الحجر فى النار ، فإذا عاد كالجمر قذف به قدامه ، فإذا هو يبتلعه ، كما يبتلع الجمر ، وكنت قلت له : إن الجمر سخيف ، سريع الانطفاء إذا لقي الرطوبات ، ومتى أطبق عليه شيء يحول بينه و بين النسيم خمد ، والحجر أشد إمساكاً لما يتداخله من الحرارة ، وأثقل ثقلاً ، وألزق لزوقاً وأبطأ انطفاء ، فلو أحميت الحجارة ؟ فأحماها ، ثم قذف بها إليه فابتلع الأولى ، فارتبت به ، فلما ثنّى وثلّث اشتد تعجبي له ، فقلت له : لو أحميت أواقي الحديد ، ما كان منهـا ربع رطل ونصف رطل ؟ ففعل ، فابتلعه فقلت : هـذا أعجب من الأول والثاني ! وقد بقيت علينا واحدة ، وهو أن ننظر أيستمرئ الحديد كما يستمرئ الحجارة ؟ ولم يتركنا بعض السفهاء وأصحاب الخرق أن نتعرف ذلك على الأيام ، وكنت عزمت على ذبحه وتفتيش جوفه وقانصته ، فلعل الحديد يكون قد بقي هنـاك لا ذائباً ولا خارجاً ، فعمد بعض ندمائه إلى سكين فأحمي ، ثم ألقاه إليه فابتلعه ، فلم يجاوز أعلى حلقه حتى طلع طرف السكين من موضع مذبحه ، ثم خر ميتاً ، فمنعنا بخرقه من استقصاء ما أردنا » .

فيتبين مما رويته أن الذي يشغل بال الجاحظ إنما هو الاستقصاء، وهل الاستقصاء خارج عن لوازم العلم ؟ فالذي يهم العالم إنما هو التنقيب عن الحقيقة .

فقد يكون الجاحظ حجة يحتج بها من يريد أن يثبت أن فى العرب علماء ،

---

(١) كتاب الحيوان — الجزء الرابع ص ١٠٦

و إنما عصرهم غير عصرنا ، وأدوات تحقيقهم غير أدواتنا ، ولو اطّرد العلم في ديارهم لبلغ المبالغ .

ولكن هل آثرت دراسة الجاحظ لناحيته العلمية ، أو لناحيته الفلسفية ؟ فأين نواحيه الأدبية الخالدة على تراخي الأحقاب ، وما كان هذا العلم ، وما كانت هذه الفلسفة لولا أدب أبي عثمان ؟ ما زلت أقلّب النظر في كتب الجاحظ ، وأنا لا أزداد تقليباً إلا ازددت له تهيباً ، وبه إعجاباً ، حتى وصلت إلى شيء من نواحيه الأدبية ، وأعجبها وأفتنها هذه اللغة التي ألقت إليه طاعتها ، فصرّفها في كل شيء ، فإذا كتب في العلم أجرى قلم العلماء ، وإذا كتب في الفلسفة بنى على أصول الفلاسفة ، وإذا كتب في الأدب كتب على أساليب الأدباء ، وعلى مناحيهم . وهـذه القدرة على اللغة هي التي أوحت إليه مذهبه الأدبي الذي قال فيه[1] :

« ولكل صناعة ألفاظ قد حصلت لأهلها بعد امتحان سواها ... وقبيح بالمتكلم أن يفتقر إلى ألفاظ المتكلمين في خطبة أو رسالة أو في مخاطبة العوام والجار ، أو في مخاطبة أهله ، وعبده ، وأمته ، أو في حديثه إذا حدث ، أو خبره إذا أخبر ، وكذلك من الخطإ أن يجلب ألفاظ الأعراب وألفاظ العوام ، وهو في صناعة الكلام داخل ، ولكل مقام مقال ، ولكل صناعة شكل » .

فإن الرجل الذي يقرّر مثل هذا المذهب الأدبي لا بدّ له من أن يطالب نفسه به إذا كتب ، والجاحظ قرره وطالب به نفسه .

هذا أول عهدي بالجاحظ وهـذا شيء من الآثار الأول التي بقيت في البال من قراءة كتبه ، ولو شئت أن أستقصي هـذه الآثار لامتد الكلام ، فما سعة لغته بشيء إذا قسناها إلى قدرته على تصوير جلائل الموضوعات وصغائرها ، فسندرك بعد قراءة كتبه أنه لا يتعاظمه شيء من الموضوعات ، وأظن أن القدرة على تصوير صغائر الأمور كأمور الأكل والشرب واللبس ، وسائر ما يتعلق بحياتنا الخاصة ، لا تقل

(١) كتاب الحيوان — الجزء الثالث ص ١١٤ .

عن القدرة على تصوير الدقائق من حياتنا العامة ، وما مرادي في هـذا الفصل أن أشبع القول في الجاحظ وخصائصه . وإنما غايتي أن أصف أول اتصالي بكتبه ، وأول ملء الخاطر من آثاره . ولقد فرغت من قراءة هذه الآثار ، وفي البال خاطر واحد لا أنساه . وهو أني ما قرأت سطراً من أي كتاب من كتبه إلا استوقفتني قراءته ، وحملتني على التفكير . فإذا أردنا أن نحيط بشيء من عبقرية لغتنا فلنبادر إلى كتب الجاحظ التي تعلم العقل أولاً ، والأدب ثانياً[1] .

(١) كلمة ابن العميد .

نواحي الجاحظ

لقد جمعت ذهني وتفرغت لإحصاء نواحي الجاحظ ، فما أعظم حيرة حرتها ، وما أشد دهشة دهشتها بعد النظر في فصول أبي عثمان ، إنه ليخرج من باب إلى باب ، ومن شكل إلى شكل ، قد حشدت له المعاني من أقطارها ، وسيقت إليه الأفكار بأزمتها ، يصرفها كيف يشاء ، لا يخاف في تصريفها عثرة يعثرها ، أو كبوة يكبوها ، فالكلام عليه بعيد الغور ، دقيق المذهب ، لا يأمن صاحبه مزلة القدم ، فأنا أخاف إن حاولت أن أعرض جملة طرائفه ، أن لا أعرض شيئاً ، فيكون مثلي في ذلك كمثل ابن بطوطة ، فإنه لما وصل من جبل لبنان إلى مدينة بعلبك وصفها فقال :[1]

« وهي حسنة قديمة من أطيب مدن الشام ، تحدق بها البساتين الشريفة ، والجنات المنيفة ، وتخترق أرضها الأنهار الجارية ، وتضاهي دمشق في خيراتها المتناهية ، وبها من حب الملوك ما ليس بسواها ، وبها يصنع الدبس المنسوب إليها ، وهو نوع من الرب يصنعونه من العنب ، ولهم تربة يضعونها فيه فيجمد ، وتكسر القلة التي يكون بها فيبقى قطعة واحدة ، وتصنع منه الحلواء ، ويجعل فيها الفستق واللوز ، ويسمون حلواءه بالملبن ، ويسمونها أيضاً بجلد الفرس ، وهى كثيرة الألبان ، وتجلب منها إلى دمشق ، وبينهما مسيرة يوم للمجدّ » .

لقد سها ابن بطوطة عن وصف أفخم شيء في بعلبك ، وهو قلعتها ولم يصف في رحلته إلا دبس بعلبك ، وأين هـذا الدبس من قلعتها التى تجلت فى بنائها عظمة الإنسان ، ولو تفرغ ابن بطوطة لوصفها لوجد مجال القول منبسطاً ، فليس يخطو المرء خطوة فيها إلا حارت عينه فى ظواهر عظمتها ، فكأنما ابن بطوطة أدرك حيرته ، فوقف قلمه ، ولم يجر هذا القلم إلا فى ذكر صغائر الأمور .

---

(١) رحلة ابن بطوطة — ص ٤٩ — مطبعة التقدم بمصر .

وأنا كلما حدثتني نفسي بالكلام على عجائب الجاحظ ، خطر بالبال في الحال دبس بعلبك ، فيحار العقل في هذه العجائب ، و يقف القلم في وصفها ، فلا يجري إلا في التلميح إلى نوادر الجاحظ ، وقد ألهتني هذه النوادر ، كما ألهى رحَّالتنا دبس بعلبك ؛ فلما شرعت في حصر نواحيه ، تمثلت لي نادرة قرأتها في كتاب البخلاء قال أبو عثمان(١) :

« صحبني محفوظ النقاش من مسجد الجامع ليلاً ، فلما صرت قرب منزله ، وكان منزله أقرب إلى مسجد الجامع من منزلي ، سألني أن أبيت عنده ، وقال : أين تذهب في هذا المطر والبرد ؟ ومنزلي منزلك ، وأنت في ظلمة وليس معك نار ، وعندي لبأ لم ير الناس مثله ، وتمر ناهيك به جودة لا تصلح إلا له ، فملت معه ، فأبطأ ساعة ، ثم جاءني بجام لبأ وطبق تمر ، فلما مددت قال : يا أبا عثمان ، إنه لبأ وغلظة ، وهو الليل وركوده ، ثم ليلة مطر ورطوبة ، وأنت رجل قد طعنت في السن ، ولم تزل تشكو من الفالج طرفاً ، وما زال الغليل يسرع إليك ، وأنت في الأصل لست بصاحب عشاء ، فإن أكلت اللبأ ولم تبالغ ، كنت لا آكلاً ولا تاركاً ، وحرشت طباعك ، ثم قطعت الأكل أشهى ما كان إليك ، و إن بالغت بتنا في ليلة سوء من الاهتمام بأمرك ، ولم نُعِدَّ لك نبيذاً ولا عسلاً ، و إنما قلت هذا الكلام لئلاّ تقول غداً : كان وكان ، والله قد وقعت بين نابي أسد ، لأني لو لم أجئك به ، وقد ذكرته لك ، قلت : بخل به ، وبدا له فيه ، وإن جئت به ولم أحذرك منه ، ولم أذكرك كل ما عليك فيه ، قلت : لم يشفق عليّ ولم ينصح ، فقد برئت إليك من الأمرين جميعاً ، و إن شئت فأكلة وموتة ، و إن شئت فبعض الاحتمال ، ونوم على سلامة !! فما ضحكت قط كضحكي تلك الليلة ، ولقد أكلته جميعاً فما هضمه إلا الضحك والنشاط والسرور فيما أظن ، ولو كان معي من يفهم طيب ما تكلم به لأتى عليّ الضحك ، أو لقضى عليّ ، ولكن ضحك من كان وحده لا يكون على شطر مشاركة الأصحاب » .

---

(١) كتاب البخلاء — ١٠٣ — مطبعة الجمهور بمصر .

لقد تمثلت لي هذه النادرة ، لأنها تدل على روح الجاحظ ، فإنه مطبوع على النوادر، شيخ قد طعن في السن ، يشكومن الفالج طرفاً ، إن أكل اللبأ و بالغ ، بات في أسوأ ليلة ، وربما كانت أكلة وموتة ، ومع هذا كله فقد أكل ولم يبال ، طمعاً في الضحك والنشاط والسرور ، تمثلت لي هذه النادرة ، فقلت في نفسي : أفيصيبني في الكلام على الجاحظ ما أصاب ابن بطوطة فى الكلام على بعلبك ، أفأغفل عن خصائص عبقريته ، فلا تأخذ العين إلا طرفاً واحداً من أطراف هذه العبقرية .

أي معنى لم يقم في صدر الجاحظ ، وأي فكر لم يزدحم على ذهنه ، كتب في كل شيء فى جلائل الأمور وصغائرها ، فلو نظرنا في طائفة من رسائله لتبين لنا اختلاف المعاني التي صوّرها ، والأفكار التي وضَّحها ، كتب في الأخلاق والفلسفة والدين والتأديب والاجتماع والعلم والطبيعيات والأدب وفلسفة اللغة وما شابه ذلك . وليست غايتي أن أستوفي الكلام على تصانيفه في هذا الفصل ، و إنما غايتي التنبيه على ازدحام موضوعاته ، حتى نعلم الميدان الذي جال فيه كل مجال . فأول أثر من آثار دراسة كتبه . حيرة يحارها المرء في خصب عبقريته ، فلا يعرف كيف يبدأ بالكلام على هذه العبقرية ، ولا كيف يفرغ من هذا الكلام ، ولا عجب في ذلك، فإن رجلاً يكتب له أن يعيش قرناً بوجه التقريب ، لم يقع في خلاله بيده كتاب إلا استوفى قراءته كائناً ما كان ، إن رجلا يكتري دكاكين الورّاقين ، ويبيت فيها للنظر ، لا يعجب من خصب عقله .

ولكن فلنجتهد في الخروج من حيرتنا هذه ، ولنبين النواحي التي ينبغي لنا تفصيل الكلام عليها في هذا الكتاب .

أول هذه النواحي الكلام على حياة الجاحظ ، فسنذكر النواحي التي توطئ لنا سبيلاً إلى الاطلاع على تفاريق هذه الحياة ، وجملة هذه النواحي إنما هي معرفة ميلاد الجاحظ ، ومعرفة أهله ، وهيأته ، وابتداء تحصيله ، و بعض حالات عقله فى صباه ، وحرفته فى أول أمره ، وثروته ، وأعماله ، ولهوه ، واعتنائه بداره ، وأكابر الرجال

الذين لازمهم، وتعذيبه بسبب صحبته لأحد هؤلاء الأكابر، ومكاتبتهم له، وأسفاره إلى أنطاكية وإلى دمشق، وإلى مصر، وآثار هذه الأسفار، وطبيعة هذه الآثار، وعلته فى آخر حياته، وتأثير هذه العلة فى بعض كتاباته، وتعقب الناس له في علته، ومداراته إياهم، وضجره من لؤم أخلاقهم، ووفاته، وشكوى رجال العبقرية شرّ الحسد.

فإذا فرغنا من الكلام على حياة الجاحظ، تعرضنا للكلام على ثقافته، فذكرنا أساتيذه ونظرنا فى سيرتهم على سبيل الإيجاز، ثم أشرنا إلى رأي الجاحظ فى أساتيذه، وإلى طائفة من مذاهب أحد هؤلاء الأساتيذ وهو النظّام لتأثيره فى الجاحظ، ثم نبهنا على طبائع الكتب التي كان الجاحظ يطالعها، وعلى عناصر ثقافتة اليونانية والفارسية، وعلى حاجة كل أدب من آداب الأمم إلى أدب غيره، ثم لمحنا إلى مقدار وَلَع الجاحظ بالكتب، وإلى تلخيصه معارف أهل عصره، وإلى طبيعة الثقافة فى زمنه.

فإذا قضينا حاجتنا من الكلام على ثقافته، شرعنا فى الكلام على عصره، وما غايتنا من هذا الكلام إلا معرفة مقدار ارتباط الجاحظ بعصره، أو مقدار انفصاله عن هذا العصر، فلا غنى لنا فى هذه المعرفة عن العلم بخصائص عصر الجاحظ!

أول هذه الخصائص حرية الفكر، ولما كان الدين مجال هذه الحرية لزمنا أن نشير إلى اختلاف جمهور المسلمين فى أمور الدين، وإلى الخلفاء الذين عاقبوا على الزندقة، والخلفاء الذين فتحوا باب المناظرات، وإلى ذكر نمط من هذه المناظرات، وإلى الغاية منها، فإذا فرغنا من هذا ضربنا مثلاً لحرية فكر الجاحظ فى التفسير وبينّا مقدار اتصاله بعصره من هذه الناحية، أي من ناحية حرية الفكر.

وإذا تم لنا وصف حرية الفكر في عصر الجاحظ نظرنا في النتيجة التي أدت إليها هذه الحرية وهي: الزندقة، فلا بدّ لنا في كلامنا على الزندقة من الكلام على منزلة النصارى واليهود في عيون المسلمين، فإذا عرفنا هذه المنزلة بحثنا عن أسباب استفاضة

الزندقة في المسلمين وعن بعض آثار هذه الزندقة التي ظهرت على طائفة من الشعر .

وبعد أن نفرغ من الكلام على الزندقة في عصر الجاحظ نتكلم على الانقلاب الفكري في ذاك العصر ، فنبين إشارة الجاحظ إلى هذا الانقلاب ، وتنبيهه على أدب الترجمة ، ثم نذكر اختلاط العرب بالأعاجم ، ثم نوضح أمر الثقافة التي فعلت فعلتها في ميراثنا الأدبي ، ثم نذكر طائفة من الخرافات المستفيضة في الجمهور على الرغم من استفاضة العلم ، ثم نلمح إلى مقدار اتصال الجاحظ بالناحية الثالثة من نواحي عصره .

فإذا وصفنا عصر الجاحظ على قدر الإمكان انتقلنا إلى ناحية جليلة من نواحي الجاحظ وهي ناحية التحقيق فنتكلم أولاً على تحقيقه على وجه عام ، ثم نتكلم على مذاهبه في التحقيق على وجه التفصيل .

أما تحقيقه فإننا نشير فيه إلى رأي بعض الإفرنجة في الجاحظ من جهة العلم ، ثم نحدد العالم ، ثم نذكر الأصول التي يبني عليها الجاحظ في التحقيق ، ثم نقابل بين هذه الأصول وبين أصول « باكون » Bacon و « ديكارت » Descartes ، ثم نبين شأن استعمال هذه الطريقة في العلوم ، ثم نذكر صفة من صفات الجاحظ وهي صفة التطلع لارتباطها بصفات العالِم ، ثم نستخرج من كتاب الحيوان طائفة من الأقوال العلمية .

فإذا أجملنا الكلام على تحقيق الجاحظ شرعنا في الكلام على هذا التحقيق على وجه التفصيل .

أول ما نذكر استعانته بالحواس في التحقيق ، فنبين لجوءه إلى التجربة والعيان ، فنذكر أصناف الحيوان التي جرب عليها أو عاينها ، ونذكر نماذج من تجربته وعيانه ، ثم نتكلم على خصائص هذه التجربة وهذا العيان .

ثم نبين لجوءه إلى السماع في التحقيق ، فنذكر طبقات الناس الذين كان يسمع أخبارهم ، ومقدار تمحيصه أو تدقيقه في سماع هذه الأخبار .

وإذا فرغنا من الكلام على استعانته بالحواس تكلمنا على استعانته بالعقل

في التحقيق ، فنوضح طبيعة نقده العلمي وخصائص هذا النقد ثم نوضح خصائص شكه وحججه .

ثم ننتقل فجأة من الكلام على تحقيقه إلى الكلام على مذهبه في الدين لارتباط الأصول التي يبني عليها في العلم بالأصول التي يبني عليها في الدين ، فننظر في أصل كلمة الاعتزال ، وفي الاحتجاج للاعتزال ، وفي القواعد التي أجمع عليها المعتزلة ، وفي طوائف المعتزلة ، وفي بعض طبقاتهم وفي الطائفة التي يعنينا أمرها وهي الجاحظية وفي رأي الجاحظ نفسه في المعتزلة .

ولما كانت عقيدة الجاحظ في الدين عرضة للطعن لزمنا أن ننظر في شعوره الديني فإذا تكلمنا على هذا الشعور ذكرنا بعض الذين ثلموه في دينه ، ثم نقبنا عن بعض مواضع من كلامه ظهرت عليها آثار الشعور الديني .

فإذا تكشف لنا شعوره الديني أفضنا في الكلام على مذهبه في التفسير والتأويل ، فبينا كيف يردُّ الغريب من الأحاديث وكيف يردُّ الغريب من تفسير الآيات ، ووضحنا كيف يحمل الكلام على ظاهره ، وكيف يحمله على باطنه ، وكيف يردّ المعترضين إلى الصواب ذاهباً مذهب المتكلمين ، أو سالكاً مسلك علماء اللغة في كشف الغطاء عن أسرار الكلام .

وبعد الفراغ من هذه النواحي كلها ، نواحي العلم والدين ، نتجرد لوصف آفاق الجاحظ الفنية ، وأولها ضحك الجاحظ ، وفي هذا الفصل يتجلى لنا ميل أبي عثمان إلى الضحك والإضحاك خوفاً من سآمة القارئ ، ويتكشف لنا سر هذا الولع بالإضحاك ، وربما تبين لنا إفراطه في هذا الباب في بعض المقامات .

وإذا عرفنا ولعه بالإضحاك ، سعينا في معرفة ولعه بالتهكم ، فتكلمنا على أصل الأمر في التهكم ، واستشهدنا بتهكم بعض كتاب الإفرنجة ، ثم نظرنا في طبع الجاحظ على التهكم ، وميله إليه ، ثم بينا بعض الأسباب التي من أجلها مال إلى التهكم ، ثم ضربنا أمثالاً لتهكمه وتكلمنا على طائفة من خصائص هذا التهكم .

و إذا فرغنا من وصف تهكمه ، تعرضنا لمذهبه في النقد الأدبي فأشرنا إلى تنبيهه على التوليد في الأدب ، وإلى قوة حججه أو ضعفها في هذا التنبيه ، وأشرنا إلى رأيه في أولية الشعر وإلى ضعف هذا الرأي ، ثم لمحنا إلى اهتمامه بالصنعة ، وإلى اهتمام بعض أدباء الإفرنجة بها ، ثم ذكرنا اعتناءه بتعظيم المعاني ، و إنزالها منازلها ، ثم ذكرنا ميله إلى المجددين في الشعر .

و بعد أن يتم لنا الكلام على مذهب الجاحظ في النقد نتفرع للكلام على مذهبه في الأدب ، فنتكلم على ميله إلى الأدب المجرد ، أي إلى حريته في الأدب ، ونتكلم على ما أدت اليه هذه الحرية ، كمسامحته في اللغة ، وكاستعماله اللحن ، والكلام غير المعرب ، واللفظ المعدول عن جهته ، ثم نبين اعتناءه بالمناسبة بين المعاني والألفاظ ، واعتناءه بالتنقيح ، واعتداله في هذا التنقيح دون شيء من المبالغة ، ثم نوضح الصفات التي جعلها للألفاظ ، وخصائص هذه الألفاظ ، ثم نذكر ميله إلى جعل الأدب ضرباً من الرياضة .

و إذا فرغنا من هذا كله انتقلنا إلى الإحاطة بتفكير الجاحظ ، فبينّا بعض الأبواب التى خاض فيها كالاجتماع ، والأخلاق والتربية والتعليم ، وكالعلوم الطبيعية و بينّا بعض الإخطاء أو الإصابة في كلامه على هذه العلوم ، وأشرنا إلى بحثه عن حياة الألفاظ .

ولم يبق من بعد هذا كله إلا تصوير فنه ولغته :

أما فنه فإننا نبحث فيه عن خصائصه ، فننظر في الأمور الآتية :

هل كان فنه مبنياً على العقل ؟ هل يميل فيه إلى الصور كالاستعارات والتشبيهات؟ وما هي طبائع هـذه الصور ؟ هل كان الجاحظ شاعراً ؟ هل كان مصوراً ؟ ما هي دقائق تصويره ؟ هل يميل إلى الترديد ؟ هل يميل إلى استعمال اللفظ وضده ؟ وما هي أشكال عبارته .

وأما لغته فإننا نبحث عن تفقهه فيها ، و إنزاله اللفظة منازلها ، واستعماله لـكل

معنى من المعاني اللفظ الذي خلق له ، كما أننا نبحث عن ألفاظه المحسوسة ، وعن بعض غموض في لغته ناشىء عن الألفاظ التاريخية ، وعن ميله إلى استعمال بعض الألفاظ الأعجمية ، ثم نبين مقدار شأن الألفاظ على وجه عام .

هذا ما نسعى في التنقيب عنه في دراستنا كتب الجاحظ ، وقد نزيد في مباحثنا أو ننقص منها على قدر ما يقتضيه المقام ، و إنما المهم أن ندرس آثار الجاحظ من النواحي التي تصوره لنا تصويراً متكاملاً .

وأسلوبنا في هذه الدراسة إنما هو الأسلوب الذي اتبعناه في دراسة شعر المتنبىء ، فإننا لا نتقيد بأحد ، و إنما ننظر في كتب الجاحظ ، فندون ما يلهمنا إياه هذا النظر المطلق . وعلى هذه الصورة نستطيع أن نطبع شعورنا بطابع خاص ، منسلخ من كل تقليد .

حياة الجاحظ

تفوتنا نواح كثيرة من نواحي الجاحظ التي تشرع لنا باباً إلى الوقوف على تفاريق حياته ، على أننا نستطيع أن نحيط بنبذ غير يسير من هذه الحياة ، ولكن هذه الإحاطة لا تنقع غليلاً قياساً إلى ما يعرفه أدباء الإفرنجه من أمور كتابهم وشعرائهم ، وأشباه هذه الطبقات ، على أن أمرنا لا يشبه أمرهم ، فإن آثار عقولنا مبعثرة ، وقد ضاع كثير من هذه الآثار ، وما حفظ منها قد يصعب وصول الأيدي إليه ، ولم يكتب لنا أن نكون أمة مجموعة الشمل من قديم الدهر ، يسلم كل عصر من العصور نتائج عبقريته إلى العصر الذي يليه ، حتى تطرد هذه العبقرية فيزيد لآخر في ميراث الأول ، فيضيف مستحدث الأدب إلى قديمه ، فما فاتنا في الماضي فعساه أن لا يفوتنا في الحاضر والآتي .

فلنشرع في ذكر ما اتصل بنا علمه من حياة الجاحظ[1] .

لم يذكر الأنباري ولا ابن عساكر، ولا ابن خلكان السنة التي ولد فيها الجاحظ، وإنما ذكروا السنة التي مات فيها وقالوا : نيف على تسعين سنة ، وذكر ياقوت في معجمه أن الجاحظ قال : أنا أسن من أبي نواس بسنة ، ولدت في أول سنة ١٥٠ وولد في آخرها .

ولكن ابن خلكان قال في كلامه على ميلاد أبي نواس : وذكره الخطيب أبو بكر في تاريخ بغداد وقال : ولد في سنة خمس وأربعين ، وقيل سنة ست وثلاثين ومائة .

وقال الأنباري قبل ابن خلكان : ولد أبو نواس سنة خمس وأربعين ومائة ، وقيل ولد سنة ست وثلاثين ومائة .

---

(١) استندت في الكلام على حياة الجاحظ إلى كتب ابن خلكان وابن عساكر وإلى معجم الأدباء لياقوت الرومي وإلى طبقات الأدباء للأنباري .

وقد ذكر بعض الذين طبعوا ديوان أبي نواس أن هـذا ولد في سنة إحدى وأربعين ومئة .

ومن هذا كله يتبين لنا أن رواية ميلاد الجاحظ لاتخلو من اضطراب ، ولكننا إذا علمنا أن الجاحظ مات في سنة ٢٥٥ وأنه شكا في أواخر أيامه كبر السن فقال : وأشد من ذلك ست وتسعون سنة أنا فيهـا ، سهل علينا أن نقول إن الجاحظ ولد في سنة تسع وخمسين ومائة ، أو في سنة ستين ومائة بوجه التقريب .

أجمعوا على أن الجاحظ اسمه عمرو بن بحر بن محبوب ، وهو كناني ليثي ، نسبه إلى ليث بن بكر بن عبد مناة بن كنانة بن خزيمة .

وقالوا : كان الجاحظ مولى أبي القلمّس عمرو بن قلع الكناني ، ثم الفقيمي .

ومنهم من أضاف إلى هذا : وهو كناني ، قيل : صليبة ، وقيل : مولى .

وكان جده أسود يقال له : فزارة ، وكان جمالاً لعمرو بن قلع الكناني .

أما كنيته فقد قال أبو بكر العمري ، سمعت الجاحظ يقول : نسيت كنيتي ثلاثة أيام ، فأتيت أهلي ، فقلت : بمن أكنى ؟ فقالوا : بأبي عثمان[1] .

هذا كل ما نعرفه من نسبه ، واسمه وكنيته ، وأظن أن هذه المعرفة لاتضيء ظلمة ، فإن ناحية نسبه غامضة .

غير أننا نعلم أن للجاحظ أقارب عاشوا بعده ، وأريد بهؤلاء الأقارب يموت بن المزرع وولده أبا نضلة ، أما يموت فقد ذكر عنه ابن خلكان أنه ابن أخت الجاحظ ، ولكن يموت يقول : الجاحظ خال أمي[2] .

عاش يموت بن المزرع بعد وفاة الجاحظ ، وقدم بغداد سنة إحدى وثلاثمائة وهو شيخ كبير ، وحدث بها عن المازني ، والسجستاني ، والرياشي ، وعبد الرحمن ابن أخي الأصمعي ، وعن غيرهم ، وكان أديباً إخبارياً ، وله ملح ونوادر وحكايات ، وكان

---

(١) تاريخ ابن عساكر

(٢) تاريخ ابن عساكر

لايعود مريضاً خوفاً من أن يتطير باسمه ، وكان يقول : بليت بالاسم الذي سماني به أبي ، فإذا عدت مريضاً فاستأذنت عليه فقيل : من هذا ؟ قلت : أنا ابن المزرع ، وأسقطت اسمي .

سافر يموت إلى مصر مراراً . ومات سنة أربع وثلاثمائة بطبرية الشام .

يتصل بعض نسبه بحكيم بن جبلة ، وحكيم هذا كان من أعوان علي بن أبي طالب وكان صاحب الشرطة في البصرة ، وقتل بالبصرة .

خلف يموت بن المزرع ولداً اسمه أبو نضلة مهلهل ، وكان شاعراً ذكره المسعودي في كتابه ، وذكره الخطيب في تاريخ بغداد فقال : هو شاعر ، مليح الشعر في الغزل وغيره ، وسكن بغداد .

وفيه يقول أبوه مخاطباً له في قصيدة[1] :

فَجُب في الأرض وابغ بها علوماً ولا تقطعك جائحة ثبوت
وإن بخل العليم عليك يوماً فذلّ له وديدنك السكوت
وقل : بالعلم كان أبي جواداً يقال : ومن أبوك ، فقل : يموت

ومن هذا كله نستطيع أن نستنبط أن من أقارب الجاحظ من اشتهر بمحبة العلم ، وبالملح والنوادر ، فكان بينهم وبين الجاحظ مشابه في هذا الباب ، فإن الجاحظ طلّاب للعلم مفتون بالنوادر .

كان الجاحظ مشوه الخلق ، وإنما قيل له الجاحظ لأن عينيه كانتا جاحظتين والجحوظ النتوء ، وكان يقال له أيضاً الحَدَقي ، ومن جملة أخباره أنه قال : ذكرت للمتوكل لتأديب بعض ولده ، فلما رآني استبشع منظري ، فأمر لي بعشرة آلاف درهم وصرفني .

أين طلب الجاحظ العلم في صغره ؟

يظهر لنا أن الجاحظ كان في ابتداء أمره يحمل اللوح بيده ، ويغدو على كتّابه ،

(١) عن تاريخ ابن خلكان بتصرف يسير .

على نحو ما كانت عليه الحال في دمشق من ثلاثين سنة ، وعلى نحو حالنا في يومنا هذا ، فإن الكتاتيب لم يبطل أمرها في بعض القرى وأحياء المدن ، و إلى القارئ القصة التي رواها لنا وهي من آثار الكتّاب قال[١] :

« وأنا حفظك الله ، رأيت كلباً مرةً في الحي ، ونحن في الكتّاب ، فعرض له صبي يسمى مهديًّا من أولاد القصابين ، وهو قائم يمحو لوحه ، فعضّ وجهه ، فنقع ثنييه دون موضع الجفن من عينه اليسرى ، فخرق اللحم الذي دون العظم إلى شطر خده ، فرمى به ملقيًّا على وجهه ، وجانب شدقه ، وترك مقلته صحيحة ، وخرج منه من الدم ما ظننت أنه لا يعيش معه ، و بقي الغلام مبهوتًا قائمًا لا ينبس ، وأسكته الفزع ، و بقي طائر القلب ، ثم خيط ذلك الموضع ، ورأيته بعد ذلك بشهر ، وقد عاد إلى الكتّاب ، وليس في وجهه من الشتر إلاّ موضع الخيط الذي خيط ، فلم ينبح إلى أن برئ ، ولا هرّ ، ولا دعا بماء ، حتى إذا رآه صاح : ردوه ، ولا بال جرواً ، ولا عَلَقًا ، ولا أصابه مما يقولون قليل ولا كثير » .

ولئن دلتنا هذه القصة على أن الجاحظ طلب العلم في أول أمره في الكتّاب مع أبناء القصابين وغيرهم ، فلقد دلتنا على شيء أعظم من هذا كله ، فإني أرى فيها أثر عنصر من عناصر عبقرية الجاحظ ، فأبو عثمان نقريس من صغر أمره ، والنقريس النظّار المدقق ، والجاحظ مطبوع على التدقيق ، لا يريد أن يتفلّت منه أمر قبل الاهتمام به . على أن هذه القصة تشتمل على أشياء غير ما ذكرت ، فإنها تدل على قوة حفظ الجاحظ ، فقد رواها وهو ابن سبعين بوجه التقريب ، فلم يهمل في روايتها لونًا من الألوان ، أو حركة من الحركات ، أو هيأة من الهيآت ، ولكن فيها غير قوة الحفظ ، فإن كلمته : يمحو لوحه ، تتضمن سرًّا من أسرار لغته ، فهي تشبه الكلمة التي سبقت الإشارة إليها في حكايته مع محفوظ النقاش : أين تذهب في هذا المطر والبرد ، فبأي كلام نفصح في هذا اليوم عن فكرة مثل هذه الفكرة ؟

---

(١) كتاب الحيوان — الجزء الثاني — ص ٥

أفنستطيع أن نجد أسهل من هذا التعبير : يمحو لوحه ، أين تذهب في هذا المطر والبرد ؟ على أن هذا المقام لا يتسع للخوض في مثل هذا البحث ، ولكني أحببت أن أشير إلى شأن الآثار التي يبقيها لنا الكاتب مما يتعلق بصباه و بحياته ، فإن هذه الآثار تكشف لنا الغطاء عن كثير من عبقريته .

وكما عرفنا أن الجاحظ نشأ في الكتَّاب ، فقد عرفنا حالةً من حالات عقله في تلك الصبوة الغامضة ، فمن هذه الحالات طائفة من أوهامه ، قال[١] :

« وأما قول النساء وأشباه النساء في الخفافيش ، فإنهم يزعمون أن الخفاش إذا عض الصبي لم ينزع سنه من لحمه حتى يسمع نهيق حمار وحشي ، فما أنسى فزعي من سن الخفاش ، ووحشتي من قربه ! إيماناً بذلك القول ، إلى أن بلغت » .

ومن هذه الخرافات التي برئ إلى الله منها قوله[٢] :

« وزعم لي بعض العلماء ممن قد روى الكتب ، وهو في إرث منها ، أن حية يقال لها الدسّاس تلد ولا تبيض ، وأن أنثى النمور لم تضع نمراً قط إلاّ ومعه أفعى . والأعراب تزعم أن الكمأة تبقى في الأرض ، فتمطر مطرة صيفية ، فيستحيل بعضها أفاعي . فسمع هذا الحديث مني بعض الرؤساء الطائيين ، فزعم لي أنه عاين كمأة ضخمة فتأملها فإذا هي تتحرك ، فنهض إليها فقلعها ، فإذا هي أفعى . هذا ما حدثته عن الأعراب حتى برئت إلى الله من عيب الحديث » .

هذه معتقدات صبي ما لبث أن نشأ وترعرع ، فكان على العقل معتمده ، وإليه مستنده ، في كل أمر من أمور الدين والفلسفة والعلم ، فلم يبق من تلك المعتقدات أثر .

إلى أي حرفة كان ينحرف الجاحظ بعد خروجه من الكتاب ، فقد قيل لنا أنه رؤي يبيع الخبز والسمك بسيحان (نهر بالبصرة) .

وروي أنه كان في حداثته مشتغلاً بالعلم وأمه تمونه ، فجاءته يوماً بطبق كراريس

---

(١) كتاب الحيوان (الجزء الثالث ص ١٦٧) .

(٢) « « (الجزء الرابع ص ٧٥) .

فقال : ما هذا ، قالت . هذا الذي تجيء به ، فخرج مغتمًّا ، وجلس في الجامع وموسى بن عمران جالس ، فلما رآه مغتما ، قال له : ما شأنك ؟ فحدثه الحديث ، فأدخله المنزل ، وقرب إليه الطعام ، وأعطاه خمسين ديناراً ، فدخل السوق ، واشترى الدقيق وغيره ، وحمله الحمالون إلى داره ، فأنكرت الأم ذلك ، وقالت : من أين لك هذا ؟ قال : من الكراريس التي قدمتها إلي ، ثم اتصل بعد ذلك بابن الزيات فأقطعه أربع مائة جريب في الأعالي ، قال الحاكم : وهي تعرف بالجاحظية إلى الآن(١) .

ولكن هل طال عهده ببيع الخبز والسمك ؟ فالذي نعلمه أنه جمع مالاً لا بأس به .

قال ميمون بن هارون قلت للجاحظ(٢) :

ألك بالبصرة ضيعة ؟ فتبسم وقال : إنما أنا وجارية ، وجارية تخدمها ، وخادم وحمار ، أهديت كتاب الحيوان إلى محمد بن عبد الملك فأعطاني خمسة آلاف دينار ، وأهديت كتاب البيان والتبيين إلى ابن أبي دواد فأعطاني خمسة آلاف دينار ، وأهديت كتاب الزرع والنخل إلى إبراهيم بن العباس الصولي فأعطاني خمسة آلاف دينار ، فانصرفت إلى البصرة ومعي ضيعة لا تحتاج إلى تجديد وتسميد .

وربما اقتنى الخدم ومن جملة خدمه خادم اسمه نفيس(٣) :

وربما ابتاع من الخدم من كان يخدم أهل الثروة واليسار وأشباه الملوك(٤) .

وسيظهر لنا من رسائل الفتح بن خاقان إليه أنه كانت له مشاهرات ينالها من الخليفة .

ولقد جمع هذا المال ، وتقلد جلائل الأعمال ، فقد صدّر في ديوان الرسائل أيام المأمون ثلاثة أيام ، ثم إنه استعفى ، فأعفي ، وكان سهل بن هارون يقول : إن ثبت الجاحظ في هذا الديوان أفل نجم الكتاب .

---

(١) ذكر المعتزلة لأحمد بن يحيي بن المرتضى — ص ٣٨ طبعة دائرة المعارف بحيدر آباد الدكن . (٢) معجم الأدباء لياقوت — الجزء السادس ص — ٧٥ .

(٣) كتاب الحيوان — الجزء السادس ص ١٤٩ .

(٤) البيان والتبيين — الجزء الثاني — ص ١٧٦ .

وكان يتقلد خلافة إبراهيم بن العباس الصولي على ديوان الرسائل ، ويحكى أنه لما جاء إلى الديوان جاءه أبو العيناء ، فلما أراد الانصراف ، تقدم الجاحظ إلى حاجبه إذا وصل إلى الدهليز أن لا يدعه يخرج ، ولا يمكنه من الرجوع إليه ، فخرج أبو العيناء ففعل به ذلك ، فنادى بأعلى صوته : يا أبا عثمان قد أريتنا قدرتك ، فأرنا عفوك !

يميل الجاحظ إلى الهزل حتى في دواوين الخلفاء ، ولكنه لم يخلق لهذه الدواوين ، فقد خرج من ديوان الرسائل وفي نفسه عاملان : عامل الهزء وعامل الطموح، فلنوضح هذا الأمر .

كان الجاحظ على نحو ما صوره لنا الفتح بن خاقان في رسالته إليه صاحب عظمة في نفسه ، يثق بعلمه و بمعرفته ، و إن رجلاً قد شعر من نفسه بهذه العظمة ، ليصعب عليه أن يكون في ديوان مسلوب الإرادة فيه ، يعمل لرجال ربما كان يعتقد أنه أرفع منهم منزلة ، وأعلى شأناً ، فما وسعه إلا ترك الديوان ، حتى يتبسط في أفق أعلى ، ويتفسح في جوّ أمد ، ليس بينه و بين شيء من مرادات نفسه حاجز يحجز ، أو حائل يحول ، يوفر على هذه النفس كرامة ، لا يستطيع أن يوفرها وهو راسف في قيد السلطان ، و يتمتع بقراءة كتب كانت غذاء روحه مدة قرن .

خرج الجاحظ من ديوان الخليفة لأنه صاحب اعتماد على نفسه ، يحب أن يعيش مطلقاً من كل قيد ، فلم يخلق لأمثال هذه الدواوين التي لا تخلو من القيد ، وخاصة أن الجاحظ رجل مطبوع على الهزء والسخرية ، ومن كان هذا شأنه قد يتعذّر عليه أن يجدّ ونفسه تبعثه على الهزل ، وأن ينقاد وطبعه يدفعه إلى الانطلاق ، فما أحب أن يقيد نفسه في الدواوين ، فإن رجلاً قد خبر عمل السلطان ، وكان رأيه في هذا العمل على الوجه الآتي[1] :

« وليس هكذا من لابس السلطان بنفسه ، وقار به بخدمته ، فإن أولئك لباسهم

---

(١) رسائل الجاحظ على هامش كامل المبرد — الجزء الثاني — ص ٢٤٨ .

الذلة ، وشعارهم الملق ، وقلوبهم ممن لهم خول مملوءة ، قد لبسها الرعب ، وألفها الذل ، وصحب ترقب الاحتياج ، فهم مع ذلك في تكدير وتنغيص خوفاً من سطوة الرئيس وتنكيل الصاحب ، وتغيير الدول ، واعتراض حلول المحن ، فإن هي حلت ، وكثيراً ما تحلّ ، فناهيك بهم مرحومين ، يرق لهم الأعداء فضلاً عن الأولياء » .

لبعيد عادة عن ملابسة السلطان بنفسه ومقاربته بخدمته ، ولا سيما إذا كان قد شاهد المحن التي أشار إليها وشاهد بمن حلت ، وسنتكلم عليها في الآتي :

إن رجلاً يقول في مدح التجار[١] :

« أودع الناس بدناً ، وأهنأهم عيشاً ، وآمنهم سرباً ، لأنهم في أفنيتهم كالملوك على أسرتهم ، يرغب إليهم أهل الحاجات ، وينزع إليهم ملتمسو البياعات ، لا تلحقهم الذلة في مكاسبهم ، ولا يستعبدهم الضرع لمعاملاتهم ... »

لطمّاح إلى أفق يشبه أُفق التجار ، يتمتع فيه بدعة البدن ، وهناء العيش ، وأمن السرب .

ولئن نزعت بالجاحظ نفسه عن عمل يجد فيه الذل والملق والضرع ، فربما نزعت به هذه النفس إلى عمل يكون فيه صاحب الأمر النافذ ، يضرع الناس إليه ويذلون له ، بدلاً من أن يكون الضارع الذليل ، وما يتيسر له مثل هذا العمل إلا في ظلال الخلافة ، فكأنما وسوست له نفسه أن يذوق لذة هذه الخلافة ، فإذا صحت الرواية التي رواها ابن عساكر في تاريخه وهذه هي :

دخل رجل على الجاحظ فقال له : يا أبا عثمان ، كيف حالك ؟ فقال الجاحظ : سألتني عن الجملة[٢] فاسمعها مني واحداً واحداً ، حالي أن الوزير يتكلم برأيي وينفذ أمري ويواتر الخليفة الصلات إلي ، وآكل من لحم الطير أسمنها ، وألبس من الثياب أخرها ، وأجلس على ألين الطبري ، وأتكئ على هذا الريش ، ثم أصبر على هذا حتى

---

(١) رسائل الجاحظ على هامش كامل المبرد — الجزء الثاني ص ٢٤٨ .
(٢) في الأصل سألتني عن الجلة وفي نسخة عن المجلة .

يأتي الله بالفرج ، فقال له الرجل : الفرج ما أنت فيه ، قال : بل أحب أن تكون الخلافة لي ، و يعمل محمد بن عبد الملك بأمري ، ويختلف إلي ، فهذا هو الفرج ! » .

إذا صحت هذه الرواية فمعناها أن الجاحظ لم يجد لذة في التصدير في ديوان الرسائل لأنه لم يعمل بأمره ، و إنما كان يعمل بأمر الخليفة ، على حين يجد لذته في الانفراد بالأمر والنهي ، فهل أفصح عن أمانيه لما قال[(١)] :

« وليس شيء ألذ ولا أسرّ من عز الأمر والنهي ، ومن الظفر بالأعداء ، ومن عقد المنن في أعناق الرجال ، والسرور بالرياسة ، و بثمرة السيادة ، لأن هذه الأمور هي نصيب الروح ، وحظ الذهن وقسم النفس » ؟ !

ومهما يكن الأمر فإننا نحمد الله الذي لم يأْته بالفرج ، فلو أتاه لحرمت العربية شيئاً غير يسير ، بيد أنه إن فاتته الرياسة عن سبيل السلطان ، فقد أتته هذه الرياسة منقـادة إليه عن سبيل الأدب ، ولا شك في أن الأدب أخلد أثراً من كل سيادة وسلطان !

فالذي نراه أن الجاحظ عاش في نعمة ، وربما أعطى نفسه حقها من اللهو ، فقد كان المكي يعشق جارية يقال لها سَنْدَرَة ، ثم تزوجها نهارية ، وقد دعا الجاحظ إلى منزلها غير مرة[(٢)] .

عاش الجاحظ في نعمة ، وقد بقيت منه آثار فيها شيء يدل على التحقيق العلمي ، لكن هذا الشيء لا يخلو من الدلالة على اعتناء الجاحظ بداره ، فمرة كان يصرف هذه العناية إلى غرس الأشجار ، فمن قوله[(٣)] :

ولقد أردت أن أغرس في داري أراكة ، فقالوا لى : إن الأراك إنما تنبت من حب الأراك ، يغرس في جوف طين ، في قواصر ، و يسقى الماء أياماً ، فإذا نبت الحب

---

(١) كتاب الحيوان — الجزء الثاني — ص ٣٣ .

(٢) كتاب الحيوان — الجزء الخامس — ص ١٣٨ .

(٣) كتاب الحيوان — الجزء الخامس ص ١٢٥ .

وظهر نباته فوق الطين ، وضعت القوصرة كما هي في جوف الأرض ، وتُـكنُّ إلى أن تصير في جوف الأرض ، فإن الذرّ تطالبه مطالبة شديدة ، و إن لم تتحفظ منها بالليل والنهار أفسدتها ، فعمدت إلى مشارات من صُفْر من هذه المسارج ، وهي في غاية الملاسة واللين ، فكنت أضع القوصرة على الترس الذي فيه الأملس ، فأجد فيه الذرّ الكثير ، فكنت أنقل المشارة من مكان إلى مكان ، فما أفلح ذلك الحب » .

ومرّة كان يصرفها إلى تعليق الأبواب الثمينة ، فمن هذا قوله(١) :

« ومثل ذلك قول نجار كان عندي ، دعوته لتعليق باب ثمين كريم ، فقلت له : إن إحكام تعليق الباب شديد ، ولا يحسنه من مائة نجار نجار واحد ، قد يذكر بالحذق في نجارة السيوف ، والقباب ، وهو لا يكمل تعليق باب على تمام الإحكام ، والقباب عند العامة أصعب ، ولهذا أمثال ، فمن ذلك أن الغلام والجارية يشويان الجدي ، والحمل ، وهما يحكمان الشيّ وهما لا يحكمان شيّ جنب ، ومن لم علم له يظن أن شيّ البعض أهون من شيّ الجميع ، فقال لي : قد أحسنت حين أعلمتني أنك تبصر العمل ، فإن معرفتي بمعرفتك تمنعني من التشقيق ، فعلّقه فأحكم تعليقه ، ثم لم يكن عندي حلقة لوجه الباب إذا أردت إصفاقه ، فقلت له أ كره أن أجلسك إلى أن يذهب الغلام إلى السوق ، ويرجع ، ولكن اثقب لى موضعها ، فلما ثقبه وأخذ حقه ، وولّاني ظهره للانصراف ، والتفت إلي فقال : قد جودت الثقب ، ولكن انظر أي نجار يدق فيه الرزّة ، فإنه إن أخطأ بضربة واحدة شقّ الباب ، فعلمت أنه يفهم صناعته فهماً تامًّا » .

من هذا كله نستنتج أن الجاحظ ملم بكل أمر ، سواء أكان هـذا الأمر صغيراً أم كان كبيراً ، فهو لا يشبه بعض العلماء الذين تقوى فيهم ملكة وتضعف ملـكات ، حتى يكاد يصل بهم الضعف إلى البلاهة ، و إنما هو كامل من الكملة .

من هم الرجال الذين لازمهم في حياته ؟

---

(١) كتاب الحيوان — الجزء الثالث — ص ٨٥ .

قال ياقوت في معجم الأدباء[١] :

« وكان الجاحظ ملازماً لمحمد بن عبد الملك خاصاً به ، وكان منحرفاً عن أحمد بن أبي داود ، للعداوة بين أحمد ومحمد ، ولما قبض على محمد ، هرب الجاحظ ، فقيل له : لم هربت ؟ فقال : خفت أن أكون ثاني اثنين إذ هما في التنور ، يريد ما صنع بمحمد و إدخاله تنورَ حديدٍ فيه مسامير ، كان هو صنعه ليعذِّب الناس فيه ، فعذب هو حتى مات ، يعني محمد بن الزيات » .

من هو محمد بن عبد الملك ومن هوأحمد بن أبي داود ، وما هي العداوة بينهما[٢] ؟

أما محمد بن عبد الملك فهو أبو جعفر المعروف بابن الزيات ، وزير المعتصم ، وهذه قصة وزارته :

كان أحمد بن عمار بن شاذي البصري وزير المعتصم ، فورد على المعتصم كتاب من بعض العمال ، فقرأه الوزير عليه ، وكان في الكتاب ذكر الكلأ ، فقال له المعتصم : ما الكلأ ؟ فقال : لا أعلم ، وكان قليل المعرفة بالأدب ، فقال المعتصم : خليفة أمي ، ووزير عامي !

وكان المعتصم ضعيف الكتابة ، ثم قال : أبصروا من بالباب من الكتاب ، فوجدوا محمد بن الزيات ، فأدخلوه إليه ، فقال له : ما الكلأ ؟ فقال : الكلأ العشب على الإطلاق ، فإن كان رطباً فهو الخلا ، فإذا يبس فهو الحشيش ، وشرع في تقسيم أنواع النبات ، فعلم المعتصم فضله ، فاستوزره وحكمه و بسط يده .

ولما مات المعتصم وقام بالأمر ولده الواثق هرون أقرَّ الواثقُ ابنَ الزيات على ما كان عليه في أيام المعتصم ، بعد أن كان ساخطاً عليه في أيام أبيه ، وحلف يميناً مغلظة أنه ينكبه إذا صار الأمر إليه ، فلما ولي ، أمر الكتّاب أن يكتبوا ما يتعلق بأمر البيعة فكتبوا فلم يرض بما كتبوه ، فكتب ابن الزيات نسخة رضيها ، وأمر بتحرير

---

(١) معجم الأدباء — الجزء السادس ص ٥٧ .

(٢) اعتمدت في الكلام عليهما على تاريخ ابن خلكان .

المكاتبات عليها ، فكفّر عن يمينه وقال : عن المال والفدية عن اليمين عوض ، وليس عن الملك وابن الزيات عوض .

فلما مات الواثق وتولى المتوكل ، كان في نفس المتوكلَ من ابن الزيات شيء ، وسببه أنه لما مات الواثق بالله أخو المتوكل أشار ابن الزيات بتولية ولد الواثق ، وأشار ابن أبي دواد الآتي ذكره بتولية المتوكل ، وقام في ذلك وقعد ، حتى عممه بيده ، وألبسه البردة وقبله بين عينيه ، وكان المتوكل في أيام الواثق يدخل على الوزير ابن الزيات فيتجهمه الوزير ، ويغلظ في الكلام ، متقرباً بذلك إلى قلب الواثق ، فأضمرها المتوكل في نفسه ، فلما ولي الخلافة خشي إن نكبه عاجلاً أن يسيّر أمواله ، فيفوته ، فاستوزره ليطمئن ، وجعل ابن أبي دواد يغريه ، ويجد لذلك عنده موقعاً ، حتى قبض المتوكل على ابن الزيات فلم يجد من جميع أملاكه وضياعه وذخائره إلا ما كانت قيمته مائة ألف دينار ، فندم على عمله ، وقال لابن أبي دواد : أطمعتني في باطل ، وحملتني على شخص لم أجد عنه عوضاً .

كان ابن الزيات قد اتخذ في أيام وزارته تنوراً من حديد ، وأطراف مساميره محدودة إلى الداخل ، وهي قائمة مثل رؤوس المسالّ ، وكان يعذب فيه المصادرين وأرباب الدواوين المطلوبين بالمال ، فكيفما انقلب واحد منهم أو تحرك من حرارة العقوبة ، تدخل المسامير في جسمه ، فيجدون لذلك أشد الألم ، ولم يسبقه أحد إلى هذه المعاقبة ، وكان إذا قال له أحد منهم : أيها الوزير ارحمني ، فيقول له : الرحمة خور في الطبيعة !

فلما اعتقله المتوكل ، أمر بإدخاله في التنور ، وقيده بخمسة عشر رطلاً من الحديد ، فقال ابن الزيات : يا أمير المؤمنين ارحمني، فقال له المتوكل : الرحمة خور في الطبيعة ! كما كان يقول للناس ، فلما كان في الحبس طلب دواة وبطاقة ، فأحضرتا إليه ، فكتب :

هي السبيل فمن يوم إلى يوم   كأنه ما تريك العين في النوم

لا تجزعنّ رويداً إنها دول دنيا تنقل من قوم إلى قوم

وسيّرها إلى المتوكل فاشتغل عنها ، ولم يقف عليها إلا في الغد ، فلما قرأها المتوكل أمر بإخراجه فجاؤا به إليه فوجدوه ميتاً ، وذلك في سنة ثلاث وثلاثين ومائتين ، وكانت مدة إقامته بالتنور أربعين يوماً ، فهذا هو التنور الذي خاف الجاحظ أن يكون فيه ثاني اثنين .

ولكن هل نجا الجاحظ من عذاب ابن أبي دواد بعد موت صاحبه ابن الزيات ؟ أظن أنه لم ينج من شيء من ذلك ، وقبل أن نبين ما صنع به ابن أبي دواد ، لا حرج علينا إن أوجزنا في كلمة على ابن أبي دواد .

قال إبراهيم بن الحسن : كنا عند المأمون ، فذكروا من بايع من الأنصار ليلة العقبة، فاختلفوا في ذلك، ودخل أحمد بن أبي دواد ، فعدهم واحداً واحداً بأسمائهم ، وكناهم ، وأنسابهم ، فقال المأمون : إذا استجلس الناس فاضلاً فمثل أحمد ، فقال أحمد : بل إذا جالس العالم خليفة ، فمثل أمير المؤمنين الذي يفهم عنه ويكون أعلم بما يقول منه .

هذا هو أحمد بن أبي دواد !

ولما ولي المعتصم الخلافة جعل ابن أبي دواد قاضي القضاة : وعزل يحيى بن أكثم ، وقد خص به أحمد بن أبي دواد ، حتى كان لا يفعل فعلاً باطناً ولا ظاهراً إلا برأيه .

ولما مات المعتصم وتولى بعده ولده الواثق بالله حسنت حال ابن أبي دواد عنده ، ولما مات الواثق بالله وتولى أخوه المتوكل فلج ابن أبي دواد في أول خلافته ، فولي موضعه ولده أبو الوليد محمد ، وكثر ذاموه ، وقل شاكروه ، واستمر على مظالم العسكر ، والقضاء ، إلى سنة سبع وثلاثين ومائتين ، فسخط المتوكل على القاضي أحمد ، وعلى ولده محمد ، وصرف ولده عن المظالم ، ثم صرفه عن القضاء ، وأخذ من الولد مائة ألف وعشرين ألف دينار ، وجوهراً بأربعين ألف دينار ، وسيّره إلى بغداد من سرمن رأى ، وفوض القضاء إلى القاضي يحيى بن أكثم الصيفي .

كان بين قاضي القضاة أحمد بن أبي دواد ، و بين الوزير ابن الزيات منافسات وشحناء ، وقد هجا بعض الشعراء الوزير ابن الزيات بقصيدة عدد أبياتها سبعون بيتاً ، فبلغ خبرها القاضي أحمد فقال :

أحسن من سبعين بيتاً هجا　　جمعك معناهن في بيت

ما أحوج الملك إلى مطرة　　تغسل عنه وَضَر الزيت

فبلغ ابن الزيات ذلك ، ويقال إن بعض أجداد القاضي أحمد كان يبيع القار فقال :

ياذا الذي يطمع في هجونا　　عرّضت بي نفسك للموت

الزيت لا يزري بأحسابنا　　أحسابنا معروفة البيت

قيّرتم الملك فلم ننقه　　حتى غسلنا القار بالزيت

قلت : لم ينج الجاحظ من شر ابن أبي دواد ، لأنه كان منحرفاً عنه ، ملازماً لعدوه ابن الزيات ، فماذا صنع به ابن أبي دواد ؟

قال أبو عبد الله المرزباني(1) :

« حدث إسحاق الموصلي وأبو العيناء قال : كنت عند أحمد بن أبي دواد بعد قتل ابن الزيات ، فجيء بالجاحظ مقيداً ، وكان من أصحاب ابن الزيات ، وفي ناحيته ، فلما نظر إليه قال : والله ما علمتك إلا متناسياً للنعمة ، كفوراً للصنيعة ، معدداً للمساوي ، وما فتني باستصلاحي لك ، ولكن الأيام لا تصلح منك إلّا لفساد طويتك ، ورداءة دخلتك ، وسوء اختيارك ، وتغالب طبعك ، فقال له الجاحظ : خفّض عليك ، أيدك الله ، فوالله لأن يكون لك الأمر عليّ خير من أن يكون لي عليك ، ولأن أسيء وتحسن ، أحسن عنك من أن أحسن فتسيء ، وأن تعفو عني حال قدرتك ، أجمل من الانتقام مني ، فقال له ابن أبي دواد : قبحك الله ، ما علمتك إلا كثير تزويق الكلام ، وقد جعلت ثيابك أمام قلبك ، ثم اصطفيت

(1) معجم الأدباء لياقوت — الجزء السادس ص ٥٨ .

فيه النفاق والـكفر ، ما تأويل هذه الآية : (وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة ، إن أخذه أليم شديد) ؟ قال: تلاوتها تأويلها ، أعز الله القاضي، فقال : جيئوا بحداد ، فقال : أعز الله القاضي ، ليفك عني أو ليزيدني ، فقال : بل ليفك عنك ، فجيء بالحداد ، فغمزه بعض أهل المجلس أن يعنف بساق الجاحظ ، ويطيل أمره قليلاً ، فلطمه الجاحظ ، وقال : اعمل عمل شهر في يوم ، وعمل يوم في ساعة ، وعمل ساعة في لحظة ، فإن الضرر على ساقي ، وليس بجذع ولا ساجة ! فضحك ابن أبي دواد وأهل المجلس منه ، وقال ابن أبي دواد لمحمد بن منصور وكان حاضراً : أنا أثق بظرفه ولا أثق بدينه ، ثم قال : يا غلام ، صِرْ به إلى الحمام ، وأمط عنه الأذى ، واحمل إليه تخت ثياب ، وطويلة ، وخفًّا ، فلبس ذلك ، ثم أتاه فتصدَّر في مجلسه ، ثم أقبل عليه وقال : هات الآن حديثك يا أبا عثمان » .

هذه طائفة من أكابر الرجال الذين كان يلازمهم ، ويتردد إليهم ، وقد بلغ من استئناس محمد بن عبد الملك الزيات بالجاحظ أن أبا عثمان كان يأكل معه في يوم من الأيام ، فجاؤوا بفالوذجة ، فتولع محمد بالجاحظ ، وأمر أن يجعل من جهته ما رقّ من الجام ، فأسرع الجاحظ في الأكل فتنظف ما بين يديه ، فقال ابن الزيات : تقشعت سماؤك قبل سماء الناس ، فقال الجاحظ : لأن غيمها كان رقيقاً[1] .

ولقد رغب في مجالسة الأمراء ، والخلفاء ، وصحب هؤلاء الأمراء في أسفارهم ، وقد كانوا يكاتبونه ، ومن جملتهم الفتح بن خاقان الذي استوزره المتوكل ، وأمره على الشام ، وأمره أن يستتيب عنه ، وكان المتوكل لا يصبر عن الفتح قدر ساعة .

وقد كان للفتح بن خاقان خزانة كتب لم ير أعظم منها كثرة وحسناً ، وكان يحضر داره فصحاء العرب وعلماء البصرة والـكوفة ، قال أبو هفَّان : ثلاثة لم أر قط ، ولا سمعت بأكثر محبة للـكتب والعلوم منهم : الجاحظ والفتح بن خاقان ، وإسماعيل بن إسحق القاضي[2] .

(١) تاريخ ابن عساكر . (٢) فوات الوفيات — الجزء الثاني .

مجالسة الأمراء ٤

ومن رسائل الفتح بن خاقان إلى الجاحظ كتاب كتبه إليه يقول في فصل منه :[1]

« إن أمير المؤمنين يجد بك ، ويهش عن ذكرك ، ولولا عظمتك في نفسك ، لعلمك ومعرفتك ، لحال بينك و بين بعدك عن مجلسه ، ولغصبك رأيك وتدبيرك ، فيما أنت مشغول به ، ومتوفر عليه ، وقد كان ألقى إليَّ من هذا عنوانه ، فزدتك في نفسه زيادة كفّ بها عن تجشيمك ، فاعرف لي هذه الحال ، واعتقد هذه المنة على كتاب الرد على النصارى ، وافرغ منه ، وعجل به إليَّ ، وكن من جدا به على نفسه ، وتنال مشاهرتك ، قد استطلقته لما مضى ، واستسلفت لك سنة كاملة ، وهذا مما لم تحلم به نفسك ، وقد قرأت رسالتك في بصيرة غنام ، ولولا أني أزيد في مخيلتك ، لعرّفتك ما يعتريني عند قراءتها والسلام » .

ولقد مدح الجاحظ جماعة منهم : إبراهيم بن رباح بن شبيب الجوهري الكاتب ، وكان والياً على الأهواز ، وأبو الفرج نجاح بن سلمة ، وسننظر في شعره ، وكان يكاتب جماعة منهم إبرهيم بن المدبر ، وكان إبرهيم هذا ينبسط مع أبي عثمان ، وكانا يجتمعان في كل ثلاثة أيام .

فلنصحب الجاحظ في أسفاره ، ولننقّب عن الآثار التي خلفّها بعد هذه الأسفار ، فقد كان أبو عثمان جوّاب آفاق ، كأنه دحا الأرض من خبرته بها ، فقد دخل البلدان في صحاري جزيرة العرب والروم والشام وغير ذلك ، وجارى الطرق ودخل البراري ، وأمعن فيها ، وضرب إلى المواضع الوحشية[2] .

ومن ذا الذي يخامره شك في نعمة السفر ، ونتائجه في الأدب ؟ فقد يكون الضرب في مناكب الأرض مشحذة للذهن ، مصقلة للخيال ، لما في مشاهد الطبيعة من مختلف الصور ومتباين الألوان ، مما يكون مادة لرجال العبقرية ، يستمدون منها في الشعر والتصوير ، فقد اقتبس (شاتوبريان) من سفره إلى أميركة صوراً شتى ، وألواناً غريبة ، أسبغت على فكره وعلى لغته نعمة الشباب ، ومن أراد أن يعرف ما الذي

(١) معجم الأدباء لياقوت — الجزء السادس ص ٧٢ .
(٢) كتاب الحيوان — الجزء السابع ص ١٥ .

أوحاه السفر إلى «لوتي» فليقرأ كتبه التي صوّر فيها ما زاره من مختلف الأصقاع، فقد رمى بطرفه في مشاهد هذا العالم المديد؛ فأحيا في كتبه مصر القديمة، وإفريقية المحرقة، وقسطنطينية الساحرة، وكان لبلاد فارس ولديار الشام صورة في هذه الكتب، وأحيا عواصف بحر من البحور، ولذّات جزيرة من الجزائر، وكان يمزج عواطفه بكل ما وقعت عليه عينه.

ولو نظرنا في أدبنا نفسه لرأينا للسفر أثراً في بعض هذا الأدب، فلو لم تحضر الهموم رحل أبي عبادة البحتري، فيوجه عنسه إلى أبيض المدائن، لما كان من شعره هذه السينية الخالدة التي لا نجد سينية أفضل منها في شعر العرب.

أي شيء من إيوان كسرى لم يعرضه علينا البحتري؟ أفاته شيء من صورة أنطاكية؟ أم فاته شيء من موائل المنايا، وتزجية الصفوف، واخضرار لباس الجند واصفراره، وعراك الرجال بين يدي كسرى، وإشاحتهم برمح أو إلاحتهم بترس، فكأنهم أحياء وكأنهم أموات؟

أم فاته شيء من وصف مدامة كأنها مجاجة الشمس، أو كأنها ضوء الليل؟ حتى حار البحتري في هذه المشاهد كلها، واغتلى ارتيابه في العسكر، فكانت يده تتقراهم باللمس، فليس يدري أهو في حلمٍ قد أطبق عينيه في الشك، أم هي أمانٍ غيرت ظنه، فما تمالك في سحر هذه المشاهد، وروعة هذه الصور، أن أعانها بدموعه، فبكى على إيوانٍ بزّ من بسط الديباج، واستلّ من ستور الدمقس، لم يكن بانيه نكساً في الملوك، وصبا إلى قيان المقاصير بين حواء ولعساء، وما تمالك أن بكى على رباع عمرت دهراً للسرور، فصارت هذه الرباع للتعزي والتأسي!

ولو لم يغر المهلبي شعراء بغداد بأبي الطيب المتنبئ حتى تباروا في هجائه، وأسمعوه ما يكره، وتماجنوا به، وتنادروا عليه، لما اتخذ المتنبئ الليل جملاً، وفارق دار السلام متوجهاً إلى حضرة أبي الفضل بن العميد، وإلى أبي شجاع عضد الدولة، فكان من رحلته إلى بلاد فارس هذه الأبيات التي وصف بها شِعْب بوّان فقال:

ملاعب جنة لو سار فيها ... سليمان لسار بترجمان

طَبَت فرسـاننا والخيـل حتى خشيت وإن كرمن ، من الحران

غـدونا تنفض الأغصان فيهـا على أعرافهـــا مثل الجمان

فسترتُ وقد حجبن الحرَّ عني وجئن من الضياء بمـا كفاني

وألقى الشرق منهـا في ثيابي دنانيراً تفر من البنـــان

لها ثمر تشير إليك منـــه بأشربةٍ وقفن بلا أوان

وأمواه تصل بهـا حصـاها صليل الحلي في أيدي الغواني

وكان لنا من هذه الأبيات صور ناطقة في الوصف أضفناها إلى ميراثنا الأدبي .

فالسفر مادة من مواد التصوير والشعر ، وفيه نعمة ربما كانت أكبر من هذه النعم كلها ، فما أحسن ما قاله أحد كتاب الإفرنجة في هذا المعنى ، وليس يحضرني اسمه ، فقد قال : يسافر الإنسان كي ينسى الحقائق ، وفي كلمته هذه معنى بعيد ، فكأنه يريد أن يقول إن الحياة تشتمل على حقائق لا تخلو من إيلام وإيجاع ، فإذا سافر المرء نسي ألمها ، وذهل عن وجعها ، لأن طرفه يلهو بأمور تكاد تكون عزاء النفس وسلوانها .

وإني أعتقد أن من جملة الأمور التي أعانت الجاحظ على حياته المنبسطة كثرة أسفاره التي كانت تجدّد من قوة نفسه ونشاطها .

سافر الجاحظ إلى أنطاكية وإلى دمشق وربما سافر إلى مصر ، ووضع كتاباً اسمه : كتاب البلدان ، وغير بعيد أنه وصف فيه الأمصار التي عرفها ، ولـكن هذا الكتاب لم يسقط إلينا ، فلسنا نعلم خصائص الآثار التي خلّفها لنا بعد رحلته ، وإنما نعرف طائفة من هذه الآثار مبعثرة في تضاعيف ما تناهى إلينا من كتبه ، فإذا حكمنا عليه من هذه الناحية فلا يكون حكمنا قاطعاً ، وإنما يتعلق هذا الحكم بما وصل إلينا من آثار أسفاره دون غيرها مما نطلع عليه .

فمن آثار سفره إلى أنطاكية قوله[1] :

« إني رأيت الثلث الأعلى من منارة مسجد أنطاكية أظهر جدّة من الثلثين الأسفلين ،

---

(١) كتاب الحيوان — الجزء الرابع ص ٥١

فقلت لهم : ما بال هذا الثلث الأعلى أجد وأطرى ؟ قالوا : لأن تِنِّيناً تَرَفَّع من بحرنا هذا ، فكان لا يمر بشيء إلا أهلكه ، فمرّ على المدينة في الهواء ، محاذياً لرأس هذه المنارة ، وكان أعلى مما هي عليه ، فضرب به بذنبه ضربة حذفت من الجميع أكثر من هذا المقدار ، فأعادوه بعد ذلك ، ولذلك اختلف في المنظر » .

فمن هذا الكلام يظهر لنا أن ديدن الجاحظ في كل أمر من الأمور التدقيق والتنقيب فكانت له نفس طُلَعة لا تريد أن يفوتها شيء .

أما آثار سفره إلى دمشق وإلى مصر فإنها أغرب وأعجب ، وقد كان سافر إلى دمشق مع الفتح بن خاقان ، وذكر هذه الحكاية(١) :

« واحتاج أصحابنا إلى التسليم من عض البراغيث أيام كنا بدمشق ، ودخلنا أنطاكية فاحتالوا لبراغيثها بالأسرة ، فلم ينتفعوا بذلك ، لأن براغيثهم تمشي ، وبراغيثهم نوعان : الأبجل والبرد ، إنما سمو ذلك الجنس على شبيه بما حكى لي ثمامة عن يحيى بن خالد البرمكي فإن يحيى زعم أن البراغيث من الخلق الذي يعرض له الطيران فيستحيل بقاً ، كما يعرض الطيران للنمل ، وكما يعرض الطيران للدعاميص ، فإن الدعاميص إذا انسلخت صارت فراشاً ، فكأن أصحابنا قد لقوا من تلك البراغيث جهداً ، وكانت له بلية أخرى ، وذلك أن الذي تسهره البراغيث لا يستريح إلا أن يقتلها بالعرك والفتل ، وإلا أن يقبض عليها فيرمي بها من فوق السرير فيرى أنهن إذا صرن عشرين كان أهون عليه من أن تكون أحداً وعشرين ، وكان الرجل إذا رام ذلك من واحد منها انثنت يده ، وكانوا ملوكاً ، ومثل هذا شديد على أمثالهم ، فما زالوا في جهد منها حتى لبسوا قمص الحرير الصيني ، وجعلوها طويلة الأبدان والأردان ، فناموا مستريحين » .

هذه الآثار التي تركها لنا بعد سفره إلى بلد يكاد يكون جنة الدنيا ، فلسنا ندري أتغنى الجاحظ بغوطة دمشق ، أم نظر إلى مسجدها ، وهو يعلم مقدار افتخار الدمشقيين بمسجدهم ؟ فمن قوله(٢) :

---

(١) كتاب الحيوان — الجزء الخامس ص١١٣ .
(٢) رسائل الجاحظ على هامش الكامل (الجزء الأول)

« وقول الدمشقيين : ما تأملنا قط تأليف مسجدنا ، وتركيب محرابنا ، وقبة مصلانا ، إلا أثار لنا التأمل ، واستخرج لنا التفرس بين غرائب حسن لم نعرفها ، وعجائب صنعة لم نقف عليها ، وما ندري أجواهر مقطعاته أكرم في الجواهر ، أم تنضيد أجزائه في تنضيد الأجزاء » .

إنه ليعلم هذا كله ، فهل استماله شيء من المسجد ومحرابه ، وقبة مصلاه ، وجواهر مقطعاته ؟ أم آلمه عض البراغيث في دمشق ، فشغله هـذا العض عن كل حسن من محاسنها ؟ !

على أنه قد أشار إلى المسجد إشارة خفيفة فقال[١] :

«وقد رأيت مسجد دمشق حين استجاز هذا السبيل ملك من ملوكها ، ومن رآه فقد علم أن أحداً لايرومه ، وأن الروم لا تسخوا أنفسهم به ، فلمـا قام عمر بن عبد العزيز جلله بالجلال ، وغطاه بالكرابيس ، وطبخ سلاسل القناديل ، حتى ذهب عنها ذلك التلألؤ والبريق وذهب إلى أن ذلك الصنيع مجانب لسنة الإسلام ، وأن ذلك الحسن الرائع والمحاسن الدقاق مذهلة للقلوب ، ومشغلة دون الخشوع ، وأن البال لايكون مجتمعاً وهناك شيء يفرقه ويعترض عليه » .

ولئن أبقت دمشق في ذهنه صورة البراغيث لقد أبقت مصر في هـذا الذهن العجيب صورة أبشع ، فمن قوله[٢] :

« كنت بعجت بطن عقرب إذ كنت بمصر فوجدت فيـه أكثر من سبعين عقارب صغار ، كل واحد نحو أرزة ، حرره أبو بكر السروكني » .

غير أن هـذه العبارة لم تخل من اعتراض المعترضين ، فلم يجد فيها بعضهم دليلاً على أن الذي كان بمصر إنما هو الجاحظ ، والذي شككهم في سفر الجاحظ إلى مصر إنما هي هذه الجملة : حرره أبو بكر السروكني ، غير أن ظاهر العبارة يدل على أن

---

(١) كتاب الحيوان — الجزء الأول ص ٢٩

(٢) كتاب الحيوان — الجزء الرابع ص ٥٦

الذي كان بمصر إنما هو الجاحظ ، وأما أبو بكر فقد يجوز أنه حرر حجم العقرب .
والعبارة نفسها من طبقة كلام الجاحظ ، والتجربة التي جربها وهي : بعج بطن العقرب ، من نماذج تجاريبه ، وهي شبيهة بالتجاريب التي قبلها ، كقوله ، وقد رأيت بعض الحيات وكسرتها لأتعرف ما فيها ، كل هذا ما يحملنا على أن نعتقد أن العبارة تشير إلى سفر الجاحظ إلى مصر . وإذا أضفنا إلى هـذا ما نعرفه من كثرة أسفاره ، وقد لمحت إلى هذه الأسفار ، وأضفنا إليه أيضاً ما ذكره صاحب صبح الأعشى[1] من أن للجاحظ رسالة في مدح مصر قال فيها : وإنما سميت مصر بمصير الناس إليها ، قوي اعتقادنا أن الجاحظ سافر إلى مصر ، إلا أن خبر سفره إلى مصر لايخلو من بعض الاضطراب .

وكيف كان الأمر ، لم يكن الجاحظ في أسفاره شاعراً ، أي لم يصور لنا ألوان التربة التي زارها تصويراً فيه حياة وشعور ، وإنما كان يبحث عن بعض حقائق علمية . وسننظر في هذا في كلامنا على تحقيقه .

كيف انطفأ نور هـذا العقل الذي تطلع في قرن متكامل إلى كل ضرب من ضروب المعرفة ، حتى ازدحمت فيه المعارف على متباين أشكالها ، فكان لنا من مزدحمها كنز لايفنى سجيس الليالي ؟

حكى أبو علي القالي عن أبي معاذ عبد الله الخولي المتطبب قال[2] :

« دخلنا يوماً بسر من رأى على عمرو بن بحر الجاحظ نعوده ، وقد فلج ، فلما أخذنا مجالسنا أتى رسول المتوكل إليه ، فقال : وما يصنع أمير المؤمنين بشق مائل ، ولعاب سائل ؟ ثم أقبل علينا فقال : ما تقولون في رجل له شقان ، أحدهما لو غرز بالمال ما أحس، والشق الآخر يمر به الذباب فيغوث ؟ وأكثر ما أشكوه الثمانون » .

وقد حدث يموت بن المزرع شبه هذا الحديث فقال[3] :

---

(١) كتاب الحيوان — الجزء الثالث ص ٣١٨ .

(٢) أمالي القالي — الجزء الأول ص ٥ .

(٣) معجم الأدباء لياقوت — الجزء السادس ص ٧٩ .

« وجه المتوكل في السنة التي قتل فيها أن يحمل إليه الجاحظ من البصرة ، فقال لمن أراد حمله : وما يصنع أمير المؤمنين بامرئ ليس بطائل ، ذي شق مائل ، ولعاب سائل ، وفرج بائل ، وعقل حائل » ؟

وحدَّث المبرد قال[1] :

« دخلت على الجاحظ في آخر أيامه ، فقلت له كيف أنت ؟ فقال : كيف يكون من نصفه مفلوج لو حز بالمناشير ما شعر به ، ونصفه الآخر منقرس لو طار الذباب بقر به لآلمه ؟ وأشد من ذلك ست وتسعون سنة أنا فيها ، ثم أنشدنا :

أترجو أن تكون وأنت شيخ ‏ ‏ ‏ كما قد كنت أيام الشباب
لقد كذبتك نفسك ليس ثوب ‏ ‏ ‏ دريس كالجديد من الثيـاب

وكان يطلي نصفه الأيمن بالصندل والكافور لشدة حرارته ، والنصف الأيسر لو قرض بالمقاريض لما أحس به من خدره وشدة برده .

وكان يقول في مرضه[2] : اصطلحت على جسدي الأضداد ، إن أكلت بارداً أخذ برجلي ، و إن أكلت حارًّا أخذ برأسي ، أنا من جانبي الأيسر مفلوج لو قرض بالمقاريض ما علمت ، ومن جانبي الأيمن منقرس فلو مر به الذباب لتألمت ، وبي حصاة لا ينسرح البول معها ، وأشد ما عليّ ست وتسعون سنة » .

هذه جملة الروايات التي تتعلق بفالجه ، وقد أثرت العلة في كتاباته ، حتى قال في كتاب الحيوان[3] :

« وقد صادف هذا الكتاب مني حالات تمنع من بلوغ الإرادة فيه ، أول ذلك العلة الشديدة ، والثانية قلة الأعوان ، والثالثة طول الكتاب » إلى أن قال :

« فإن وجدت فيه خللاً من اضطراب لفظ ، ومن سوء تأليف ، ومن تقطيع

---

(١) معجم الأدباء لياقوت — الجزء السادس ٧٩ .
(٢) مرآة الجنان — الجزء الثاني ص ١٨٤ .
(٣) كتاب الحيوان — الجزء الرابع ص ٦٩ .

نظام ، ومن وقوع الشيء في غير موضعه ، فلا تنكر بعد أن صورت عندك حالي التي ابتدأت عليها كتابي .

ولكن الناس لم يسامحوه في هذه الحالة التي صورها ، فكانت طائفة منهم يتعقبونه ملتمسين المطاعن والمغامز ، فلم ينج الجاحظ من داء العبقرية ، وأريد بهذا الداء شر جماعة لا تهدأ أعصابهم إلا إذا تقلبوا في المناهش والملاسع .

فمن قول أبي عثمان في هذه الجماعة[١] :

« فإن كثيراً ممن يتكلف قراءة الكتب ، ومدارسة العلم ، يقفون من جميع هذا الكتاب (كتاب الحيوان) على الكلمة الضعيفة ، واللفظة السخيفة ، وعلى موضع من التأليف قد عرض له شيء من استكراه ، وناله بعض الاضطراب ، أو كما يعرض في الكتب من سقطات الوهم وفلتات الضجر ، ومن خطإ الناسخ وسوء تحفظ المعارض على معنى لعله لو تدبره بعقل غير مفسد ، ونظر غير مدخول ، وتصفحه وهو محترس من عوامل الحسد ، ومن عارض التسرع ، ومن أخلاق من عسى أن يتسع في القول بمقدار ضيق صدره ، و يرسل لسانه إرسال الجاهل بكنه ما يكون منه ، ولو جعل بدل شغله بقليل ما يرى من المذموم تنقله بكثير ما يرى من المحمود ، كان ذلك أشبه بالأدب المرضي ، والخيم الصالح ، وأشد مشاكلة للحكمة ، وأبعد من سلطان الطيش ، وأقرب إلى عادة السلف ، وسيرة الأولين ، وأجدر أن يهب الله تعالى له السلامة في كتبه ، والدفاع عن حجته يوم مناضلته خصومه ، ومقارعة أعدائه » .

من هذا يتبين لنا أن العلة قد أثرت في تأليف الجاحظ ، حتى انبرت جماعة لتطلب اللفظة السخيفة ، والكلمة الضعيفة في كتاب الحيوان ، فكان يضطر إلى مداراتهم واستمالتهم و إلى كثرة الاعتذار ، فمن قوله[٢] :

« ولولا سوء ظني بمن يظهر التماس العلم في هذا الزمان ، و يظهر اصطناع الكتب

---

(١) كتاب الحيوان — الجزء السابع ص ٢ .

(٢) كتاب الحيوان — الجزء الخامس ص ٥١ .

في هذا الدهر ، لما احتجت في مداراتهم واستمالتهم وتوفيق نفوسهم وتشجيع قلوبهم ، مع كثرة فوائد هذا الكتاب ، إلى هذه الرياضة الطويلة ، و إلى كثرة هذا الاعتذار ، حتى كأن الذي أفيده إياهم أستفيده منهم ، وحتى كأن رغبتي في صلاحهم رغبة من رغب في دنياهم » .

فما زال الجاحظ في خاتمة حياته يشكو مرة علته ، ومرة شيئاً أشد من العلة ، وهو لؤم بعض الأخلاق ، حتى ورد الخبر بموته .

حدَّث أحمد بن يزيد بن محمد المهلبي عن أبيه قال[1] :

« قال لي المعتز بالله : يا يزيد ، ورد الخبر بموت الجاحظ ، فقلت : لأمير المؤمنين طول البقاء ودوام العز ، قال ، وذلك سنة ٢٥٥ ، قال لي المعتز : قد كنت أحب أن أشخصه إليّ وأن يقيم عندي ، فقلت له : إنه قد كان قبل موته عطلاً بالفالج » .

وكان موته بالبصرة وقعت عليه مجلداته المصفوفة وهو عليل فقتلته[2] .

وقد قال فيه أبو شراعة :

في العلم للعلماء أن يتفهموه مواعظ
و إذا نسيت وقد جمعت علا عليك الحافظ
ولقد رأيت الظرف دهراً ما حواه اللافظ
حتى أقام طريقه عمرو بن بحر الجاحظ
ثم انقضت أيامه وهو الرئيس الواعظ

✲ ✲ ✲

هذه خلاصة حياة تقلب صاحبها في كل أفق من آفاق العيشة ، وخبر كل أمر من أمور الدنيا ، خبر خشونة الحياة ونعيمها ، وامتحن ذل السلطان وعزه ، وتقلد جلائل الأعمال ، وصحب أصاغر الناس وأكابرهم ، وذاق اللذات بمجامعها ، ومدّ الله في أجله فكأنه يقول :

---

(١) تاريخ ابن عساكر . (٢) تاريخ ابن الوردي — الجزء الأول ص ٢٣٤ .

متى يأت هذا الموت لا تبق حاجة   لنفسي إلاّ قد قضيت قضاءها

إن حياة مثل حياة الجاحظ مزدحمة الحوادث ، قد يجد الإنسان في دقائقها كثيراً من العبر ، ولكني لا أمرّ إلا بعبرة واحدة أجعلها خاتمة الكلام على هذه الحياة ، لوجودنا أشباه هذه العبرة في حياة طائفة كبيرة من رجال العبقرية :

حبس الجاحظ نفسه على الأدب والعلم مدة قرن متكامل، وكان همه الأبعد التنقيب عن الحقيقة والتنبيه على الأضاليل ، على نحو ما نبينه في الإشارة إلى تحقيقه العلمي ، فما هو جزاء هذه العناية بالأدب و بالعلم ؟ جزاء هذا كله تعقب الناس إياه وهو في أشد علة ، فقليلاً ما نسامح ، وقليلاً ما نلاين ، وقد طبعنا على التعقب ، ولهجنا بما يؤدي إليه من لواذع القول ولواسع اللفظ ، ننظر إلى سيئة تسترها حسنات ، فلا تفترق العين إلا هذه السيئة ، ونغضي على الحسنات ، فنعمى عنها أو نتعامى ، وقد تؤلمنا المحاسن في كثير من الأحوال ، فلا نحب أن يبرع إلى جنبنا بارع ، هذه طبيعتنا ، وعبثاً نحاول أن نهذب هذه الطبيعة ، هل هذب العلم من أخلاقنا ؟ أفلا نزال في هذه الأخلاق أشباه أجدادنا الذين كانوا يأوون إلى الكهوف والغيران في شباب البشرية !

نعم ، هذا ما لقيه الجاحظ من الناس في أواخر أيامه ، وأغرب من هذا كله أنه ربما ألف كتاباً في باب من الأبواب فيتواطأ على الطعن فيه جماعة بالحسد المركب فيهم ، وهم يعرفون براعة هذا الكتاب وفصاحته ، حتى كان ينسب كتبه إلى من تقدم عصرهم ، فيأتيه أولئك الطاعنون بأعيانهم ، فيكتبون كتبه المنسوبة إلى غيره بخطوطهم ، ويتدارسونها بينهم ويتأدبون بها ، ويستعملون ألفاظها ومعانيها ، ولو علموا أن هذه الكتب ألفها الجاحظ نفسه لما كان منهم إلا الطعن والقدح !

ثقافة الجاحظ

مر بنا أن الجاحظ طلب العلم في ابتداء أمره في كتاب ، والظاهر أن الكتاتيب كانت شائعة في عصر الجاحظ ، فكان يتردد إليها أكابر علماء اللغة أمثال النضر بن شميل وأبي محمد اليزيدي وأبي زيد الأنصاري أحد أساتيذ الجاحظ ، حتى قال النضر بن شميل : كنا ثلاثة في كتاب ، أنا وأبو زيد الأنصاري وأبو محمد اليزيدي .

فإذا كانت كتاتيبهم في تلك الأيام الطيبة على نحو كتاتيبنا في هذه الديار ، لا تطلع عليها شمس ولا يهب في نواحيها نسيم ، فمن ظلمة الكتاب الذي ترعرع فيه الجاحظ انبلج ضياء أضاء مدارك العرب أحد عشر قرناً ، ولا ندري إلى أي قرن يمتد .

ولكن من ذا الذي يعلمنا كيف انصرف الجاحظ من بعد خروجه من الكتاب إلى التوسع في مذاهب الأدب والدين والعلم والفلسفة ؟ ومن ذا الذي رغبه في هذا التوسع ؟ فإننا نجهل هذا كله ، وإنما نعلم أن أبا عثمان قرأ على طائفة من العلماء لم تغب عنا أسماؤهم ، وإذا علمنا هذا هان علينا أن تعرف كيف نما عقل الجاحظ ، فلسنا نرتاب بأن لأساتيذه أثراً بليغاً في نمو عقله وامتداد ثقافته .

من هم أساتيذ الجاحظ ؟

سمع الجاحظ من أبي عبيدة والأصمعي وأبي زيد الأنصاري ، وأخذ النحو عن الأخفش أبي الحسن وكان صديقه ، وأخذ الكلام عن النظّام ، وتلقف الفصاحة من العرب شفاهاً بالمربد[1]

لقد كشف لنا هذا النبأ الغطاء عن تثقيف الجاحظ ، فإذا بحثنا عن خصائص

(١) معجم الأدباء — الجزء السادس ص ٥٦ — مطبعة أمين هندية بمصر .

الرجال الذين روّضوا عقل أبي عثمان ، ونقبنا عن المذاهب التي عرفوا بها ، استنبطنا من مبحثنا أن للجاحظ أربع ثقافات : تفقهه في اللغة والأدب والدين والعلم .

أما اللغة ، وربما كانت هذه الناحية أعجب نواحي الجاحظ ، فقد أخذها عن أهلها الذين لم يفسد بيانهم شيء من العجمة ، فإذا ملك الجاحظ من زمام الفصاحة ما لم يملك غيره من الكتاب فإن لمخالطته عرب المربد سرًّا في هذه الفصاحة ، وسننظر في هذا كله في كلامنا على لغته .

وأما الأدب فقد خرجه فيه رجال كانوا مضارب الأمثال فيه ، وإذا قلنا الأدب أردنا بهذه اللفظة ما كانوا يريدونه بها في عصر الجاحظ ، فالأدب كان يتضمن أخبار العرب وأشعارهم وملحهم ونوادرهم وغرائبهم وما شابه ذلك .

وكذلك الدين والعلم والفلسفة فقد استضاء في هذا كله بضياء رجل كان مضرب المثل في مذهبه .

فلننظر في كل من أساتيذ الجاحظ نظرة عجلة ، حتى نلم بعقول الذين ثقفوا رجلاً مثل الجاحظ ، فإن إلمامة من هذا الشكل تمهد لنا مجازاً إلى الاطلاع على أسرار عبقرية الجاحظ ، لأننا إذا علمنا أن أبا عثمان قرأ على أشباه النظّام وأبي عبيدة والأصمعي وأبي زيد الأنصاري والأخفش أبي الحسن ، وأخذ اللغة عن عرب المربد ، سهل علينا بعد هذا كله أن ندرك سر هذه الآفاق التي تبسط فيها الجاحظ وإذا أضفنا إلى معرفتنا هذه ما نعرفه من طبيعة الكتب التي كان يطالعها في حياته ومن ولعه بالكتب على وجه عامّ لم تشكل علينا نشأة هذه العبقرية الفتانة .

من هو أبو عبيدة ، ومن هو الأصمعي ، ومن هو أبو زيد الأنصاري ، ومن هو الأخفش أبو الحسن ، ومن هو النظام ، وما هو رأي الجاحظ فى أساتيذه ؟

فلنبحث قبل كل شيء عن جماعة العلماء الذين تولوا تثقيف الجاحظ من ناحية الأدب ، وأريد بهذه الجماعة أبا عبيدة والأصمعي وأبا زيد الأنصاري والأخفش

أبا الحسن ، ولنذكر على سبيل الإيجاز آراء أهل عصرهم فيهم [١] .

أما أبو عبيدة معمر بن المثنى التيمي البصري فهو الذي قال فيه الجاحظ نفسه : لم يكن في الأرض خارجي ولا إجماعي أعلم بجميع العلوم منه .

وقد كان أبو نواس يتعلم منه ويقول فيه : ذاك أديم طوي على علم .

أقدمه هرون الرشيد من البصرة إلى بغداد سنة ثمان وثمانين ومائة ، وقرأ عليه أشياء من كتبه .

وقد كان الفضل بن الربيع يقول : هذا علاَّمة أهل البصرة ، أقدمناه لنستفيد من علمه ، إلا أنه كان سيء العبارة مع فوائد كثيرة ، وعلوم جمة .

وقد كان جبّاهاً ، لم يكن بالبصرة أحد إلا وهو يداجيه ويتقيه على عرضه .

خرج مرة إلى بلاد فارس قاصداً موسى بن عبد الرحمن الهلالي ، فلما قدم عليه قال موسى لغلمانه : احترزوا من أبي عبيدة ، فإن كلامه كله دق ، ثم حضر الطعام ، فصب بعض الغلمان على ذيله مرقة ، فقال له موسى : قد أصاب ثوبك مرق ، وأنا أعطيك عوضه عشرة ثياب ، فقال أبو عبيدة : لا عليك ، فإن مرقك لا يؤذي ، أي ما فيه دهن ، ففطن لها موسى وسكت !

وكان الأصمعي إذا أراد الدخول إلى المسجد قال : انظروا لا يكون فيه ذاك ، يعني أبا عبيدة ، خوفاً من لسانه .

ولما مات أبو عبيدة لم يحضر جنازته أحد ، لأنه لم يكن يسلم من لسانه أحد ، لا شريف ولا غيره ، وكان وسخاً ، ألثغ ، مدخول النسب ، مدخول الدين ، يميل إلى مذهب الخوارج ، وكان لا يقبل شهادته أحد من الحكام .

كانت ولادته سنة عشر ومائة في الليلة التي توفي بها الحسن البصري .

وتوفي سنة تسع ومائتين بالبصرة ، وقيل سنة إحدى عشرة ، وقيل سنة عشر ، وقيل سنة ثلاث عشرة ومائتين .

---

(١) رجعت في الكلام عليهم إلى ابن الأنباري صاحب الطبقات وابن خلكان .

وكان سبب وفاته أن محمد بن القاسم بن سهل النوشجاني أطعمه موزاً فمات منه، ثم أتاه أبو العتاهية فقدّم إليه موزاً فقال له أبو العتاهية : ما هذا يا أبا جعفر، قتلت أبا عبيدة بالموز وتريد أن تقتلني به؟ لقد استحليت قتل العلماء!

وتصانيفه تقارب مائتي مصنف منها كتب في الحمام والحيات والعقارب والخيل والإبل والزرع، أي في الموضوعات التي عالجها الجاحظ ذاته.

* * *

وأما الأصمعي فهو صاحب لغة ونحو، وإمام في الأخبار والنوادر والملح والغرائب، وهو من أهل البصرة، قدم بغداد في أيام هرون الرشيد.

قيل لأبي نواس : قد أحضر أبو عبيدة والأصمعي إلى الرشيد، فقال : أما أبو عبيدة فإنهم إن أمكنوه قرأ عليهم أخبار الأولين والآخرين، وأما الأصمعي فبلبل يطربهم بنغماته.

كان حسن الإنشاد والزخرفة لرديء الأخبار والأشعار، حتى يحسن عنده القبيح.

وقال عمر بن شبة : سمعت الأصمعي يقول : أحفظ ستة عشر ألف أرجوزة.

وقال إسحق الموصلي : لم أر الأصمعي يدعي شيئاً من العلم فيكون أحد أعلم به منه.

وكان الشافعي يقول : ما عبّر أحد عن العرب بأحسن من عبارة الأصمعي.

وقد حرص المأمون على الأصمعي وهو بالبصرة أن يصير إليه، فلم يفعل، واحتج بضعفه وكبره. فكان المأمون يجمع المشكل من المسائل ويسيّرها إليه ليجيب عنها.

كانت ولادته سنة اثنتين، وقيل ثلاث وعشرين ومائة، وتوفي في صفر سنة ست عشرة، وقيل أربع عشرة، وقيل سبع عشرة ومائتين بالبصرة، وقيل بمرو.

* * *

وأما أبو زيد الأنصاري فهو من أئمة الأدب، وغلبت عليه اللغة والنوادر والغريب. كان ثقة في روايته، وكان سيبويه إذا قال : سمعت الثقة، أراد به أبا زيد الأنصاري. حدث أبو عثمان المازني قال : رأيت الأصمعي وقد جاء إلى حلقة أبي زيد المذكور

فقبل رأسه ، وجلس بين يديه ، وقال : أنت رئيسنا وسيدنا من خمسين سنة .

وكان الثوري يقول : قال لي ابن مناذر ، أصف لك أصحابك ، أما الأصمعي فأحفظ الناس ، وأما أبو عبيدة فأجمعهم ، وأما أبو زيد الأنصاري فأوثقهم .

ويروى عن أبي عبيدة والأصمعي أنهما سئلا عن أبي زيد الأنصاري ، فقالا : ما شئت من عفاف وتقوى و إسلام .

كانت وفاته بالبصرة في سنة خمس عشرة ، وقيل أربع عشرة ، وقيل ست عشرة ومائتين ، وعمّر عمراً طويلاً حتى قارب المائة ، وقيل عاش ثلاثاً وتسعين سنة ، وقيل خمساً وتسعين ، وقيل ستاً وتسعين .

وأما الأخفش أبو الحسن فهو من أكابر أئمة النحو في البصرة .

أخذ النحو عن سيبويه ، وكان أكبر منه ، وكان يقول : ما وضع سيبويه في كتابه شيئاً إلا وعرضه عليَّ ، وكان يرى أنه أعلم به مني ، وأنا اليوم أعلم به منه .

حكى أبو العباس ثعلب عن آل سعيد بن سالم ، قالوا : دخل الفرّاء على سعيد المذكور فقال لنا سعيد : قد جاءكم سيد أهل اللغة وسيد أهل العربية ، فقال الفرّاء : أما ما دام الأخفش يعيش فلا .

وكان الأخفش أجلع ، والأجلع الذي لا تنضم شفتاه على أسنانه ، والأخفش الصغير العينين ، مع سوء بصرهما ، وكانت وفاته سنة خمس عشرة ومائتين ، وقيل سنة إحدى وعشرين ومائتين .

* * *

هذه جماعة العلماء الذين أخذ الجاحظ عنهم النحو واللغة والنوادر والغريب والأخبار والملح ، ولا ندري ماذا أخذ عنهم أيضاً .

وللجاحظ رأي في أساتيذه ، فإذا اتسع له مجال النقد نقدهم ولم يتهيب ، والظاهر أنه كان يستعصي عليه في بعض الأحايين فهم كلام أستاذه في النحو الأخفش أبي الحسن حتى قال له يوماً[1] .

---

(١) كتاب الحيوان — الجزء الأول ص ٤٥ .

« أنت أعلم الناس بالنحو، فلم لا تجعل كتبك مفهومة كلها، وما بالنا نفهم بعضها ولا نفهم أكثرها، وما بالك تقدم بعض العويص وتؤخر بعض المفهوم ؟ قال : أنا رجل لم أضع كتبي هذه لله، وليست هي من كتب الدين، ولو وضعتها هذا الموضع الذي تدعوني إليه قلّت حاجاتهم إليّ فيها، وإنما كانت غايتي المنالة، فأنا أضع بعضها هذا الموضع المفهوم لتدعوهم حلاوة ما فهموا إلى التماس فهم ما لم يفهموا، وإنما قد كسبت في هذا التدبير إذ كنت إلى التكسب ذهبت، ولكن ما بال إبراهيم النظّام، وفلان، وفلان، يكتبون الكتب لله بزعمهم، ثم يأخذها مثلي في موافقته وحسن نظره وشدة عنايته، ولا يفهم أكثرها ؟ ! » .

فمن هذا يتبين لنا ناحية من نواحي عقول أساتيذ الجاحظ، فلئن كان الأخفش من أكابر النحويين لقد كان صاحب حيلة وفطنة، يعرف كيف يتصرف في جرّ مرغوب . وكما أن أبا عثمان نقد الأخفش في غمغمته في النحو، فقد نقد الأصمعي وأبا عبيدة والأخفش، في مقدار نظرهم في الشعر، فقد قال[1] :

« طلبت الشعر عند الأصمعي فوجدته لا يحسن إلا غريبه، فرجعت إلى الأخفش فوجدته لا يتقن إلا إعرابه، فعطفت على أبي عبيدة، فوجدته لا ينقل إلا ما اتصل بالأخبار وتعلق بالأيام والأنساب، فلم أظفر بما أردت إلا عند أدباء الكتاب، كالحسن بن وهب ومحمد بن عبد الملك الزيات . . . حتى قال الصاحب على أثر هذه الحكاية : فلله أبو عثمان، فلقد غاص على سر الشعر، واستخرج أرق من السحر » .

وقد كنت ذكرت هذا الكلام في مستهل القول وبينت بعض انحرافه عن الصواب .

ما لنا ولهذا فإننا نتكلم على نقد الجاحظ لأساتيذه، ولسنا نتكلم على وجه الصواب أو الخطأ في هذا النقد .

---

(١) العمدة لابن رشيق — الجزء الثاني ص ٨٤ .

هذا ما تناهى إلينا من تخريج الجاحظ في الأدب ، و إلى جنب هؤلاء العلماء عالم في طبقة مختلفة عن طبقاتهم ، قد أثَّر في الجاحظ من ناحية غير الناحية التي أثَّروا فيها ، فلئن كان لأبي عبيدة والأصمعي وأبي زيد الأنصاري والأخفش أبي الحسن ، أثر بليغ في تثقيف عقل الجاحظ من جهة الأدب ، لقد كان للنظَّام أثر أبلغ في تثقيف هذا العقل من جهة الدين والعلم .

والتلميذ محمول على تقليد أستاذه ، ور بما قلده في حركاته وسكناته وفي مشيته .

يقول الجاحظ في النظَّام[1] :

« الأوائل يقولون : في كل ألف سنة رجل لانظير له ، فإن كان ذلك صحيحاً فهو أبو إسحق النظام » .

وقال فيه في مقام آخر[2] :

« ما رأيت أحداً أعلم بالكلام والفقه من النظَّام » .

وقال أيضاً في كلام له على تأثير النظَّام في المعتزلة[3] :

« أنهج لهم سبلاً ، وفتق لهم أموراً ، واختصر لهم أبواباً ظهرت فيها المنفعة ، وشملتهم بها النعمة » .

صوّر لنا الجاحظ أستاذه أبا إسحق النظَّام في صور شتى ، فمرة كان يعرض علينا طبيعة نظره وتمييزه ، فقد قال[4] :

« وكان إبرهيم مأمون اللسان ، قليل الزلل والزيغ في باب الصدق والكذب ، ولم أزعم أنه قليل الزيغ والزلل على أن ذلك قد كاد يكون منه و إن كان قليلاً ، بل إنما قلت على مثل قولك : فلان قليل الحياء ، وأنت لست تريد حياءً البتة ، وذلك أنهم ربما وضعوا القليل في موضع ليس ، و إنما كان عيبه الذي لايفارقه

---

(١) ذكر المعتزلة للمرتضى — ص ٢٩ . (٢) ذكر المعتزلة للمرتضى — ص ٣٠ .

(٣) كتاب الحيوان — الجزء الرابع ص ٦٩ .

(٤) كتاب الحيوان — الجزء الثاني ص ٨٣ .

سوء ظنه ، وجودة قياسه على العارض والخاطر السابق الذي لايوثق بمثله ، فلو كان بدل تصحيحه القياس التمس تصحيح الأصل الذي قاس عليه كان أمره على الخلاص ، ولكنه كان يظن الظن ، ثم يقيس عليه ، وينسى أن بدء أمره كان ظناً ، فإذا أتقن ذلك وأيقن ، جزم عليه ، وحكاه عن صاحبه حكاية المستبصر في صحة معناه ، ولكنه كان لايقول : سمعت ولا رأيت ، وكان كلامه إذا خرج مخرج الشهادة القاطعة لم يشك السامع أنه إنما حكى ذلك عن سماع قد امتحنه ، أو عن معاينة قد بهرته » .

ومرة كان يعرض علينا مبلغ ثقة أصحابه به ، فقد قال[1] :

« وكنا لا نرتاب بحديثه إذا حكى عن سماع أو بيان » .

وحيناً كان يصف لنا مقدار حمله السر ، فقد قال[2] :

« وكان أبو اسحق إبرهيم بن سيار النظّام أضيق الناس صدراً بحمل سره ، وكان شر مايكون إذا يؤكد عليه صاحب السر ، وكان إذا لم يؤكد عليه ربما نسي القصة فيسلم صاحب السر ، وقال له مرة قاسم التمّار : سبحان الله ، ما في الأرض أعجب منك ، أودعتك سراً فلم تصبر عن إفشائه يوماً واحداً ! والله لأشكونك للناس، فقال: يا هؤلاء ، سلوه نممت عليه مرة واحدة ، أو مرتين ، أو ثلاثاً ، أو أربعاً ؟ فلمن الذنب ؟ فلم يرض بأن يشاركه في الذنب حتى صيَّر الذنب كله لصاحب السر»

وحيناً كان يصف لنا أخلاقه ، فقد قال[3] :

« وكان أنفاً ، شديد الشكيمة ، أبّاءً للهضيمة » .

هذا بعض ما اتصل بنا من آراء الجاحظ في أستاذه النظّام ، وإني أرى أن أذكر الآن نماذج من مذاهب النظّام في الدين ، والفلسفة ، والعلم ، وأنماطاً من تهكمه

---

(١) كتاب الحيوان — الجزء الرابع ص ١٠٦ .

(٢) كتاب الحيوان — الجزء الخامس ص ٦١ .

(٣) كتاب الحيوان — الجزء الأول ص ١٣٦ .

وخصائص عقله ، حتى نعرف من هو الرجل الذي أثر في الجاحظ من نواح كثيرة .

إبرهيم بن سيّار بن هانئ النظّام رئيس من رؤساء المعتزلة ، وقد انفرد عن أصحابه بمسائل تبعه فيهـا جماعة سموا بالنظّامية ، فاعتزاله يدور على قواعد معينة ذكرها الشهرستاني في كتاب الملل والنحل ، فلا محل للإفاضة في ذكرها في مثل هذا المقام ، ولكنني لا أرى بأساً ببيان بعض آرائه في الدين ، من هذه الآراء أن استواء الطاعات يؤدي إلى استواء أهلها في الثواب ، وكذلك الحال في المعاصي ، قال الجاحظ[1] :

« وزعم أبو إسحق أن الطاعات إذا استوت استوى أهلها في الثواب ، وأن المعاصي إذا استوت استوى أهلها في العقاب ، وإذا لم يكن منهم طاعة ولا معصية استووا في التفضُّل ، وزعم أن أجناس الحيوان [وكلّ شيء] يحس ويألم ، في التفضُّل سواء » .

فكأن النظّام يريد بهـذا القول أن الله عزّ وجلّ ينظر إلى الناس إذا استوت طاعتهم أو معاصيهم نظرة واحدة ، فلا يقدم صالحاً على صالح ، ولا يؤخر طالحاً عن طالح ، وكذلك نظره إلى كل حيوان ذي شعور فلا يفضل ديكاً على كلب مثلًا ، وإن رأياً مثل هـذا الرأي يدلنا على طبيعة المباحث الدينية التي كانوا يبحثونها فى عصر الجاحظ .

وقريب من هذا الرأي قوله فى دخول الأطفال الجنة ، وفى الفرق بين الأطفال وبين البهائم ، فإلى القارىء هذا القول على نحو ما أشار إليه الجاحظ ، وهو لا يخلو من يسر ومسامحة[2] .

« وزعم أن أطفال المشركين والمسلمين كلهم في الجنة ، وزعم أن ليس بين الأطفال ولا بين البهائم فرق ، وكان يقول : إن هذه الأبدان السبعية والبهيمية لا تدخل الجنة ، ولكن الله عزّ وجلّ ينقل تلك الأرواح خالصة من تلك الآفات ، فيركبها فى أي الصور أحب » .

---

(١) كتاب الحيوان — الجزء الثالث ص ١٢٢ .

(٢) كتاب الحيوان — الجزء الثالث ص ١٢٢ .

ولما قالوا بقتل الكلب وأشباهه رد عليهم بما يلي ، قال الجاحظ[(١)] :

« لما قال معبد في قتل الكلب وتلا قول الله عزّ وجلّ : (واتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين ، ولو شئنا لرفعناه بها ولكنه أخلد إلى الأرض واتّبع هواه ، فمثله كمثل الكلب ، إن تحمل عليه يلهث ، أو تتركه يلهث ، ذلك مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا فاقصص القصص) . قال أبو إسحق : وإن كنت إنما جعلت الكلب شرّ الخلق بهذه العلة ، فقد قال على نسق هذا الكلام : (ولقد زرأنا لجهنم كثيراً من الجن والإنس ، لهم قلوب لا يفقهون بها ، ولهم أعين لا يبصرون بها ، ولهم آذان لا يسمعون بها ، أولئك كالأنعام بل هم أضلّ) . فالذي قال في الإبل والبقر والغنم أعظم ، فأسقط من أقدارها بقدر معنى الكلام ، وأدنى ذلك أن تشرك بين الجميع الذم ، فإنك متى أنصفت في هذا الوجه دعاك ذلك إلى أن تنصفها في تتبع ما لها من الأشعار والأمثال والأخبار والآيات كما تتبعت ما عليها » .

ولا أرى لي مندوحة عن التنبيه على رأيه في بعض المفسّرين لمشاركة الجاحظ له في هذا الرأي على نحو ما يتبين لنا هذا في كلامنا على دين الجاحظ ، كان أبو إسحق يقول[(٢)] :

« لا تسترسلوا إلى كثير من المفسرين ، وإن نصبوا أنفسهم للعامة ، وأجابوا في كل مسألة ، فإن كثيراً منهم يقول بغير رواية ، على غير أساس ، وكلما كان المفسّر أغرب عندهم ، كان أحب اليهم ، وليكن عندكم عكرمة والكلبي والسري والضحاك ومقاتل بن سليمان وأبو بكر الأصم في سبيل واحدة ، فكيف أثق بتفسير ، وأسكن إلى صوابهم ، وقد قالوا في قوله عزّ وجلّ : (وأن المساجد لله) ، إن الله عزّ وجل لم يعن بهذا الكلام مساجدنا التي نصلي فيها بل إنما عنى الجباه وكل ما سجد

---

(١) كتاب الحيوان — الجزء الأول ص ١٧٥ .

(٢) كتاب الحيوان — الجزء الأول ص ١٦٨ .

الناس عليه من يد ورجل وجبهة وأنف وثفنة ، وقالوا في قوله تعالى : (أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت) ، إنه ليس الجمال والنوق . إنما يعني السحاب . و إذا سئلوا عن قوله : (وطلح منضود) ، قالوا : الطلح هو الموز ، وجعلوا الدليل على أن شهر رمضان كان فرضاً على جميع الأمم ، وأن الناس غيروه ، قوله تعالى : (كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم) ، وقالوا في قوله تعالى : (ربّ لِمَ حشرتني أعمى وقد كنت بصيراً) ، قالوا يعنى أنه حشره بلا حجة ، وقالوا في قوله تعالى : (و يل للمطففين) ، والو يل واد في جهنم ، ثم قعدوا يصفون ذلك الوادي ، ومعنى الو يل في كلام العرب معروف ، و كيف كان في الجاهلية قبل الإسلام ؟ وهو من أشهر كلامهم ، وسئلوا عن قوله تعالى : (قل أعوذ برب الفلق) ، قالوا : الفلق واد في جهنم ، ثم قعدوا يصفونه ، وقال آخرون : الفلق المِقْطَرة بلغة اليمن ، وقال آخرون في قوله تعالى : (عيناً فيها تسمى سلسبيلاً) ، قالوا : أخطأ من واصل بعض هذه الكلمة ببعض ، قالوا : و إنما هي : سَلْ سبيلاً إليها يا محمد ، فإن كان كما قالوا فأين معنى « تسمى » ، وعلى أي شيء وقع قوله « تسمى » ، فتسمى ماذا ؟ وما ذلك الشيء ؟ . . . » .

هذا من ناحية بعض معتقدات النظام في الدين ، أما من ناحية الفلسفة فهذا رأيه في مذهب الشـكّاك ، فقد قال[1] :

« نازعت الملحدين والشـكاك ، فوجدت الشـكاك أبصر بجوهر الكلام من أصحاب الجحود » .

وقال في موطن آخر[2] :

« الشاكّ أقرب إليك من الجاحد ، ولم يكن يقين قط حتى صار فيه شك ، ولم ينتقل أحد عن اعتقاد إلى اعتقاد غيره حتى يكون بينهما حال شك » .

فإذا عرفنا طائفة من آرائه في الدين والفلسفة فلا بأس بأن نعرف شيئاً من

(١) كتاب الحيوان — الجزء السادس ص ١١ .
(٢) كتاب الحيوان — الجزء السادس ص ١١ .

ناحيته العقلية ، فقد كان مطبوعاً على البحث عن أصل كل شيء ، وعن علته ، دون أن يقتصر على الانقياد والتقليد ، وهـذا من خصائص الجاحظ نفسه ، فقد قال [١] :

« بلغني وأنا أحدث أن النبي صلى الله عليه وسلم نهى عن اختناث فم القربة والشراب منه ، قال : فكنت أقول إن لهذا الحديث لشأناً ، وما في الشرب من فم القربة حتى يجيء فيها هذا النهي ، حتى قيل إن رجلاً شرب من فم قربة فوكعته حية فمات ، وإن الحيات تدخل فى أفواه القرب ، علمت أن كل شيء لا أعرف تأويله من الحديث أن له مذهباً و إن جهلته » .

من هدا يتبين لنا أن النظَّام لا يؤمن بالأُمور قبل أن يعمل عقله في أصل هـذه الأُمور ، وهذه صفة من صفات الجاحظ تظهر لنا في الآتي :

فلننظر في الذي يدل على حسن تصرفه في الاختبار والامتحان ، فقد قال [٢] :

« إذا أردت أن تعرف مقدار الرجل العالم ، وفى أي طبقة هو ، وأردت أن تدخله الـكير فتنفخ عليه ليظهر لك فيه الصحة من الفساد ، فكن عالماً في صورة متعلم ، ثم اسأله سؤال من يطمع فى بلوغ حاجته منه » .

على أن النظَّام لم يكتف بطلب الفلسفة والـكلام ، و إنما عكف على طلب العلم . ولا سيما علم الطبيعة ، وكان الجاحظ ينقل عنه . ولا بأس بأن أشير إلى نموذج من آرائه في هذا العلم فأشير إلى رأيه في انتشار الضياء والحرارة ، دون أن أتعرض لصحة هذا الرأي أو لفساده ، و إنما أ كتفي بإثباته في هذا المقام ، حتى نعرف كيف كانت مباحثهم عن الطبيعة في عصره ، إذ أن الضياء والحرارة معروف أمرهما في عصرنا هذا ، فلا أرى حاجة إلى الخوض في مثل هذا المعنى ، قال الجاحظ على لسانه [٣] :

---

(١) كتاب الحيوان — الجزء الرابع ص ٨٨ .
(٢) كتاب الحيوان — الجزء السادس ص ١١ .
(٣) كتاب الحيوان — الجزء الخامس ص ٢ .

« النار اسم للحَرِّ والضياء ، فإذا قالوا : أحرقت أو سخنت ، فإنما الإحراق والتسخين لأحد هذين الجنسين المتداخلين ، وهو الحرُّ دون الضياء ، وزعم أن الحرَّ جوهر صعّاد ، و إنما اختلفا ولم يكن اتفاقهما على الصعود موافقاً بين جواهرهما ، لأنهما متى صارا من العالم العلوي إلى مكان صار أحدهما فوق صاحبه ، وكان يجزم القول و يبرم الحكم ، بأن الضياء هو الذي يعلو إذا انفرد ولا يعلى ، قال : ونحن إنما صرنا إذا أطفأنا نار الأتون وجدنا أرضه وهواه وحيطانه حارّة ولم نجدها مضيئة ، لأن في الأرض وفي الماء الذي قد لابس الأرض حرًّا كثيراً وتداخلاً متشابكاً ، وليس فيها ضياء ، وقد كان حر النار هيج تلك الحرارة فأظهرها ولم يكن هناك ضياء من ملابس فيهيّجها الضياء وأظهرها ، كما اتصل الحر بالحر ، فأزاله من موضعه ، وأبرزه من مكانه ، فلذلك وجدنا أرض الأتون وحيطانها وهواها حارة ولم نجدها مضيئة » .

ولقد كان النظّام مع هذا العلم ومع هذه الفلسفة يميل إلى التنكيت في بعض الأحوال ، قال الجاحظ[١] :

« وأنشدني إبرهيم بن هانئ وعبد الرحمن بن منصور :

جنونك مجنون ولست بواجد طبيباً يداوي من جنون جنون

وكان إبرهيم لا يقيم شعراً ولا أدري كيف أقام هذا البيت ؟ وكان يدعي بحضرة أبي إسحق علم الحساب والكلام والهندسة واللحون ، وأنه يقول الشعر ، فقال أبو إسحق : نحن لم نمتحنك في هذه الأمور فلك أن تدعيها عندنا . كيف صرت تدعي قول الشعر ، وأنت إذا رويته لغيرك كسرته ، قال : هكذا ، فإني طبعت أن أقيمه إذا قلت ، وأكره إذا أنشدت ، قال أبو إسحق : ما بعد هذا الكلام كلام ! » .

فقوله ما بعد هذا الكلام ، لا يخلو من تنكيت باطن .

(١) كتاب الحيوان — الجزء الثالث ص ٣٤ .

***

بقي أن نعرف بعض ما وقع إلينا من طبيعة الكتب التي كان يطالعها الجاحظ في حياته ، حتى نلمّ بعناصر ثقافته بحذافيرها .

سمع الجاحظ من الفلاسفة ، وقرأ كتب الأطباء والمتكلمين ، فضلاً عن كتب الأدب التي تبحث عن اللغة والنحو والنوادر والأخبار والأشعار والغرائب وما شابهها ، وقرأ كتباً غيرها نقل عنها ، منها : كتاب الفراسة لإقليمون ، وكتاب طباع الألبان لصاحبه ماسرجويه ، وكتاب المنطق لأرسطاطاليس ، وكتاب إقليدس ، ونقل عن بختيشوع ، وعن حنين ، وعن جالينوس ، وعن صاحب الديك وغيرهم .

فقد نظر في الذي أودعته الأوائل كتبها ، وخلدته من عجيب حكمتها ، ودوّنته من أنواع سيرها ، بحيث أصبح له اطلاع عام على الأفكار والمعاني . فهو من هذا الباب كامل من الكملة ، وأريد بالكامل من أخذ من كل شيء بطرف ، وإذا تكلمنا في الآتي على تفكيره تبينت لنا نتائج ثقافته العامة ، فلم يخف عليه موضوع من الموضوعات ، قد يجوز أنه لا يتعمق في الموضوع تعمق أهل الاختصاص ، إلا أنه قد يلمُّ به إلماماً بحيث لا يكون غريباً عنه ، وقد طبعت قراءته الكتب على مختلف معانيها ثقافته بطابع خاص ، وأعني بالطابع الخاص تنوع أفكاره ومعانيه حتى أصبح خصيب العقل لا نشكو منه قحطاً في فكر ، أو جدباً في معنى .

لم تخل ثقافته من عناصر يونانية وفارسية ، فإنه على الرغم من انقياد أدب العرب له ، وعلى الرغم من دفاعه عن هذا الأدب في مواطن شتى من كتبه ، ما تذمم من الأخذ عن اليونانيين أو عن الفرس ، فقد ذكر الأمم التي فيها الأخلاق والآداب والحكم والعلم ، فقال : هذه الأمم أربع ، وهي العرب والهند وفارس والروم .

ورأى أن العرب أنطق ، وأن لغتها أوسع ، وأن لفظها أدل ، وأن أقسام تأليف كلامها أكثر ، والأمثال التي ضربت أجود وأسير ، والبديهة مقصورة عليها ، والارتجال والاقتضاب خاص فيها[1] .

---

(١) البيان والتبيين — الجزء الأول ص ٢٠٤ .

وكره الشعوبية وطعن عليهم :

« واعلم أنك لم تر قوماً قط أشقى من هؤلاء الشعوبية ، ولا أعدى على دينه ولا أشد استهلاكاً لعرضه ، ولا أطول نصباً ، ولا أقل غنماً من أهل هذه النحلة ، وقد شفى الصدور منهم طول جثوم الحسد على أكبادهم ، وتوقد نار الشنآن في قلوبهم ، وغليان تلك المراجل الفائرة ، وتسعر تلك النيران المضطرمة ، ولو عرفوا أخلاق كل ملة ، وزي كل لغة ، وعللهم في اختلاف إشاراتهم وآلاتهم وشمائلهم وهيآتهم ، وما علة كل شيء من ذلك ولم اختلقوه ، ولم تكلفوه ، لأراحوا أنفسهم ، وتخففت مؤنتهم على من خالطهم »[1].

ومع هذا كله فما كان يستنكف عن أن يقول : قال جالينوس ، وقال صاحب المنطق ، وقال بختيشوع وأضرابهم ، فالجاحظ نزّاع إلى التجديد ، فهو لا يرى بأساً بأن يدخل العربية عنصر من عناصر آداب الأمم المعروفة في عصره ، المشهورة بالعلم والحكم والأخلاق والآداب ، وأي أدب لم يعمل فيه أدب غيره .

« أي أدب من الآداب لم يؤثر فيه أدب غيره ، ولسنا نعرف أدباً قوميًّا محضاً مستقلاًّ كل الاستقلال ، وقد يذهب وهمنا إلى أن الأدب اليوناني مصبوغ بمثل هذه الصبغة ، وإنما نتوهم هذا لأن الأدب اليوناني قد عاش وحده دون بقية الآداب التي كانت في عصره ، وقد يؤثر أدب وسط في أدب أعلى منه ، على شرط أن يكون هذا الأدب الوسط فيه شيء من الغرابة والجدة .

الجدّة إنما هي غذاء الأدب ، وهل تأتي هذه الجدّة إلا من أدب غيره ، إننا لا نستطيع أن نتغذى بمواد بدننا وحدها ، لقد اقتبست فرنسة عناصر إبداعها عن آداب غيرها من الأمم ، وقد كان هذا الإبداع يتجدد في كل عصر ، وقد اقتبست آداب أوربة على اختلافها معظم مادتها التي سكر بها أعاظم العبقريين عن الأدب الفرنسي ، هل من سبيل إلى فهم (غوتي) مجرداً من الثقافة الفرنسية ؟ أم هل من

(١) البيان والتبيين — الجزء الثالث ص ١٤ .

سبيل إلى فهم (شاتو بريان) مجرداً من الثقافة الإنكليزية[١] » .

فالجاحظ لم تخل ثقافته من عنصر يوناني ، ولا يبعد أنه كان يعرف الفارسية ، ولست أقول هذا استناداً إلى طائفة من الألفاظ الفارسية التى أوردها في بعض كتبه ، وفسرها ، فهذا غير كاف أن يستدل به على معرفته الفارسية ، فلا يخلو عصرنا من جماعة يعرفون بعض ألفاظ أعجمية ، ثم يزعمون أنهم واقفون على أسرار اللغة التى تدخل فيها هذه الألفاظ ، وهم لا يقفون عند هذا الحد ، بل يذهبون إلى البحث عن اشتقاقات الألفاظ ، وردها إلى أصولها ، وهم جاهلون بالفروع وبالأصول ، وهذا منتهى الخلط والتدجيل ، وإنما الجاحظ تغلغل فى بعض الأحيان في أسرار الفارسية ، فلم يقتصر على ذكر اللفظة ومعناها ، فمن قوله :

« والفرس تسمي الأشياء بالاشتقاقات كما تقول للنعامة : اشتر مرغ ، وكأنهم في التقدير قالوا : هو طائر وجمل ، فلم نجد هذا الاسم أوجب أن تكون النعامة نتاج ما بين الإبل والطير ، ولـكن القوم لما شبهوها بشيئين متقاربين سموها بذينك الشيئين ، وهم يسمون الشيء المرّ الحلو : ترش شيرين ، وهو في التفسير : حلو حامض[٢] » .

وقال في مقام آخر[٣] :

« فالجاموس بالفارسية : كاوماش ، وتأويله : ضأني بقري ، لأنهم وجدوا فيه مشابهة الكبش ، وكثيراً من مشابهة الثور » .

وقد كانت الفارسية مستفيضة ، حتى إنهم كانوا يدخلون شيئاً منها في الشعر نفسه ، كقول العماني للرشيد في قصيدته التي مدحه فيها :

من يلقه من بطل مسرند   في زغفة محكمة بالسرد
يجول بين رأسه والكرد

---

(١) النزه الأدبية — السلسلة السابعة لصاحبها (Remy de Gourmont) ص ١٠٧ .

(٢) كتاب الحيوان — الجزء الأول ص ٦٥ .

(٣) كتاب الحيوان — الجزء الأول ص ٦٩ .

قال الجاحظ : والكرد العنق .

ويقول العماني في الرشيد أيضاً :

لما هوى بين غياض الأسد   وصار في كف الهزبر الورد

آلى يذوق الدهر آب سرد[1]

ودليل آخر على استفاضة الفارسية في كلام العرب قول الأصمعي[2] :

« ثلاثة تحكم لهم بالمروءة حتى يعرفوا : رجل رأيته راكباً ، أو سمعته يعرب ، أو شممت منه رائحة طيبة .

وثلاثة تحكم عليهم بالدناءة حتى يعرفوا : رجل شممت منه رائحة نبيذ في محفل ، أوسمعته يتكلم في مصر عربي بالفارسية ، أو رأيته على ظهر الطريق ينازع في القدر » .

✡ ✡ ✡

هذا ما رأيت أن أذكره من ثقافة الجاحظ ، وهـذه هي عوامل ثقافته : قراءته الأدب والدين والعلم والفلسفة على أساتيذ كانوا مضارب الأمثال في مذاهبهم ، واقتباسه عن علم اليونانيين في بعض الأحيان ، ومطالعته كتباً في موضوعات شتى ، ثم خواطره وتجاربه ومعايناته ، فقد كان مولعاً بقراءة الكتب حتى قال أبو هفان[3] :

« لم أر قط ولا سمعت من أحب الكتب والعلوم أكثر من الجاحظ ، فإنه لم يقع بيده كتاب قط إلا استوفى قراءته ، كائناً ما كان ، حتى إنه كان يكتري دكاكين الورّاقين ، ويبيت فيها للنظر » .

وقد تظهر لنا آثار هـذا الولع في الفصل الذي عقده في الكلام على الكتب فقد تفنن في هذا الكلام التفنن كله .

فمرة يجد في الكتب النزهة والأنس والظرف والمزاح[4] :

(١) البيان والتبيين — الجزء الأول ص ٧٩ .
(٢) عيون الأخبار لابن قتيبة — ص ٢٩٦ .
(٣) معجم الأدباء — الجزء السادس ص ٥٦ .
(٤) كتاب الحيوان — الجزء الأول ص ١٩ .

« والكتاب نعم الذخر والعقدة هو ، ونعم الجليس والعدة ، ونعم النشرة والنزهة ، ونعم المشتغل والحرفة ، ونعم الأنيس لساعة الوحدة ، ونعم المعرفة ببلاد الغربة ... والكتاب وعاء ملىء علماً ، وظرف حشي ظرفاً ، وإناء شحن مزاحاً وجدًّا ... إن شئت ضحكت من نوادره ، وإن شئت عجبت من غرائب فرائده ، وإن شئت ألهتك طرائفه ، وإن شئت أشجتك مواعظه ... »

ومرة يجد فيها آثار العقول ونتائج العصور[١] .

« ولا أعلم نتاجاً في حداثة سنه ، وقرب ميلاده ، ورخص ثمنه ، وإمكان وجوده ، يجمع من التدابير العجيبة ، والعلوم الغريبة ، ومن آثار العقول الصحيحة ، ومحمود الأذهان اللطيفة ، ومن الحكم الرفيعة ، والمذاهب القديمة ، والتجارب الحكيمة ، ومن الأخبار عن القرون الماضية ، والبلاد المتنازحة ، والأمثال السائرة ، والأمم البائدة ما يجمع لك الكتاب » .

وحيناً يجد فيها شحذ الطباع وعمارة الصدر[٢] :

« والكتاب هو الذي إن نظرت فيه أطال امتاعك ، وشحذ طباعك ، وبسط لسانك ، وجوّد بنانك وفخّم ألفاظك ، وبجّح نفسك ، وعمر صدرك ، ومنحك تعظيم العوام ، وصداقة الملوك » .

وحيناً يجد فيها الاستغناء عن ملابسة صغار الناس وما ينتج عنهم[٣] :

« ولو لم يكن من فضله عليك ، وإحسانه إليك ، إلا منعه لك من الجلوس على بابك ، والنظر إلى المارّة بك ، مع ما في ذلك من التعرض للحقوق التي تلزم ، ومن فضول النظر ، ومن عادة الحرص ، ومن ملابسة صغار الناس ، وحضور ألفاظهم الساقطة ، ومعانيهم الفاسدة ، وأخلاقهم الرديئة ، وجهالاتهم المذمومة ، لكان في

(١) كتاب الحيوان — الجزء الأول ص ٢١ .
(٢) كتاب الحيوان — الجزء الأول ص ٢٦ .
(٣) كتاب الحيوان — الجزء الأول ص ٢٧ .

ذلك السلامة ، ثم الغنيمة ، و إحراز الأصل مع استفادة الفرع . . . »

والخلاصة أنه يجد الكتب أشد تقييداً للمآثر على ممر الأيام والدهور من البنيان[1].

وقد يذهب الحكيم وتبقى كتبه ، ويذهب العقل و يبقى أثره ، ولولا ما أودعت لنا الأوائل في كتبها ، وخلدت من عجيب حكمتها ، ودوّنت من أنواع سيرها ، حتى شاهدنا بها ما غاب ، وفتحنا بها كل مستغلق كان علينا ، فجمعنا إلى قليلنا كثيرهم ، وأدركنا ما لم نكن ندركه إلاّ بهم ، لما حسن حظنا من الحكمة ، ولضعف سببنا إلى المعرفة ، ولو لجأنا إلى قدر قوتنا ، ومبلغ خواطرنا ، ومنتهى تجار بنا لما تدركه حواسنا ، وتشاهده نفوسنا ، لقلت المعرفة ، وسقطت الهمة ، وارتفعت العزيمة ، وعاد الرأي عقيماً ، والخاطر فاسداً ولكلّ الحدّ ، وتبلد العقل » .

إلى آخر ما جاء في هذا الفصل البليغ الذي يدلنا على قدرة الجاحظ على الإنشاء . ولقد شحذت الكتب فهمه ، وفتقت عقله ، وأرهفت طباعه ، و إن رجلاً هذه هي مبالغ ثقافته ، وهذا هو مقدار ولعه بالكتب ، لا نعجب من خصب عبقريته ، و إذا شئنا أن نحيط بهذا الخصب فلنرجع إلى فهرست كتبه .

فكأن الجاحظ قد أمرّ على سمعه وعلى بصره وعلى ذهنه ما قدر عليه من أصناف الموضوعات ، فلم يكن غفلاً من كل ما يجري فيه الناس ، ويخوضون فيه ، فإذا أردنا أن نصفه بكلمة قلنا فيه إنه كامل على نحو قول الإفرنجة في أمثاله : فلان Edcyclopédiste ، والصحيح أن الجاحظ قد لخص معارف عصره ، فهو في هذا الباب يشبه أرسطاطاليس في القديم ، وقد هيأته ثقافته لهذا التلخيص .

وكأن الخوض في كل فنٍ من الفنون كان من لوازم الثقافة في عصر الجاحظ ، و إذا نظرنا في سير بعض الأدباء في تلك الأيام ، كسير طائفة من أساتيذ الجاحظ مثلاً ، تحقق عندنا أنهم كانوا يكتبون في موضوعات شتى كالحيوان وكالنبات وأشباههما ، فاطلاع الكاتب على جملة من العلوم ، دون الاقتصار على الأدب وحده ، كان أمراً

(١) كتاب الحيوان — الجزء الأول ص ٤٢ .

لا مندوحة عنه ، ولقد أشار إلى هذا ابن قتيبة في مقدمة أدب الكاتب وهو من أهل عصر الجاحظ ، فقال :

« ولا بد له مع كتبنا هذه من النظر في الأشكال لمساحة الأرضين حتى يعرف المثلث القائم الزاوية والمثلث الحادّ والمثلث المنفرجَ ومساقط الأحجار والمربعات المختلفات والقسيّ والمدوّرات والعمودين ، ويمتحن معرفته بالعمل في الأرضين لا في الدفاتر فإن المخبر ليس كالمعاين ، وكانت العجم تقول : من لم يكن عالماً بإجراء المياه ، وحفر فرض المشارب وردم المهاوي ، ومجاري الأيام في الزيادة والنقص ، ودوران الشمس ، ومطالع النجوم ، وحال القمر في استهلاله وأفعاله ، ووزن الموازين ، وذرع المثلث والمربع والمختلف الزوايا ، ونصب القناطر والجسور والدوالي والنواعير على المياه ، وحال أدوات الصناع ودقائق الحساب ، كان ناقصاً في حال كتابته . ولا بدّ له مع ذلك من النظر في جُمل الفقة ومعرفة أصوله من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم وصحابته كقوله : البينة على المدعي واليمين على المدعى عليه ، والخراج بالضمان ، وجرح العجماء جبار ، ولا يغلق الرهنُ ، والمنحة مردودة والعارية مؤدّاة والزعيم غارم ، ولا وصية لوارث ، ولا قطع في ثمر ولا كثر ، ولا قود إلا بحديدة ، والمرأة تعاقل الرجل إلى ثلث الدية ، ولا تعقل العاقلة عمداً ولا عبداً ولا صلحاً ولا اعترافاً ، ولا طلاق في إغلاق ، والبيعان بالخيار ما لم يتفرّقا ، والجار أحقُّ بصقبه ، والطلاق بالرجال ، والعدّة بالنساء ، وكنهيه في البيوع عن المخابرة والمحاقلة والمزابنة والمعاومة والثُّنْيَا ، وعن ربح ما لم يضمن ، و بيع ما لم يقبض ، وعن بيعتين في بيعة وعن شرطين في بيع ، وعن بيع وسلف ، وعن بيع الغَرَر و بيع المواصفة ، وعن الكالئ بالكالئ ، وعن تلقي الركبان ، في أشباه لهذا إذا هو حفظها وتفهم معانيها وتدبرها أغنته بإذن الله تعالى عن كثير من إطالة الفقهاء .

ولا بد له مع ذلك من دراسة أخبار الناس وتحفظ عيون الحديث ، ليدخلها في تضاعيف سطوره متمثلاً إذا كتب ، ويصل بها كلامه إذا حاور .

ومدار الأمر على القطب ، وهو العقل وجودة القريحة ، فإن القليل معها بإذن الله كافٍ ، والكثير مع غيرهما مُقصر » .

من هذا يتبين لنا أن الأديب في أيام الجاحظ لم يقتصر على الثقافة الفنية وحدها ، وإنما كان يتوسع في بعض العلوم كالهندسة وعلم الفلك والحساب ، فضلاً عن الفقه والاجتماع والتاريخ وأمثال هذا كله .

عصر الجاحظ

حرية الفكر — الزندقة — الانقلاب الفكري

يقولون : الأدب إنما هو صورة الجماعات ، ومعنى قولهم هذا أن الأديب لا بدّ له من أن تعمل في أدبه عوامل شتى ، عامل البيئة ، والزمن ، والثقافة ، والتاريخ ، والاجتماع وأضرابها ، فإما أن ينسلخ من هذه العوامل ، أو من طائفة منها ، فلا يكون لها سلطان على أدبه ، فيحلق الشاعر مثلاً في جوٍ أعلى من جو أهل عصره ، و يتبسط الكاتب في مذاهب من القول لا تشبه المذاهب التي يتبسط فيها أبناء زمنه ، و إما أن يكون لجامع هذه العوامل سلطان على الأديب ، فلا يجد إلى التملص منها سبيلاً . فإذا بحثنا عن عصر الجاحظ لزمنا أن نبحث عن مقدار تأثير عوامل هذا العصر في أدبه فنشير إلى مبلغ اتصاله بعصره ، أو انفصاله عنه ، وأما إذا نقبنا عن خصائص عصر الجاحظ ولم نشر ، ولو إشارة خفيّة ، إلى شيء من هذا كله ، لم يكن بحثنا بحثاً ، و إنما كان هذا البحث ضرباً من التاريخ لا محل له في كلامنا على الجاحظ ، وعلى ما به أننا إذا لمحنا إلى صفات عصر الجاحظ لمحنا ولو في سطور إلى ارتباط الجاحظ بهذه الصفات حتى نعرف هل ضرب في آفاق من الأفكار لم يضرب فيها أهل عصره ، أم أنه جارى هذا العصر ولم يتخلف عنه في شيء من فنون القول ، وعلى هذه الصورة نستطيع أن نعرف أكان أدب الجاحظ صورة عصره ، أم لم يكن صورة هذا العصر .

إذا أردنا الكلام على عصر الجاحظ فلا نستطيع أن نصور هذا العصر بأحسن من تصوير الجاحظ له ، على أن الجاحظ لم يتبسط في هذا التصوير ، و إنما جرت له عبارة في ترغيبه في اصطناع الكتاب ، واحتجاجه على من زرى على واضع الكتب ، وهذه العبارة على وجازتها وعلى سهولتها قد مثّلت لنا الدهر الذي عاش

فيه الجاحظ أكمل تمثيل ، على أن أبا عثمان قد قذف بها عَرَضاً وأعني بذلك أنه نطق بها في مقام وصفٍ غير وصف عصره ، وقال[1] :

« وينبغي أن يكون سبيلنا لمن بعدنا كسبيل من كان قبلنا فينا ، على أنّا قد وجدنا من العبرة أكثر مما وجدوا ، كما أن من بعدنا يجد من العبر أكثر مما وجدنا ، فما ينتظر العالم بإظهار ما عنده ؟ وما يمنع الناصر للحق من القيام بما يلزمه ؟ وقد أمكن القول ، وصلح الدهر ، وخوى نجم التقية ، وهبت ريح العلماء ، وكسد العي والجهل ، وقامت سوق البيان والعلم » .

فإذا جاوزنا مبدأ هذه العبارة التي مثّلت لنا كيف تتسلل آثار العقول ، فيؤدي كل عصر نتائج ما يجده من العبرة إلى العصر الذي يليه ، ويزيد كل عصر في هذه العبرة بقدر ما يتيسر له من العلوم والتجارب ، إذا جاوزنا هذا كله تراءت لنا صفة عصر الجاحظ نقيةً صافيةً ، وبرزت لنا متكاملة متسقة ، فما هي هذه الصفة ، بل ما هي هذه الصفات ؟ إمكان القول ، وصلاح الدهر ، وخواء نجم التقية ، وهبوب ريح العلماء ، وكساد العي والجهل ، وقيام سوق البيان والعلم .

هذه خصائص عصر الجاحظ ، أفلا يحق لنا بعد معرفة هذه الخصائص أن نقول في عصر الجاحظ ما قاله أحد شعراء فرنسة في عصره : وأي عصر أخصب من هذا العصر في المعجزات ، وكيف لا يكون عصر أبي عثمان خصيباً ، وقد تهيأت لأبنائه حرية الفكر وانبسط فيه سلطان البيان ، وانفسحت آفاق العلم ، فإن عصراً تقوم فيه سوق البيان ، وتقوم فيه سوق العلم ، ويمكن أهله أن يفصحوا عما يوحي إليهم هذا الأدب وهذا العلم ، لعصر ريَّان الجنبات ، مخصاب التربة .

فلندقق في هذه الخصائص دون شيء من التطويل .

قلنا : صفات عصر الجاحظ حرية الفكر ، وانبساط العلم ، وقيام سوق الأدب ، فلنشرع في الكلام على حرية الفكر ، ولما كان الدين مجال هذه الحرية لزمنا أن

(١) كتاب الحيوان — الجزء الأول ص ٤٣ .

نشير إلى ناحية من اختلاف الجمهور في أمور الدين ، دون الخوض في النواحي كلها .

يقول المأمون[1] :

« لنا اختلافان : أحدهما كاختلافنا فى الأذان ، وتكبير الجنائز ، وصلاة العيدين ، والتشهد ، والتسليم من الصلاة ، ووجوه القراآت ، واختلاف وجوه الفتيا ، وما أشبه ذلك ، وهذا ليس باختلاف ، وإنما هو تخيير وتوسعة ، وتخفيف من السنّة ، فمن أذّن مثنى وأقام مثنى لم يأثم ، ومن ربّع لم يأثم .

والاختلاف الآخر كنحو اختلافنا فى تأويل الآية من كتابنا ، وتأويل الحديث عن نبينا ، مع اجتماعنا على أصل التنزيل ، واتفاقنا على عين الخبر » .

فلنوضح هذا القول بعض التوضيح .

علوم الدين قسمان : قسم يتعلق بأصل الدين وهو علم الكلام أو التوحيد ، وقسم يتعلق بأحكام الأعمال وهو الفقه وأصوله ، ومرجع المسلمين فى هذه الأحكام القرآن والحديث .

والمسلمون فى هذا كله طائفتان : طائفة ترجع فى أصول الفقه وأصول الدين إلى الكتاب ، أو إلى السنة ، أو إلى أثر من آثار السلف ، متقيدين بهذه المراجع دون أن يعمل الواحد منهم عقله فى تفسير آية أو تأويل حديث ، وهم أهل الحديث .

وطائفة يستعملون عقولهم فى تفسير الآيات أو تأويل الأحاديث دون شيء من التقييد وهم المعتزلة أو أصحاب الفكر الحر .

وبين أهل الحديث والمعتزلة اختلاف فى أمور شتى ، منها القضاء والقدر ، وأفعال العباد ، وصفات الله تعالى ، وخلق القرآن ، وغير ذلك .

فالمختلفون فى أصول الفقه لا يكفّر بعضهم بعضاً ، وإنما المختلفون فى التوحيد قد يكفّر بعضهم بعضاً ، فالحديثي يرى أن المعتزلي صاحب بدعة ، قد نفض يديه مما أجمع عليه الجمهور ، وما هدت إليه الآثار والأخبار ، والمعتزلي يرى أن الحديثي إنما هو عامي

(١) العقد الفريد — الجزء الأول ص ٢٥٥ .

هل كان يجرأ أحد قبل عصر الجاحظ ممن خالف الجماعة على التصريح برأيه ؟

إن الذي اتصل بنا علمه أن الخلفاء من قبل المأمون كانوا يعاقبون على الزندقة ، منهم المهدي ، ومنهم ابنه الهادي .

أما المهدي فقد قال يوماً لموسى ، أي لابنه الهادي ، وقد قدم إليه زنديق فاستتابه فأبى أن يتوب ، فضرب عنقه وأمر بصلبه : يا بني ، إن صار لك هذا الأمر فتجرد لهذه العصابة ، يعني (أصحاب ماني) فإنها تدعو الناس إلى ظاهر حسن ، كاجتناب الفواحش ، والزهد في الدنيا ، والعمل للآخرة ، ثم تخرجها إلى تحريم اللحم ، ومس الماء الطهور ، وترك قتل الهوام ، تحرجاً وتحوباً ، ثم تخرجها من هذه إلى عبادة اثنين ، أحدهما النور ، والآخر الظلمة ، ثم تبيح بعد هذا نكاح الأخوات ، والبنات ، والاغتسال بالبول ، وسرقة الأطفال من طرق تنقذهم من ضلال الظلمة إلى هداية النور ، فارفع فيها الخشب ، وجرّد فيها السيف ، وتقرّب بأمرها إلى الله لا شريك له ، فإني رأيت جدّك العباس في المنام قلّدني سيفين ، وأمرني بقتل أصحاب الاثنين .

وأما الهادي فقد كان في جملة من قتله يزدان بن يازان الكاتب ، فقد حج هذا فنظر إلى الناس في الطواف يهرولون ، فقال : ما أُشبههم إلا ببقر تدوس في البيدر .

وقد منع الرشيد عن الجدال في الدين وحبس أهل علم الكلام[1] .

فلما جاء المأمون أطلق القول ، وفسح في المناظرات ، وقد كان المأمون نفسه يحاجّ الفقهاء في كثير من الأمور ، منها احتجاجه عليهم في فضل علي ، فكان يأمر قاضي القضاة يحيى بن أكثم أن يحضر معه رجالاً كلهم فقيه يفقه ما يقال له ، ويحسن الجواب ، فيدخلون عليه وهو جالس على فراشه ، وعليه سواده وطيلسانه ، والطويلة وعمامته ، فإذا استقر بهم المجلس تحدّر عن فراشه ، ونزع عمامته وطيلسانه ووضع قلنسوته ، وما كان يمنعه من خلع خفيه إلا العلة ، ثم يأمرهم بنزع قلانسهم ، وخفافهم ، وطيالستهم ، ويقول لهم : إنما بعثت إليكم معشر القوم في المناظرة ، ثم

---

(١) ذكر المعتزلة للمرتضى — ص ٣١ .

يلقي مسائل من الفقه ، و يرد على كل واحد منهم مقالته ويخطئ بعضهم ، و يناظرهم في مذهبه الذي هو عليه ، و إذا قال لهم : إن أمير المؤمنين يدين الله على أن علي بن أبي طالب خير خلفاء الله بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأولى الناس بالخلافة ، قالوا له دون شيء من التهيب : إن فينا من لا يعرف ما ذكر أمير المؤمنين في علي ، وقد دعانا أمير المؤمنين للمناظرة ، وكان يخيّرهم أن يسألوه أو أن يسألهم ، وكان يتبين له عنادهم في بعض الأوقات ، وقد يطول مجلسهم و يرتفع النهار وهم في مناظرة [١] .

وقد كان يردّ على الملحدين وأهل الأهواء ، و إذا قال لمرتدٍّ كان أسلم على يديه : أخبرني ما الذي أوحشك مما كنت به آنساً من دبننا ؟ وقال له المرتد غير هيَّاب ولا وجل : أوحشني منكم ما رأيت من الاختلاف في دينكم ، لم يتنكر له المأمون ، و إنما كان يردّ عليه فلا يزال يخرج من حجة إلى حجة حتى يرجع به إلى الإسلام [٢] .

وهذا نمط من مناظراته ، قال الجاحظ :

« ومسألة أخرى سأل عنها أمير المؤمنين الزنديق الذي كان يكنى بأبي علي وذلك عند ما رأى من تطويل محمد بن الجهم ، وعجز العتبي ، وسوء فهم القاسم بن سيَّار ، فقال له المأمون : أسألك عن حرفين فقط ، خبرني هل ندم مسيء قط على إساءته ، أو نكون نحن لم نندم على شيء كان منا قط ؟ قال : بل ندم كثير من المسيئين على إساءتهم ، قال : فخبرني عن الندم على الإساءة ، إساءة أو إحسان ؟ قال : إحسان ، قال : فالذي ندم هو الذي أساء أو غيره ؟ قال : الذي ندم هو الذي أساء ، قال : فأرى صاحب الخير هو صاحب الشر وقد بطل قولكم : إن الذي ينظر نظر الوعيد غير الذي ينظر نظر الرحمة ، قال : فإني أزعم أن الذي أساء غير الذي ندم ، قال :

---

(١) راجع العقد الفريد — الجزء الثالث ص ٤٢ .
(٢) راجع العقد الفريد — الجزء الأول ص ٢٥٥ .

فندم على شيء كان منه ، أو على شيء كان من غيره ؟ فقطعه بمسألته ولم يقب ولم يرجع حتى مات [١] » .

وإننا لا نستطيع أن نفهم روح المناظرة إلا إذا فهمنا روح المذهب الذي ناظر فيه المأمون وهو مذهب مانى ، وسيأتي الكلام عليه .

وقد كان غرض المأمون في هذه المناظرات كلها اجتماع الطوائف على ما هو أرضى وأصلح للدين ، وكان يكره في المناظرات الشتم والبذاءة ، لأن الأول في نظره عي ، والثانية لؤم ، وإنما أباح الكلام ، وأظهر المقالات ، فمن قال بالحق حمده ، ومن جهل ذلك وقفه ، ومن جهل الأمرين حكّم فيه بما يجب .

غير أنه لم يصل في مجامع مناظراته إلى ما رمى إليه فلم ير بدًّا من الاستعانة بسلطانه في إقامة الدين ، ولا سيما في خلق القرآن و إحداثه ، فعزم على أن لا يستعين في عمله ولا يثق فيما قلده الله واستحفظه من أمور رعيته بمن لا يوثق بدينه ، وخلوص توحيده و يقينه .

وأدّى الأمر في هذا كله إلى أن الذي كان لا يقول بخلق القرآن يشد في الحديد ، ولما حضرته الوفاة تقدم إلى أخيه المعتصم في أن يبني على أصوله في مناظرة القوم في خلق القرآن ، فكان المعتصم يجمع الفقهاء والمتكلمين والقضاة لأمثال هذه المناظرات وكان يقول في بعضها :

« ما شيء أحب إليّ من الستر ولا شيء أولى بي من الأناة والرفق ، وكان يقول لمناظره : لأن أستحييك بحق أحب إليّ من أن أقتلك بحق [٢] » .

إلا أن من خالفه كان يلقى الضرب والتعذيب ، وكذلك الواثق ، فإنه سار سيرة أبيه المعتصم وعمه المأمون في المناظرة في خلق القرآن ، فمن خالفه في رأيه قتله ، حتى جاء المتوكل فترك الناس وشأنهم .

---

(١) كتاب الحيوان — الجزء الرابع ص ١٤١ .

(٢) هامش الكامل — رسائل الجاحظ — الجزء الثاني ١٣٤ .

فإلى هذه الحرية أشار الجاحظ في قوله : وقد أمكن القول، وصلح الدهر ، وخوى نجم التقية ، وأخذ من بعد هذا يستنهض العلماء لإظهار ما عندهم ، وللقيام بما يلزمهم وكان هو نفسه يظهر ما عنده غير مبال بالجمهور .

فلنضرب مثلا لحرية فكره في التفسير وقد خرج عما يعتقده الجمهور ، قال[1] :

« وقد قال الناس في قوله تعالى : (إنها شجرة تخرج في أصل الجحيم ، طلعها كأنه رؤوس الشياطين) ، فزعم الناس أن رؤوس الشياطين ثمر شجرة تكون ببلاد اليمن ، لها منظر كريه ، والمتكلمون لا يعرفون هذا التفسير ، وقالوا : ما عنى إلا رؤوس الشياطين المعروفين بهذا الاسم من فسقة الجن ومردتهم ، فقال أهل الطعن والخلاف : كيف يجوز أن يضرب المثل بشيء لم نره فنتوهمه ، ولا وصف لنا صورته بكتاب ناطق ، أو خبر صادق ، ومخرج الكلام يدل على التخويف بتلك الصورة ، والتفزيع منها ، وعلى أنه لو كان شيء أبلغ في الزجر من ذلك لذكره ، فكيف يكون إنسان كذلك والناس لا يفزعون إلا من شيء هائل شنيع قد عاينوه ، أو صوره لهم واصف صدوق اللسان ، بليغ في الوصف ، ونحن لم نعاينها ولا صورها لنا صادق ، وعلى أن أكثر الناس من هذه الأمم التي لم تعايش أهل الكتابين وحملة القرآن من المسلمين ، ولم تسمع الاختلاف لا يتوهمون ذلك ، ولا يقفون عليه ولا يفزعون منه ، فكيف يكون ذلك وعيداً عاماً ؟ قلنا : وإن كنا نحن لم نر شيطاناً ، ولا صور رؤوسها لنا صادق بيده ، ففي إجماعهم على ضرب المثل بقبح الشيطان حتى صاروا يضعون ذلك في مكانين ، أحدهما أن يقولوا : لهو أقبح من الشيطان ، والوجه الآخر أن يسمى الجميل شيطاناً على جهة التطير له ، كما تسمى الفرس الكريمة ، شوهاء ، والمرأة الجميلة صماء ، وقرناء ، وخنساء ، وجرباء ، وأشباه ذلك على وجهة التطير له ، ففي إجماع المسلمين والعرب وكل من لقيناه على ضرب المثل بقبح الشيطان دليل على أنه في الحقيقة أقبح من كل قبيح ، والكتاب إنما نزل على هؤلاء الذين ثبت في طبائعهم بغاية التثبيت ،

---

(١) كتاب الحيوان — الجزء السادس ص ٦٤ .

وكما يقولون لهو أقبح من السحر ، فكذلك يقولون كما قال عمر بن عبد العزيز لبعض من أحسن الـكلام في طلب حاجته : هذا والله السحر الحلال ، وكذلك أيضاً ربما قالوا : ما فلان إلا شيطان على معنى الشهامة ، والنفاذ وما أشبه ذلك » .

وقد بلغ من هذه الحرية أن المجوس أنفسهم كانوا يعارضون علماء المسلمين ، من هذه المعارضات ما رواه الجاحظ ، لقد قال[1] :

« وقد عارضني بعض المجوس وقال : فلعل أيضاً صاحبكم إنما توعد أصحابه بالنار ، لأن بلادهم ليست ببلاد ثلج ، ولا دَمَق ، وإنما هي ناحية الحرور والوهج والسموم ، لأن ذلك المكروه أزجر لهم . فرأى هذا المجوسي أنه قد عارضني ، فقلت له : إن أكثر بلاد العرب موصوفة بشدة الحر في الصيف ، وشدة البرد في الشتاء ، لأنها بلاد صخور وجبال ، والصخر يقبل الحر والبرد ، ولذلك سمت الفرس بالفارسية العرب والأعراب : كهيان ، والكه بالفارسية هو الجبل ، فمتى أحببت أن تعرف مقدار برد بلادهم في الشتاء ، وحرها في الصيف ، فانظر في أشعارهم ، وكيف قسموا ذلك ، وكيف وضعوه ، لتعرف أن الحالتين سواء عندهم في الشدة ، والبلاد ليس يشتد بردها على كثرة الثلج وقلته ، فقد تكون بلدة أبرد ، وثلجها أقل ، والماء ليس يجمد للبرد فقط ، فيكون متى رأينا بلدة ثلجها أكثر حكمنا أن نصيبها من البرد أوفر ، وقد تكون الليلة باردة جدًّا ، وتكون متغيرة ، فلا يجمد الماء ويجمد فيما هو أقل منها برداً ، وقد يختلف جمود الماء في الليلة ذات الريح على خلاف ما يقدرون ويظنون ، وقد خبرني من لا أرتاب بخبره أنهم كانوا في موضع من الجبل يستغشون به بلبس المبطنات ، ومتى صبوا ماء في إناء زجاج ووضعوه تحت السماء جمد من ساعته ، فليس جمود الماء بالبرد فقط ، ولا بد من شروط ، ومقادير ، واختلاف جواهر ، ومقابلات أحوال ، كسرعة البرد في بعض الأدهان ، وإبطائه عن بعض ، وكاختلاف عمله في الماء المغلي ، وفي الماء المتروك على حاله ، وكاختلاف عمله في الماء والنبيذ ، كما

(١) كتاب الحيوان — الجزء الخامس ص ٣٥ .

يعتري البول من الخثورة والجمود ، على قدر طبائع الطعام والقلة ، والزيت خاصة يصيبه المقدار القليل من النار فيستحيل من الحرارة إلى مقدار لا يستحيل إليه ما هو أحر ، وحجة أخرى على المجوس وذلك أن محمداً صلى الله عليه وسلم لو كان قال : لم أبعث إلا إلى أهل مكة لكان له متعلق من جهة هذه المعارضة ، فأما وأصل نبوته والذي عليه مخرج أمره ، وابتداء مبعثه إلى ساعة وفاته ، أنه المبعوث إلى الأحمر والأسود وإلى الناس كافة ، وقد قال الله تعالى : (قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً) ، وقد قال تعالى : (نذيراً للبشر) ، فلم يبق أن يكون مع ذلك قولهم معارضة وأن يعد من باب الموازنة » .

* * *

هذه أول صفة من صفات عصر الجاحظ وهي : حرية الفكر ، وقد مثل الجاحظ هذه الحرية أحسن تمثيل ، سواء أكان في علمه ، أم كان في دينه ، أم كان في أدبه نفسه ، فقد استعمل حرية عقله في تحقيقه العلمى ، وظهرت آثار هذا الاستعمال على نقدة وعلى شكه وعلى حججه ، فكانت طريقته في العلم طريقة «باكون» و«ديكارت» وسيتبين هذا كله في كلامنا على تحقيقه العلمى .

وكذلك أمره في الدين ، وحسبنا أن تعرف إنه معتزلي ، والاعتزال في الإسلام إنما جوهره حرية التفكير ، فلم يتقيد في تفسير آية ، أو في تأويل حديث ، بقيد من القيود ، وإنما مرجعه في هذا التفسير ، وهذا التأويل إلى عقله وحده .

ولقد لجأ إلى الحرية في مذاهب الفن نفسها ، فكان في أدبه ، وفي لغته ، وفي أسلوبه ، كثير من المسامحة والانطلاق ، وإني لأجتزئ في مثل هذا المقام بالإشارة إلى هذا كله على أن أرجع إلى التوسع فيه في الفصول الآتية ، فإذا كان لحرية الفكر في عصر الجاحظ صورة فالجاحظ صورة هذه الحرية .

see p 92

٢

الزندقة

هذا شيء من حرية الفكر التي أشار إليها الجاحظ في عصره ، إلا أنها حرية لم يتراخ أمدُها وقد خالطتها الشدة في خاتمة الأمر ، فكانت المناظرات في مجالس الخلفاء لا تخلو من ضرب المخالفين لآراء الجمهور ، وتعذيبهم ، وقتلهم ، إلا أنه كيف كان الأمر فقد أتى على علماء المسلمين حين من الدهر كانوا فيه يعالنون بمعتقداتهم دون أن يخافوا صولة السلطان ، وقد كان غير المسلمين من المجوس وأضرابهم يعارضون هؤلاء العلماء في أمور متعلقها الدينُ من غير أن يتجهَّمهم أحد بما يكرهون ، وكان لأهل الكتاب من نصارى و يهود حرمة تختلف على اختلافهم في جلالة القدر قبل الإسلام و بعده ، فكانت النصارى أحبَّ إلى المسلمين من غيرهم وأقربَ مودةً ، وقد فصَّل لنا الجاحظ أسباب هذة المحبة ، وقرب هذه المودة ، فقال :(١)

« جاء الإسلام وملوك العرب رجلان : غساني ولخمي وهما نصرانيان ، وقد كانت العرب تدين لهما وتؤدي الإتاوة إليهما ، فكأن تعظيم قلوبهم لهما راجع إلى تعظيم دينهما ، وكانت تهامه و إن كانت لَقاحاً لا تدين ولا تؤدي الإتاوة ولا تدين الملوك ، إلا أنها كانت لا تمتنع من تعظيم ما عظم الناس ، وتصغير ما صغروا ، ونصرانية النعمان وملوك غسان مشهورة في العرب ، معروفة عند أهل النسب ، ولولا ذلك لدللتُ عليها بالأشعار المعروفة ، والأخبار الصحيحة ، وقد كانت تتجر إلى الشام ، وتنفذ رجالها إلى ملوك الروم ، ولها رحلة في الشتاء والصيف في تجارة ، مرة إلى اليمن ، ومرة قبل الشام ، ومصيفها بالطائف ، فكانوا أصحاب نعمة ، وذلك مشهور مذكور في القرآن وعند أهل المعرفة . وقد كانت تهاجر إلى الحبشة وتأتي باب

(١) رسائل الجاحظ على هامش الكامل — الجزء الثاني ص ١٦٢ .

النجاشي وافدةً ، فيحبوهم بالجزيل ، ويعرف لهم الأقدار ، ولم يكن يعرف ذلك كسرى ولا يأنس بهم ، وقيصر والنجاشي نصرانيان ، فكان ذلك أيضاً للنصارى دون اليهود ، والآخر من الناس تبع للأول في تعظيم من عظَّم وتصغير من صغَّر .

وأُخرى وهي أن العرب كانت النصرانية فيها فاشيةً ، وعليها غالبةً ، إلا مضر فلم تغلب عليها يهودية ولا مجوسية ، ولم تفش فيها النصرانية ، إلا من كان قوم منهم نزلوا الحيرة يسمون العِباد ، فإنهم كانوا نصارى ، وهم مغمورون مع نبذ يسير في بعض القبائل ، ولم تعرف مضر إلا دين العرب ، ثم الإسلام ، وغلبت النصرانية على ملوك العرب وقبائلها ، على لخم ، وغسان ، والحارث بن كعب بنجران ، وقضاعة ، وطي ، في قبائل كثيرة ، وأحياء معروفة ، ثم ظهرت ربيعة فغلبت على تغلب ، وعبد القيس ، وأحياء بكر ، ثم في آل ذي النجدَّين خاصة ، وجاء الإسلام وليست اليهودية بغالبة على قبيلة ، إلا ما كان من ناس من اليمانية ، ونبذ يسير من جميع إياد وربيعة ، ومعظم اليهودية إنما كان بيثرب ، وحمير ، وتيماء ، ووادي القرى ، وفي ولد هارون دون العرب ، فعطف قلوب دهماء العرب على النصارى الملكُ الذي كان فيهم ، والقرابة التي كانت لهم » .

هذه طائفة من الأسباب التي من أجلها كانت النصرانية أرفع منزلةً من اليهودية في عيون المسلمين ، وأظهر هذه الأسباب الملك الذي نشأ للنصارى قبل الإسلام ، أما اليهود فلم تلن قلوب المسلمين لهم لينها للنصارى ، ولنرجع إلى الجاحظ في معرفة العلل التي غلظت قلوب المسلمين على اليهود ، قال أبو عثمان :[1]

« إن اليهود كانوا جيران المسلمين بيثرب وغيرها ، وعداوة الجيران شبيهة بعداوة الأقارب في شدة التمكن وثبات الحقد ، وإنما يعادي الإنسان من يعرف ، ويميل على من يرى ، ويناقض من يشاكل ، ويبدو له عيوب من يخالط ، وعلى قدر الحب والقرب يكون البغض والبعد ، ولذلك كانت حروب الجيران وبني الأعمام في سائر

---

(١) رسائل الجاحظ على هامش الكامل — الجزء الثاني ص ١٥٩ .

الناس وسائر العرب أطول ، وعداوتهم أشد ، فلما صار المهاجرون لليهود جيراناً ، وقد كانت الأنصار متقدمة الجوار ، مشاركة في الدار ، حسدتهم اليهود على نعمة الدين ، والاجتماع بعد الافتراق ، والتواصل بعد التقاطع ، وشبهوا على العوام ، واستمالوا الضعفاء ، ومالؤا الأعداء والحسدة ، ثم جاوزوا الطعن و إدخال الشبهة إلى المناجزة ، والمنابذة بالعداوة ، فجمعوا كيدهم ، و بذلوا أنفسهم وأموالهم في قتالهم ، و إخراجهم من ديارهم ، وطال ذلك واستفاض فيهم ، وظهر وترادف لذلك الغيظ ، وتضاعف البغض، وتمكن الحقد ، وكانت النصارى لبعد ديارهم من مبعث النبي صلى الله عليه وسلم ومهاجره ، لا يتكلفون طعناً ، ولا يثيرون كيداً ، ولا يجمعون على حرب ، فكان هذا أول أسباب ما غلَّظ القلوب على اليهود ، وليَّنها على النصارى ، ثم كان من أمر المهاجرين إلى الحبشة ، واعتمادهم على تلك الجهة ، ما حببهم إلى عوام المسلمين ، وكلما لانت القلوب لقوم غلظت على أعدائهم ، و بقدر ما نقص من بغض النصارى زاد في بغض اليهود ، ومن شأن الناس حب من اصطنع إليهم خيراً ، أو جرى على يديه » .

هذا ما كان من مقدار نظر المسلمين إلى أهل الكتاب ، ولما كان المسلمون على النصارى أعطف ، و إليهم أميل ، كان للنصارى شيء من الميزة ظهرت في مراكبهم وملابسهم وصناعاتهم ، قال الجاحظ في كلامه عليهم :[1]

« اتخذوا البراذين الشِهْرية ، والخيل العتاق ، واتخذوا الجوقات ، وضربوا بالصوالجة وتحذقوا المديني ، ولبسوا الملحم والمطبقة ، واتخذوا الشاكرية ، وتسموا بالحسن والحسين والعباس والفضل وعلي واكتنوا بذلك أجمع . . . فرغب إليهم المسلمون وترك كثير منهم عقد الزنانير ، وعقدها آخرون دون ثيابهم ، وامتنع كثير من كبرائهم من إعطاء الجزية وأنفوا ، مع اقتدارهم من دفعها ، وسبوا من سبهم ، وضربوا من ضربهم ، ومالهم لا يفعلون ذلك وأكثر منه ، وقضاتنا وعامتهم يرون

(١) رسائل الجاحظ على هامش الكامل — الجزء الثاني ص ١٧٠ .

أن دم الجاثليق والمطران والأسقف وفاء بدم جعفر وعلي والعباس وحمزة » .

وقد كان منهم كتّاب السلاطين ، وفرّاش الملوك ، وأطباء الأشراف ، ولم يكن اليهودي إلا صباغاً أو دباغاً أو حجاما أو قصاباً أو شعاباً»[١] .

و بلغ من استصغار شأن اليهود أن الصبيان كانوا يصيحون بالفهد إذا رأوه : يهودي ، وكانت العامة تزعم أن الفأرة كانت يهودية سحّارة ، والأرضة يهودية أيضاً عندهم ، والضب يهودي ، حتى قال بعض القصاص لرجل أكل ضبّاً : اعلم أنك أكلت شيخاً من بني إسرائيل !

و بلغ من إجلالهم للنصرانيـة أنهم كانوا لايضيفون إليها شيئاً من السباع والحشرات[٢]» .

* * *

إلى أي شيء أدّت حرية الفكر التي لمّح إليها الجاحظ .

من جملة عواقب هذه الحرية استفاضة الزندقة في جمهور المسلمين وكثرة الفرق ، وكما نبهّنا الجاحظ على إمكان القول في عصره فكذلك نبهنا على نتائج إمكان هذا القول ، فلئن حمد دهره في مبدإ الأمر فما لبث أن ذمه حتى قال[٣] :

« وقد ترك هذا الجمهور الأكبر والسواد الأعظم التوقف عند الشبهة ، والتثبت عند الحكومة جانباً ، وأعرضوا عنه صفحاً ، فليس إلا : لا أو نعم ، إلا أن قولهم : لا ، موصول منهم بالغضب ، وقولهم : نعم ، موصولٌ منهم بالرضا ، وقد عزلت الحرية جانباً ، ومات ذكر الحلال والحرام ، ورفض ذكر القبيح والحسن ، قال عمرو بن الحارث : كنا نبغض من الرجال ذا الرياء والنفخ ونحن اليوم نتمناهما » .

وإذا أردنا أن نعرف كيف استفاضت الزندقة في عصر الجاحظ ، فلنرجع إلى الجاحظ نفسه ، فقد كشف لنا ناحيةً من استفاضتها ، فقال في أثناء كلامه على

(١) رسائل الجاحظ على هامش الكامل — الجزء الثاني ص ١٦٩ .
(٢) كتاب الحيوان — الجزء السادس ص ١٦٢ .
(٣) كتاب الحيوان — الجزء السابع ص ٣ .

فريق من أهل الكتاب[١] :

« يتبعون المتناقض من أحاديثنا ، والضعيف بالإسناد من روايتنا ، والمتشابه من آي كتابنا ، ثم يخلون بضعفائنا ، ويسألون عنها عوامنا . مع ما قد يعلمون من مسائل الملحدين والزنادقة الملاعين ، وحتى مع ذلك ربما تبرؤا إلى علمائنا ، وأهل الأقدار منا ، ويشغبون على القوي ، ويلبسون على الضعيف ، ومن البلاء أن كل إنسان من المسلمين يرى أنه متكلم ، وأنه ليس أحد أحق بمحاجة الملحدين من أحد ، وبعد فلولا متكلمو النصارى وأطباؤهم ومنجموهم ما صار إلى أغنيائنا وظرفائنا ومجّاننا وأحداثنا شيء من كتب المانية والدّيصانية والمرقوبية والفلانية ، ولما عرفوا غير كتاب الله تعالى ، وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم ، ولكانت تلك الكتب مستورة عند أهلها ، مخبأة في أيدي ورثتها ، فكل سخنة عين رأيناها في أحداثنا وأغبيائنا فمن قولهم كان أولها » .

والظاهر أن تزندق القوم بالعراق كان فاشياً بين المسلمين غير العرب ، فقد روى الأصمعي عن الخليل بن أحمد عن أبي عمرو بن العلاء أنه قال : أكثر من تزندق بالعراق لجهلهم بالعربية[٢] .

إلا أن السلطان لم يغفل عن معاقبة الزنادقة فكان منهم من يهرب من وجه السلطان ، ومنهم من يقتل ، ومنهم من يستر زندقته ، حتى ينجو من الشر ، فقد قال الجاحظ[٣] :

« والزنادقة لم تكن قط أمة ، ولا كان لها ملك ومملكة ، ولم تزل بين مقتول وهارب ومنافق » .

وقد شاعت الزندقة في طبقات الأدباء ، وظهرت على أشعارهم آثارها .

---

(١) رسائل الجاحظ على هامش الكامل — الجزء الثاني ص ١٧٤ .

(٢) طبقات الأدباء للأنباري — ص ٣١ .

(٣) كتاب الحيوان — الجزء الرابع ص ١٣٨ .

فمن الذين اتهموا بالزندقة حماد الراوية ، فقد عرَّض به حماد بن الزبرقان، قال[١] :

نعم الفتى لو كان يعرف ربه ويقيم وقت صلاته حماد
هدلت مشافره الدنان فأنفه مثل القدوم يسنها الحداد
وابيضّ من شرب المدامة وجهه فبياضه يوم الحساب سواد

ومنهم ناس ذكرهم حمَّاد عجرد في هجائه لبشار ، فقال[٢] :

لو كنت زنديقاً عُمَار حبوتني أو كنت أعبد غير رب محمد
أو كنت عندك أو تراك عرفتني كالنضر أو أُلفيت كابن المقعد
أو كابن حماد ربيئة دينكم جبل وما جبل القوي بمرشد
لكنني وحَّدت ربي مخلصًا فجفوتني بغضًا لكل موحِّد
وحبوت من زعم السماء تكونت والأرضَ خالقها لها لم يمهد
والنَّسْمَ مثل الزرع آنَ حصاده منه الحصيد ومنه ما لم يحصد

قال الجاحظ : « وحمَّاد هذا أشهر بالزندقة من عمارة بن حربية الذي هجاه بهذه الأبيات، وأما قوله : وحبوت من زعم السماء تكوّنت ... البيت ، فليس يقول أحد إن الفلك بما فيه من التدبير تكوّن بنفسه ومن نفسه » .

ومنهم يونس بن فروة وفي يونس يقول حمَّاد عجرد :[٣]

ما الناس عندك غير نفسك وحدها والخلق عندك ما خلاكِ بهائم
إن الذي أصبحت مفتوناً به سيزول عنك وأنف جارك راغم
فتعض من ندم يديك على الذي فرطت فيه كما يعض النادم
فلقد رضيت بعصبة آخيتهم وإخاؤهُمُ لك بالمعرة لازم
فعلمت حين جعلتهم لك دَخْلَةً أني لعرضك في إخائك ظالم

---

(١) كتاب الحيوان — الجزء الرابع ص ١٤٢ .
(٢) » » » » » ١٤٢ .
(٣) كتاب الحيوان — الجزء الرابع ص ١٤٣ .

« وكان حمّاد عجرد وحمّاد الراوية وحماد بن الزبرقان ويونس بن هارون وعلي بن الخليل ويزيد بن الفيض وعبادة وجميل بن محفوظ وقاسم ومطيع ووالبة بن الحباب وأبان بن عبد الحميد وعمارة بن حربية يتواصلون وكأنهم نفس واحدة ، وكان بشار ينكر عليهم ، ويونس الذي زعم حماد عجرد أنه قد غرّ نفسه بهؤلاء كان أشهر بهذا الرأي منهم ، وقد كان كتب كتاباً لملك الروم في مثالب العرب وعيوب الإسلام بزعمه[1] » .

« وذكر أبونواس أبان بن عبد الحميد اللاحقي وبعض هؤلاء ذكرَ إنسان يرى لهم قدراً وخطراً ، في هجائه لأبان وهو قوله :

جالست يوماً أباناً ... لا درّ درّ أبانَ
ونحن حضر رواق الـ ... أمـير بالنهروان
حتى إذا ما صلاة الـ ... أولى دنت لأوان
فقام ثم بها ذو ... فصاحـة وبيـان
فكل ما قال قلنـا ... إلى انقضاء الآذان
فقال : كيف شهدتم ... بذا بغير عيـان
لا أُشهد الدهر حتى ... تعاين العينـــان
فقلت : سبحان ربي ... فقال : سبحان ماني
فقلت : عيسى رسول ... فقال من شيطان
فقلت : موسى كليم الـ ... مهيمن المنّـان
فقال : ربك ذو مقـالة ... إذاً ولسان
فنفسه خلقتـــه ... أم من ، فقمت مكاني
عن كافر يتمرّى ... بالـكفر بالرحمن
يريد أن يتسوّى ... بالعصبـة المجّان

(١) كتاب الحيوان — الجزء الرابع ص ١٤٣ .

بعجرد وعُبَـــاد والوالبي الهجان
وقاسم ومطيـع ريحانة الندمان

وتعجبي من أبي نواس وقد كان جالس المتكلمين أشدّ من تعجبي من حماد حين يحكي عن قوم من هؤلاء قولاً لا يقوله أحد ، وهذه قرة عين المهجو، والذي يقول : سبحان ماني ، يعظم أمر عيسى تعظيماً شديداً ، فكيف يقول إنه من قبل شيطان ، وأما قوله : فنفسه خلقته أم من ، فإن هذه المسألة نجدها ظاهرة على ألسن العوام ، والمتكلمون لا يحكون هذا عن أحد ، وفي قوله : والوالبي الهجان دليل على أنه من شكلهم ، والعجب أنه يقول في أبان أنه ممن يتشبه بعجرد ومطيع ووالبة بن الحباب وعلي بن الخليل وأصبغ ! وأبان فوق ملء الأرض من هؤلاء ولقد كان أبان وهو سكران أصح عقلاً من هؤلاء وهم صحاة ، فأما اعتقاده فلا أدري ما أقول فيه لأن الناس لم يؤتوا في اعتقادهم الخطأ المكشوف من جهة النظر ، ولكن للناس تأسٍّ وعادات ، وتقليد للآباء والكبراء و يعملون على الهوى وعلى ما يسبق إلى القلوب ، و يستثقلون التحصيل ، و يهملون النظر حتى يصيروا في حال متى عاودوه وأرادوه ، ونظروا بأبصار كليلة ، وأذهان مدخولة ، ومع سوء عادة ، والنفس لا تجيب وهي مستكرهة ، وكان يقال : الطفل إذا كره عمي، ومتى عمي الطباع وجسا وغلظ وأهمل حتى يألف الجهل ، ولم يكد يفهم ما عليه وله ، فلهذا وأشباهه قاموا على الإلف والسابق إلى القلب » .

ومن الذين اتهموا بالزندقة أبو نواس ، فقد كان يتعرض للقتل بجهده ، وقد كانوا يعجبون من قوله :

كيف لا يدنيك من أمل من رسول الله من نفره

فلما قال :

فأحبب قريشاً لحبّ أحدهما واشكر لها الجزل من مواهبها

جاء بشيء غطى على الأول . وأنكروا عليه قوله :

لو أكثر التسبيح ما نجّاه

فلما قال :

يا أحمد المرتجى في كل نائبة قم سيدي نعص جبار السموات

غطى هـذا على الأول ، وهذا البيت مع كفره مقيت جدًّا ، وكان يكثر في هذا الباب »[١] .

وأكثر من قتل في الزندقـة من كان ينتحل الإسلام و يظهره ، هم الذين آباؤهم وأمهاتهم نصارى[٢] .

وقد صحب هذه الزندقة وهذا الكفر شتات المسلمين ، وكثرة الفرق ، فبعد أن كانوا يجمعهم نظام واحد ، ودين واحـد ، لا يعرفون غير الكتاب والسنة ، اختلفت كلمتهم حتى أصبح الإنسان يحار في كثرة الفرق ما بين حديثي ومعتزلي وشيعي وزيدي ورافضي وبكرية وجبرية وفضلية وشمرية ومرجئة وعثماني وخارجي وإباضية ونابتة وحشوية وغالية وسميطية وكميلية وسبلية وديصانية وجهمية وصوفيـة وناحبة وصفرية والأزارقة ، فضلاً عن المارقة والمنانية والدهرية وأشباهها .

ولا بأس بأن أذكر نبذاً من معتقدات الزنادقة مما أورده الجاحظ في كتبه .

فالمنانية[٣] تزعم أن العالم بمافيه من عشرة أجناس ، خمسة منها خير ونور ، وخمسة منها شر وظلمة ، وكلها حاسة وحارة ، وأن الإنسان مركب من جميعها على قدر ما يكون في كل إنسان من رجحان أجناس الخير على أجناس الشر ، ورجحان الشر على أجناس الخير وأن الإنسان وإن كان ذا حواس خمسة فإن في كل حاسة فنوناً من ضده من الأجناس الخمسة ، فمتى نظر الإنسان نظرة رحمة فتلك النظرة من

---

(١) كتاب الحيوان — الجزء الرابع ١٤٥ .

(٢) رسائل الجاحظ على هامش الكامل — الجزء الثاني ص ١٦٩ .

(٣) كتاب الحيوان — الجزء الرابع ص ١٤١ .

النور ومن الخير ، ومتى نظر نظرة وعيد فتلك النظرة من الظلمة ، وكذلك جميع الحواس . وأن حاسة السمع جنس على حدة ، وأن الذي فى حاسة البصر من الخير والنور لا يعين الذي في حاسة السمع من الخير ، ولكنه لا يضادّه ، ولا يفاسده ، ولا يمنعه ، فهو لا يعنيه لمكان الخلاف والجنس ، ولا يعين عليه لأنه ليس ضدًّا ، وأن أجناس الشر خلاف لأجناس الشر ضد لأجناس الخير ، وأجناس الخير يخالف بعضها بعضاً ، ولا يضاد ، وأن التعاون والتآدي لا يقع بين مختلفها ولا بين متضادها وإنما يقع بين متفقها .

والدهري[1] ليس يرى أن فى الأرض ديناً أو نحلة أو شريعة أو ملة ، ولا يرى للحلال حرمة ولا يعرفه ، ولا للحرام نهاية ، ولا يعرفه ، ولا يتوقع العقاب على الإساءة ، ولا يترجّى الثواب على الإحسان ، وإنما الصواب عنده ، والحق فى حكمه أنه والبهيمية سيان ، وأنه والسبع سيان ، ليس القبيح عنده إلا ما خالف هواه ، وأن مدار الأمر على الإخفاق والدرك ، وعلى اللذة والألم ، وإنما الصواب فيما نال من المنفعة ، وإن قتل ألف إنسان صالح لمنالة الدرهم الرديء .

وقال فى موطن آخر[1] :

« فإن كان الدهري يريد من أصحاب العبادات والرسل ما يريد من الدهري الصرف الذي لا يقر إلا بما أوجده العيان ، وما يجري مجرى العيان ، فقد ظلم ، وقد علم الدهري أن لنا ربًّا يخترع الأجسام اختراعاً ، وأنه حي لا بحياة ، وعالم لا بعلم ، وأنه شيء لا ينقسم ، وليس بذي طول ولا عرض ولا عمق ، وأن الأنبياء تحيي الموتى وهذا كله عند الدهري مستنكر » .

وأما الديصانية فقد زعمت ، على ما قال أبو إسحق النظام ، أن أصل العالم إنما أول ماء جاء من الأصول هو من ضياء وظلام ، وأن الحر والبرد واللون والطعم والصوت

---

(١) كتاب الحيوان — الجزء السابع ص ٦ .
(٢) كتاب الحيوان — الجزء الرابع ص ٣٢ .

والرئحة إنما هي نتائج على قدر امتزاجها[١] .

هـذه خلاصة الكلام على الزندقة التي أدت إليها استفاضة الحرية في عصر الجاحظ ، وكما كان الجاحظ صورة عصره في تمثيل الحرية فلقد كان صورة هذا العصر في تمثيل نتائج هـذه الحرية ، فلم يغفل عن التنبيه على موت ذكر الحلال والحرام في أيامه ، ولا غفل عن ذكر الذين كانوا السبب في شيوع كتب الزنادقة في المسلمين ، ولقد أشار إلى ظهور آثار هذه الزندقة على الأدب فى أيامه ، وتكلم على طائفة من معتقدات الزنادقة ، فالجاحظ كان متصلا بعصره من كل أفق من آفاق هذا العصر .

---

(١) كتاب الحيوان — الجزء الخامس ص ١٧ .

٣

الانقلاب الفكري

بقي علينا الكلام على الناحية العجيبة من نواحي عصر الجاحظ ، أي على ناحية استفاضة العلم ، لقد جاءت العربية من هذه الجهة ببرهان بليغ على صلاحها للحياة ، وعلى استعدادها لقبول ما يندمج فيها من صور الفن والعلم ، وأعجب من هـذا كله استعداد العرب للدخول في كل طور من أطوار الحياة ، ولا شك في أن التطور من علامات الحياة ، ففي أسرع من رد الطَرْف نقل معاوية الملك من شكل إلى شكل ، فبعد أن كان هذا الملك مصبوغاً بصباغ بدوي ، صبغه بصباغ حضري ، كلنا نعلم رغبة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب في الخشونة سواء أكانت هذه الخشونة في الملابس أم في المآكل ، أم في المراكب ، ولكن معاوية لما كان عاملاً لعمر على الشام تلوّن بألوان البيئة ، أي بيئة الشام ، فما لبث أن فخّم ملكه على نحو تفخيم الروم ، فقد ذكر صاحب العقد الفريد أن عمر بن الخطاب لما قدم الشام ، قدم على حمار ، ومعه عبد الرحمن بن عوف على حمار ، فتلقاهما معاوية في موكب ثقيل ، فجاوز عمر حتى أُخبر ، فرجع إليه ، فلما قرب منه نزل إليه ، فأعرض عنه فجعل يمشي إلى جنبه راجلاً ، فقال عبد الرحمن بن عوف : أتعبت الرجل ، فأقبل عليه عمر ، فقال : يا معاوية ، أنت صاحب الموكب آنفاً مع ما بلغني من وقوف ذوي الحاجات ببابك ؟ قال : نعم يا أمير المؤمنين ، قال : ولِمَ ذاك ؟ قال : لأنا في بلد لا نمتنع فيه من جواسيس العدو ، ولا بد لهم مما يرهبهم من هيبة السلطان ، فإن أمرتني بذلك أقمت عليه ، وإن نهيتني عنه انتهيت ، فقال : لئن كان الذي تقول حقاً فإنه رأي أريب ، وإن كان باطلاً فإنها خدعة أديب ، وما آمرك به ولا أنهاك عنه ، فقال عبد الرحمن بن عوف : لَحَسَنٌ ما صدر هـذا الفتى عما أوردته فيه ، فقال : لحسن

موارده جشمناه ما جشمناه (١) » .

ففي زمن غير طويل رتّب معاوية الملك في الإسلام ، وفي زمن غير طويل أدخلت طائفة من خلفاء بني العباس ميراثنا الأدبي فى باب لم يدخله من قبل ، حتى رفل ملك العرب وأدبهم فى برد قشيب ، فى قرن أو قرنين ، وما هو قرن و بعض قرن فى استيقاظ الأمم .

كان الأدب قبل بني العباس على حسب ما تناهى إلينا من آثاره لا يحيط إلا بأخبار العرب وأيامهم وأشعارهم وخطبهم وملحهم ونوادرهم وغرائبهم وما شاكل هذه الأمور ، فكان فيه شيء من الشعور والعاطفة ، و إنما كان يعوزه التبسط فى مذاهب الفكر كالفلسفة والرياضيات والسياسة والتوحيد والطب وأشباه ذلك ، فلما جاء أبو جعفر المنصور شرع يحيي بن البطريق وابن جبرائيل الطبيب وابن المقفع وابن ماسويه وسلاّم الأبرش و باسيل المطران فى الترجمة ، فنقلوا إلى العربية بعض كتب المنطق والطب ، ولما جاء المأمون اندفق يوحنا بن البطريق والحجاج بن مطر وقسطا بن لوقا البعلبكي وعبد المسيح بن ناعمة الحمصي وحنين بن إسحق و إسحق بن حنين فى نقل الآثار ، فترجموا كتب بقراط وجالينوس وأرسطاطاليس وأفلاطون .

وقد كان الجاحظ يرقب كل حركة من حركات عصره ، فلم يغفل عن شيء مما كان يجري فى أيامه ، فكأنه صورة ناطقة تفصح لنا عن أحوال عصره ، فقد أشار إلى التجديد إشارة خفية فقال : (٢)

وقد نقلت كتب الهند ، وترجمت حكم اليونانية ، وحولت آداب الفرس ، فبعضها ازداد حسناً ، و بعضها ما انتقص شيئاً . . . وقد نقلت هذه الكتب من أمة إلى أمة ، ومن قرن إلى قرن ، ومن لسان إلى لسان ، حتى انتهت إلينا ، وكنا آخر من ورثها ونظر فيها » .

---

(١) العقد الفريد — الجزء الأول ص ٧ . (٢) كتاب الحيوان — الجزء الأول ص ٣٨ .

وكما أنه لم يغفل عن التلميح إلى النقل فـكذلك لم يغفل عن التلميح إلى الآثار المنقولة ، فأشار إلى كتب إقليدس وجالينوس والمجسطي مما تولاه الحجاج ، وأشار إلى ما في أيدي الناس من كتب الحساب والطب والمنطق والهندسة ومعرفة اللحون والفلاحة والتجارة وأبواب الأصباغ والعطر والأطعمة والآلات [١] ، وأشار إلى كتاب الـكون والفساد ، وكتاب العدوى لأرسطاطاليس ، وإلى كتب ديمقرط وأبقراط وأفلاطون وفلان وفلان وهؤلاء ناس من أمة قد بادوا و بقيت آثار عقولهم وهم اليونانيون [٢] .

ولقد كان يحذر كذب التراجمة وزياداتهم ، وجهل المترجم بنقل لغة إلى لغة [٣] فمن حذره هذا يتبين لنا وجه من وجوه الترجمة في عصره ، وهذا بعض ما جاء في بعض كتبه من هذا المعنى [٤] :

« ثم قال بعض من ينصر الشعر ويحوطه و يحتج له : إن الترجمان لا يؤدي أبداً ما قال الحكيم على خصائص معانيه ، وحقائق مذاهبه ، ودقائق اختصاراته ، وخفيات حدوده ، ولا يقدر أن يوفيها حقوقها ، و يؤدى الأمانة فيها ، و يقوم بما يلزم الوكيل ، ويجب على الجريّ ، وكيف يقدر على أدائها وتسليم معانيها ، والإخبار عنها على حقها وصدقها إلا أن يكون في العلم بمعانيها ، واستعمال تصاريف ألفاظها ، وتأويلات مخارجها مثل مؤلف الكتاب وواضعه ، فمتى كان رحمه الله تعالى ابن البطريق وابن ناعمة وأبو قرة [٥] وابن فهر وابن وهيلي وابن المقفع مثل أرسطاطاليس ومتى كان خالد مثل أفلاطون ؟ ! ولا بد للترجمان من أن يكون بيانه في نفس الترجمة

---

(١) كتاب الحيوان — الجزء الأول ص ٤٠ .
(٢) رسائل الجاحظ على هامش الـكامل — الجزء الثاني ص ١٦٧ .
(٣) كتاب الحيوان — الجزء السادس — ص ٩٠ .
(٤) كتاب الحيوان — الجزء الأول ص ٣٨ .
(٥) هكذا وردت ولعلها ابن قرة .

في وزن علمه في نفس المعرفة ، وينبغي أن يكون أعلم الناس باللغة المنقولة والمنقول إليها ، حتى يكون فيهما سواء وغاية ، ومتى وجدناه أيضاً قد تكلم بلسانين علمنا أنه قد أدخل الضيم عليهما ، لأن كل واحدة من اللغتين تجذب الأخرى ، وتأخذ منها ، وتعترض عليها ، وكيف يكون تمكن اللسان منهما مجتمعين فيه كتمكنه إذا انفرد بالواحدة ، و إنما له قوة واحدة ، فإن تكلم بلغة واحدة استفرغت تلك القوة عليهما ، وكذلك إن تكلم بأ كثر من لغتين ، على حساب ذلك تكون الترجمة لجميع اللغات ، وكلما كان الباب من العلم أعسر وأضيق والعلماء به أقل كان أشد على المترجم ، وأجدر أن يخطئ فيه ، ولن تجد البتة مترجماً يفي بواحد من هؤلاء العلماء ، هذا قولنا في كتب الهندسة والتنجيم والحساب واللحون ، فكيف لو كانت هذه الكتب كتب دين . . . » .

هذا ما أبقاه لنا الجاحظ من آثار الإشارة إلى الترجمة ، و إلى الكتب المترجمة ، و إلى التراجمة ، و إلى آداب الترجمة في عصره . و إن هذه الآثار على قلتها لتستطيع أن تصوّر لنا ناحية من نواحي الحياة التى عاشتها العربية في ذاك العصر ، فندرك أن العربية خرجت من شكل إلى شكل بدخول عناصر فيها لم يكن لها عهد بأمثالها من قبل .

لا شك في أن الكلام على النقل ، وعلى الكتب المنقولة في عصر الجاحظ ، يطول مداه ، فمن أراد التوسع في هذا فليرجع إلى الفهرست لابن النديم ، و إلى طبقات الأطباء لابن أبي أصيبعة ، و إلى أخبار الحكماء للقفطي ، ولكن كيف كان الأمر لا نجد لنا مندوحة عن الإيجاز في الكلام على هذه الناحية الجديدة من نواحي ميراثنا الأدبي التى طبع بها هذا الميراث بطابع خاص ، ظهرت آثاره على الفكر العربي ، حتى مزجوا الأدب والدين بالعلم ، فلبس الأدب بهذا المزج لباساً لم يكن له في ماضيه .

وقبل الكلام على النقل من اليونانية وغيرها من اللغات لا بأس بالإشارة إلى أن

الجاحظ قد عاش في عصر تمّ فيه اختلاط العرب ببعض الأعاجم ، فقد اتصلت بأهل هذا العصر أخبار فريق من الأعاجم كالصقالبة والترك والروم والهند وفارس والحبشان والنوبة وأصناف السودان ، وتناهت إليهم أخبار الأكاسرة ، وعرفوا كثيراً من صفات نساء الروم وفارس والهند ، واستجلبوا العبيد من السند ، واشتروا الغلمان للطبخ ، وربما سموا بعض سككهم بأسماء الأعاجم فقالو : سكة أصطفانوس وربما سمعنا أسماء غير عربية ، مثل طيمانو ومنويل وسموعين ونوفيل وميخائيل وغير ذلك ، وقد خالط بعض اليونانيين العرب في أمصارهم ، فعرف العرب طائفة من نوادرهم .

***

استفاضت الروح اليونانية في آفاق آسية بعد فتوح الإسكندر فأصبحت الإسكندرية زمناً غير قصير ملجأ يلجأ إليه أهل العلم والبحث وأشباه هذه الطبقات من الرجال الذين أبعد غاياتهم تثقيف عقولهم ، وترويض أذهانهم ، وعلى الرغم من العوارض التي عرضت لدور الكتب فأدخلت الضيم عليها ، بقيت طائفة من التصانيف مستفيضة في الناس تدل على أن فكر المتقدمين لا يزال حيًّا .

وقد كانت بلاد الشام والعراق داخلة في حضارة يونانية ، فكانوا في ديارات الرهبان السريانين ينقلون من اليونانية إلى السريانية في أحقاب متطاولة كتب فلسفة اليونانيين وعلومهم . أما تراجمة العرب فقد كانوا في عصر الترجمة يعمدون إلى الكتب السريانية فينقلونها إلى العربية .

وقد كان المجمع العلمي الذي أنشأه كسرى الأول سنة ٣٥٠ في جندي سابور ينشر في الشرق علوم اليونانيين ، ويثبّت رغبة القوم في ذوق الفلسفة والطب .

وبقيت مدينة حرّان في بلاد ما بين النهرين وثنية ، فاجتمع آلهة اليونانيين وآلهة رومة إلى آلهة الساميين القديمة ، وكانت حرّان أيضاً في القرون الوسطى ناحية حضارة يونانية ، فكان أهلها ينصرفون خاصة إلى الرياضيات وإلى علم الفلك .

من هذا كله يتضح لنا أن الثقافة اليونانية هي التي فعلت فعلتها في ميراثنا الأدبي، وأريد بهذا أن العرب وجدوا في آفاقهم في أول يقظتهم مستودعاً لآثار عقول اليونانيين فاستخرجوا من هذا المستودع ما قدروا عليه .

لا ريب في أن نقل هذه الآثار قد شرع فيه القوم على زمن المنصور وإنما المأمون هو أول خليفة في الإسلام كانت له جلائل الآثار في استيقاظ العقول من رقدتها ، فقد أنشأ في بغداد بيت الحكمة ، وهو أشبه شيء بجامعات هذا العصر ، وجعل لها دار كتب ، ورصد فلك ، فنقلت على أيامه كتب من السريانية إلى العربية ، كانت في الأصل منقولة عن اليونانية ، فزادت هذه الكتب في أدبنا النامي الأصول ، المختلف الأشكال .

نعم ، نهض المأمون بالمسلمين نهضة لم يقتصر فضلها على العرب وحدهم ، وإنما انتقلت أصداؤها إلى آفاق أوروبة الراقدة ، فاستفاقت أوروبة من نومها بفضل الأندلس ، وتلك الأيام نداولها بين الناس .

وأظن أن الخوض في ما نقل من الكتب إلى العربية يمتد بنا مداه ، وإنما أجتزئ بالإشارة إلى العلوم التي دخلت العربية حتى نعرف طبيعة الطابع الذي طبعت به ثقافتنا ، فقد نقل العرب كتب أفلاطون وأرسطاطاليس وبقراط وجالينوس وإقليدس وأرخميدس وبطليموس ، وهي في موضوعات شتى ؛ في السياسة والتوحيد والمنطق والشعر والخطابة والأخلاق والطب والرياضيات والنجوم وأضراب ذلك .

وكان منهم من يذهب إلى بلاد الروم فيتعلم اليونانية كحنين بن إسحق، وهو ابن صيدلاني نصراني من الحيرة ، فقد سافر إلى آسية الوسطى ، وتعلم اليونانية ، وعاد إلى بغداد ، فكان طبيبا للمتوكل ، وكتب في الطب والفلسفة

أنشأت قراءة كتب أرسطاطاليس رغبة في الفلسفة ، فكانت الفلسفة في المسلمين

فاشية في طبقات قليلة من جمهرة المفكرين والعلماء ، أي لم تستفض في طبقات العامة ، إلا أن رجال الفكر انصرفوا إليها بمجامعهم .

وقد طبقوا الفلسفة على السياسة ، فمن أقدم المؤلفات السياسية التي تشتمل على بعض نظرات فلسفية كتاب « سلوك المالك في تدبير الممالك » لصاحبه شهاب الدين بن أبي ربيع ، وضعه على أيام المعتصم ، ومنه نسخة في باريز وقد طبع في مصر .

ومشت الرياضيات إلى جنب الفلسفة ، فنقل العرب الهندسة إلى لغتهم من كتب اليونانيين ، ولا سيما كتب إقليدس ، وربما أخذوا الحساب عن الهند .

أقدم العلماء الرياضيين من العرب إنما هو الخوارزمي الذي كان على زمن المأمون ، فقد طلب إليه المأمون أن يؤلف خلاصة الكتاب الهندي « سدهاند » ونقلت كتبه في الجبر والحساب إلى اللاتينية ، واستفاضت في أوروبة ، ومن الخوارزمي اشتق الإفرنجة كلمة Algorithme

ثم وضعوا كتباً في النجوم ، ففي بدء القرن الثالث ظهر كتاب أبي يوسف يعقوب القارشي ، أما الطب فقد جاء المنصور بطبيبه بختيشوع من فارس ، إلا أن الطب العربي عملت فيه عوامل هندية فكان للرشيد طبيب هندي وهو منكه .

ومن جندي سابور جاء أبو زكريا يحيى بن ماسويه ، فكان ينقل عن اليونانية كتباً كثيرة ، ووضع كتباً من عنده ككتاب نوادر الطب[1] .

وقد نقلوا أيضاً عن النبطية وعن العبرانية .

* * *

هذه خلاصة النقل في عصر الجاحظ ، فما أكثر الأفكار الحديثة التي دخلت في ميراثنا الفكري ، فاستلزمت صوراً حديثة تمثّلها للعقول ، وتقرّبها من الأذهان ، فبعد أن كان العقل لاصقاً بصور المادة لا يحيط إلا بما تعاينه الحواس ، انسلخ بعض الشيء من هذه المادة ، وتعلق بالأمور المجردة ، فتغلغل في باطنه ، ففكك أجزاء النفس وقواها

(١) أدب العرب للأستاذ هوار Hūari ص ٢٧٨ .

وحسها ، وتفكيرها ، وأخلاقها ، وطمح إلى ما فوق البشر ، وإلى ما فوق العالم ، فنظر في المبادئ والنتائج ، ونظر في العلل والقوانين . ومن عكف على دراسة اللغة وأطوارها في هذا العصر الذي نقلت في خلاله آثار اليونانيين وآثار الهند وآثار فارس وغيرهم من الأمم إلى العربية ، لا يتمالك أن يدهش لبيان العرب ، وأن يقول : ما أمرنَ هذا البيان ! ما أقدره على الحياة ! دخلته عناصر لا عهد له بها ، فقبلها ولم يعجز عن تمثيلها وتصويرها ، وهنا يظهر لنا سلطان العربية في أوضح مظاهره ، فما ضاقت العربية في يوم من أيامها عن تصوير نتائج القرائح وثمرات الخواطر.

وإلى جنب هذه العلوم التي استفاضت في الجمهور خرافات لا بأس بذكر طائفة منها نقتبسها عن كتب الجاحظ نفسه ، فكأن العلم لم يفش في الطبقات كلها ، وبذكر نبذ من هذه الخرافات نحيط بناحية من نواحي عصر الجاحظ ، فكأن الجاحظ لم يغادر لنا شيئاً من عصره تفوتنا معرفته ، ومن هذا يتبين لنا مقدار تدقيقه ، فهو الذي نبّهنا على كل ناحية من نواحي عصره ، على حرية الفكر ، وعلى صلاح الأيام ، وعلى فساد الدهر ، وعلى كثرة الزندقة ، وعلى شيوع العلم وعلى ذيوع الخرافات.

فمن هذه المعتقدات جلب الخنافس للرزق ، قال أبو عثمان[1] :

«سقط إلى المَفَاليس أن الخنافس تجلب الرزق ، وأن دنوها دليل على رزق حاضر ، من صلة أو جائزة أو ربح أو هدية أو حظ ، فصارت الخنافس إن دخلت في قُمُصهم ثم نفذت إلى سراويلاتهم لم يقولوا لها قليلاً ولا كثيراً ، وأكثر ما عندهم اليوم الدفع لها ببعض الرفق ، ويظن بعضهم أنه إذا دافعها فعادت ، ثم دافعها فعادت ثم دافعها فعادت ، أن ذلك كلما كان أكثر كان حظه من المال الذي يؤمله عند مجيئها أجزل . فانظر أية واقية وأية حافظة ، وأي حارس ، وأي حصن ، أنشأه لها هذا القول ، وأي حظ [كان] لها حين صدقوا [بهذا الخبر] هذا التصديق ، والطمع هو الذي أثار هذا الأمر من مدافنه ، والفقر هو الذي اجتذب هذا الطمع واجتلبه ، ولكن الويل لها إن ألحت

(١) كتاب الحيوان — الجزء الثالث ص ١٠٦ .

على غني عالم ، وخاصة إن كان مع حدوثه وعلمه حديداً عجولاً ! وقد كانوا يقتلون الذباب الكبير ، الشديد البطش ، الملح في ذلك ، الجهير الصوت ، الذي تسميه العوام أمير الذبان ، فكانوا يحتالون في صرفه وطرده [وقتله] إذا أكربهم بكثرة طنينه وزجله وهماهمة ، فإنه لا يفتُر ، فلما سقط إليهم أنه مبشر بقدوم غائب وبرء سقيم صاروا إذا دخل المنزل وأوسعهم شرًّا لم يهجه أحد منهم ، وإذا أراد الله عز وجل أن ينسىء فى أجل شيء من الحيوان هيأ لذلك سبباً كما أنه إذا أراد أن يقصر عمره [ويَحين يومه] هيأ له سبباً ، فتعالى الله علوًّا كبيراً » .

ومن هذه المعتقدات طول العمر بطول الأذن ، قال الجاحظ(١) :

« قد سمعت من يذكر أن [كِبَرَ] أذن الإنسان دليل على طول عمره حتى زعموا أن شيخاً من الزنادقة لعنهم الله تعالى قدموه لتضرب عنقه ، فعدا إليه غلام سندي كان له فقال: أليس قد زعمت يا مولاي أن من طالت أذنه طال عمره ؟ قال: بلى ! قال: فهاهم يقتلونك ! قال : إنما قلت إن تركوه » .

وكانوا يعتقدون إنه إذا كان في الدار ديك أبيض أفرق لم يدخلها الشيطان . ويقولون من أكل لحم سنور أسود لم يضره سحر ، وإذا دخنت الدار بالدخنة التي سموها بدخنة مريم أو باللبان ، لم يكن عليها لعمّار الدار سبيل ، وأن من نام بين البابين تخبطه العمّار ، وخبلته الجن(٢) .

والعامة تزعم أن لبس النعال السود يورث النسيان .

وكأن أمثال هذه المعتقدات لم تختص بها العامة وإنما لهج بها فريق من العلماء والمؤلفين حتى قال الجاحظ(٣) :

« ومما لا أكتب لك من الأخبار العجيبة التي لا يجسر عليها إلا كل وَقَاح ،

---

(١) كتاب الحيوان — الجزء السادس ص ١١٧ .
(٢) « « « الثاني ص ٧٥ .
(٣) « « « السابع ص ٤٩ .

أخبار بعض العلماء ، و بعض من يؤلف الكتب ، و يقرؤها و يدارس أهل العبر ويتحفظها . زعموا أن الضبع يكون عاما ذكراً وعاماً أنثى ، وسمعت هذا من جماعة منهم من لا أستجيز تسميته . قال الفضل بن إسحق : أنا رأيت العفص والبلوط في غصن واحد ، قال: ومن الغصن ما يكون مثل الأُكَر ، وقد خبرني بذلك غيره ، وهو يشبه تحول الأنثى ذكراً ، والذكر أنثى ، وقد ذكرت العرب في أشعارها الضباع والذئاب والسبع والعسبار وجميع الوحوش والحشرات والأحناش ، وهم أخبر الخلق بشأن الضبع ، فكيف تركت ما هو أعجب وأطرف ، وقد ذكرت العلماء الضباع في مواضع من الفتيا لم نر أحداً ذكر ذلك ، وأولئك بأعيانهم هم الذين يزعمون أن النمر تضع في مشيمة واحدة جرواً وفي عنقه أفعى قد تطوقت به ، و إذا لم يأتنا في تحقيق الأخبار شعر شائع ، أو خبر مستفيض ، لم نلتفت لِفْتَه » .

وتعرض الجاحظ لبعض المفسرين الذين قد يتصورون تصورات غريبة فقال[1] :

« وزعم بعض المفسرين أن السنور خلق من عطسة الأسد، وأن الخنزير خلق من سَلحة الفيل ، لأن أصحاب التفسير يزعمون أن أهل سفينة نوح لما تأذوا بكثرة الفأر وشكوا [إلى نوح ذلك] ، سأل ربه الفرج، فأمره أن يأمر الأسد فيعطس، فلما عطس خرج من منخريه زوج سنانير من ذكر وأنثى ، خرج الذكر من المنخر الأيمن ، والأنثى من المنخر الأيسر ، فكفاهم مؤونة الجرذان ، ولما تأذوا برائحة نجوهما شكوا ذلك إلى نوح ، وشكا ذلك إلى ربه ، فأمره أن يأمر الفيل فيسلح ، فسلح [زوج] خنازير ، فكفياهم مؤونة رائحة النجو ، وهذا الحديث نافق عند العوام ، وعند بعض القُصّاص » .

و إذا كانت أشباه هذه المعتقدات نافقة عند أهل الحضر فاستفاضتها في الأعراب أولى ، فـ « الأعراب لا يصيدون يربوعاً ، ولا قنفذاً ، ولا ورلاً من أول الليل ، وكذلك كل شيء يكون عندهم من مطايا الجن كالنعام والظباء ... فإن قتل أعرابي

(١) كتاب الحيوان — الجزء الخامس ص ١٠٦ .

قنفذاً أو ورلاً من أول الليل ، أو بعض هذه المراكب ، لم يأمن على نخل إبله ، ومتى اعتراه شيء حكم بأنه عقوبة من قبلهم[١] » .

وتزعم الأعراب أن الضفدع كان ذا ذنب ، وأن الضب سلبه إياه[٢] .

وتزعم المجوس أن سومين الذي ينتظرون خروجه ، ويزعمون أن الملك يصير إليه ، يخرج على بقرة ذات قرون ، ومعه سبعون رجلاً ، عليهم جلود الفهود ، لا يقول : هِرًّا ولا بِرًّا حتى يأخذ جميع الدنيا[٣] .

هذا آخر ما أذكره من صفات عصر الجاحظ ، وقد تبين لنا أن الجاحظ كان صورة عصره في مجامع هذه الصفات ، فلئن مثّل عصره من جهة حرية الفكر ، ومن جهة الكلام على الزندقة فلم يكن بأقل تمثيلاً له من الناحية الثالثة ، وهي ناحية الانقلاب الفكري ، ولقد ظهرت آثار هذا الانقلاب على ثقافته ، وإذا تكلمت فى الآتي على تفكيره ظهر لنا أنه أخذ من كل علم بطرف ، حتى خاض فى أبواب شتى ، فى الاجتماع والأخلاق ، والتربية والتعليم ، والطبيعة ، والتاريخ الطبيعي ، وفلسفة اللغة ، وأمثال هذه الأبواب ، فإذا صحّ فى بعض الأحوال أن الأدب إنما هو صورة الجماعات ، فأدب الجاحظ مرآة مصقولة عكست لنا كل ناحية من نواحي عصره .

---

(١) كتاب الحيوان — الجزء السادس ص ١٤ .
(٢) « « « الخامس ص ١٥٣ .
(٣) « « « السادس ص ١٦٢ .

أصول الجاحظ في التحقيق

التجربة والعيان — معرفة السماع — استعانته بالعقل

نقده العلمي — شكه — تعليله

يجدر بنا بعد أن أتينا على ذكر عصر الجاحظ ، ووصفنا أفقاً عجيباً من آفاق ذلك العصر ، وأريد به استفاضة العلم ، فأشرنا إلى طائفة من الآثار التي اتصلت بميراثنا الفكري ، أن ننظر في جهة من جهات ثقافة الجاحظ ، وهي جهة العلم .

ذكرت في كلامي على أول عهدي بالجاحظ رأي (رنان) في المسلمين ، فقد وقع في خلده أن المسلمين يعتقدون أن البحث لا طائل فيه ، ولا شأن له ، وقلت إن الجاحظ قد يكون حجة يحتج بها من يريد أن يثبت أن في العرب علماء ، وإنما عصرهم غير عصرنا ، فلنتفرغ لتقليب النظر في هذه الحجة ، أهي قاطعة أم غير قاطعة ؟

كنت أطالع من أيام غير بعيدة كتاب : مفكري الإسلام[1] فانتهيت إلى كلام المؤلف على الجاحظ فقد قال :

« أكبر كتبه كتاب الحيوان ، وهو كتاب جليل أُدمجت فيه فصول كثيرة لا متعلق لها بالحيوانات ، قد يجمع الجاحظ فيها ما يوحيه إليه حيوان من فكرة ، ومن ذكرى أدبية ، ومن شعر ، ومن قصة ، فإذا شرع القارىء في قراءة هذا الكتاب وفي نيته أن يجد فيه مبحثاً علمياً عن الحيوان فقد خادعته نفسه ، ولكنه إذا قرأ دون غرض من الأغراض ، منقاداً إلى مشيئة المؤلف ، غير سائله خطة مرتبة ، فقد يجد فيه كثيراً من لذة البال .

(١) — Les Penseursde l'Islam لصاحبه البارون كارادي فو Baron Carra de Vaux

لا أظن أننا نستطيع أن نستنبط من الجاحظ فلسفة أو مقاييس ، ولكننا قد نجد له روحاً فلسفية تنبسط في أعلى هضابها ، وذوقاً للحياة العقلية يذهب في أبعد مداه » .

يشتمل هذا الكلام على رأيين : رأى في الجاحظ من جهة العلم ، ورأي فيه من جهة الفلسفة ، فصاحب هذين الرأيين يجرّد أحد كتب الجاحظ من قيمته العلمية تجريداً واضحاً ، فهو لا يجد في كتاب الحيوان بحثاً علميًّا عن أصناف الحيوان ، وإنما يقرّ بقيمة فنه ، وهو ما أفصح عنه فى قوله : قد نجد فى كتاب الحيوان كثيراً من لذة البال .

وكما جرّده من فضل العلم فقد جرّده من فضل الفلسفة ، فهو لا يستطيع أن يستنبط من الجاحظ فلسفة أو مقاييس ، وإنما يعرف له بروح فلسفية متسعة الأفياء ، وبحياة عقلية بعيدة المدى .

وكذلك المعلمة الإسلامية(١) ، فإنها لما بحثت عن الجاحظ ذكرت أن تآليفه مطبوعة بطابع أدبي لا بطابع علمي ، إلا أنها أشارت إلى أن كتاب الحيوان إنما هو أول نتيجة من نتائج دراسة الطبيعة في علم العرب ، وأننا على الرغم من الاستشهاد بأقوال أرسطاطاليس لا نجد فيه إلا آثاراً قليلة من الآثار اليونانية ، في هذا الكتاب بعض مذاهب في ابتداء أمرها كالنشوء والارتقاء ، والتلون بألوان البيئة ، وروح الحيوانات إلى غير ذلك من المذاهب التي لم يتكامل نموها إلا في القرن التاسع عشر .

فلننظر فى هذا كله ، أصحيح أن طابع تآليف الجاحظ إنما هو طابع أدبي ؟ أصحيح أن الجاحظ ليس له أساليب فلسفية في كل مذهب من مذاهب تحقيقه وتدقيقه ؟ فهل يدقق و يحقق دون أن يبنى على أصول مرتبة ؟ وقبل أن أقلب النظر فى نفي العلم عن الجاحظ ، رأيت من الواجب عليّ أن أبين : من هو العالم ، وما الفرق بين علم العامة وعلم الخاصة .

---

(١) L'Encyclopédie de l'Islam

عقد الأستاذ (ريشه) أحد أعضاء معهد باريز في كتابه : العالم ، فصلاً عرّف فيه العالم تعريفاً بيناً ، ولمح إلى ضروب العلماء ، والذي يستنتج من الفصل كله أن العالم إنما هو الذى يتوخى البحث عن حقيقة مجهولة ، فهو الذى يرمي إلى المعرفة[١] .

فالفرق بين علم العالم و بين علم العامي من الناس ، أن العامة تقتصر على معاينة الأشياء ، ولـكن العلماء يحاولون أن يعرفوا أسباب هذه الأشياء أى أن يعرفوا مبادئها وقوانينها ، فقد قال أرسطاطاليس : يبتدىء العلم بالعجب و ينتهي بضده ، فالعامة لا تعجب من الأشياء التي تعاينها كل يوم ، وتقع عليها حواسّهم ، ولـكن العلماء يعجبون منها ، و يجتهدون فى البحث عن عللها ، فهم يريدون أن يعرفوا مثلاً لماذا لا يصعد الماء فى جوف المضخة إلا إلى حدّ معلوم ، فإذا عرفوا علّة هذا بطل عجبهم ، وصاروا يعجبون من ضد هذا الأمر .

فالعالم فى نظر الأستاذ (ريشه) إنما هو الذى ينقب عن الحقيقة المجهولة ، إلا أن لكل علم من العلوم أصولاً فى التنقيب عن هذه الحقيقة ، فلنبحث فى صدد الأمر عن الأساليب التى يجرى عليها الجاحظ فى البلوغ إلى حقائق العالم ، وكشف الغطاء عن غرائبه وطرائفه .

يقول أبو عثمان فى مقدمة كتاب الحيوان :[٢]

« وهذا كتاب تستوى فيه رغبة الأمم ، وتتشابه فيه العرب والعجم ، لأنه و إن كان عربيًّا أعرابيًّا ، و إسلاميًّا جماعيًّا ، فقد أخذ من طرف الفلسفة ، وجمع معرفة السماع وعلم التجربة ، وأشرك بين علم الـكتاب والسنة ، و بين وجدان الحاسة و إحساس الغريزة » .

لخص لنا الجاحظ فى هذه الأسطر أصوله التى يبنى عليها فى الوصول إلى معرفة الحقائق ، فهو يستعين بالحواس و بالعقل على إدراك الحقائق .

---

(١) الأستاذ شارل ريشه (Gharles Richet) كتاب العالم ص ٧ .

(٢) كتاب الحيوان — الجزء الأول ص ٥ .

أما الاستعانة بالحواس فقد أشار إليها في كثير من المواطن ، فقوله : « ليس يشفيني إلا المعاينة » ، داخل في الاستعانة بالحواس ، والمعاينة عنصر من عناصر التحقيق في علوم الطبيعة ، يضم إليه التجربة والفرض والمقابلة والتصنيف ، فكل قول في نظره « يكذبه العيان فهو أفحش خطأ ، وأسخف مذهباً ، وأدلّ على معاندة شديدة ، أو غفلة مفرطة[1] » .

ولم يقتصر الجاحظ على المعاينة وحدها وإنما جمع بينها و بين التجربة في كثير من تحقيق الغرائب في هذا العالم ، وسأذكر في مقام آخر أنماطاً من تجاربه في أصناف الحيوان . ولقد وثق بهذه الطريقة الثقة كلها ، حتى أصبح لا يجد سبيلاً إلى رد الخبر المعروف بمواترته ومرادفته . الذي حققه العيان ، وضمت إليه التجربة[2] .

فهو في هذا المعنى ، أي في الاستعانة بالحواس في التحقيق ، من أصحاب الفيلسوف (باكون) الذي ظهر من سنة ١٥٦١ إلى سنة ١٦٢٦ فقد سعى هذا الفيلسوف في تجديد العقل ، فحاول أن يصلح مناحي الفكر البشري وأساليبه في التحقيق ، فمن رأيه أنه لا ينبغي لنا الاستناد إلى المتقدمين ، لأنهم لا يعاينون الأمور عياناً كافياً ، فما ينبغي لنا أن يكون أصحاب أفكار مهيأة نؤمن بها ، فإن هذه الأفكار إنما هي بمنزلة الأصنام ، فلكل حزب أصنام ، ولكل مذهب أصنام ، ولكل عصر أصنام ، فما ينبغي لنا أن نرى في كل ناحية من نواحي الطبيعة مزاعم ، فإذا كانت الشمس تدفئ فما يلزمنا أن نعتقد أنها خلقت لتدفئ ، و إذا كانت الأرض تغذي فما يلزمنا أن نعتقد أنها خلقت لتغذي ، فما يلزمنا أن نرى العالم كله متوجهاً نحو الرجل ، مستعدًّا لخدمته ، يجب علينا أن نلجأ إلى المعاينة و إلى التجربة ، ثم إلى استنباط نتائج عامة من الأمور التي نعاينها ، والأمور التي نجرّبها ، فالاستنباط مداره الذهاب من الخاص إلى العام ، ومن طائفة من الأمور إلى وضع القوانين .

---

(١) كتاب الحيوان — الجزء الثالث ص ١١٢ .
(٢) « « « الثاني ص ٤٧ .

هذه فلسفة (باكون) وقوامها التجربة والعيان ، ولئن لجأ (باكون) إلى هذه الفلسفة من ثلاثة قرون ، فقد لجأ إليها الجاحظ من أحد عشر قرناً ، إلا أن (باكون) توسع في أساليبه ، فجعل للعيان وللتجربة قواعد عامة ، فالتجربة فى نظره ينبغي لها أن تكون متنوعة ، ممتدة ، مقلوبة .

وكأن الجاحظ رأى أن هذه الطريقة وحدها لا تضمن له الإفضاء إلى الحقائق لأن الحواس التي يعتمد عليها فى التحقيق قد تخادع فى بعض الأحيان :

« ولعمري إن العيون لتخطئ ، وإن الحواس لتكذب ، وما الحكم القاطع إلاّ للذهن ، وما الاستبانة الصحيحة إلا للعقل ، إذ كان زماماً على الأعضاء ، وعياراً على الحواس »[1] .

فأحب أن يجمع إلى معونة الحواس معونة العقل فقال[2] :

« فلا تذهب إلى ما تريك العين واذهب إلى ما يريك العقل ، وللأمور حكمان : حكم ظاهر للحواس ، وحكم باطن للعقول ، والعقل هو الحجة » .

فكان لا يجعل الشيء الجائز كالشيء الذي تثبته الأدلة ، ويخرجه البرهان من باب الإنكار[3] .

فالأدلة والبراهين من أعمال العقل ، وهذه الطريقة إنما هي طريقة (ديكارت) الذي ظهر من سنة ١٥٩٦ إلى سنة ١٦٥٠ فإن فلسفة (ديكارت) ملاكها العقل ، ومدار طريقته على هذه الكلمة : لا تصدق إلا ما كان واضحاً ، صدّق ما كان واضحاً ، فالوضوح إنما هو أصل الأمر في اليقين ، فما ينبغي لقوة من القوى الظاهرة أن يكون لها سلطان على حرية تفكيرنا ، وما القوى الظاهرة إلا السلطة والأوهام والمصلحة والأحزاب .

---

(١) كتاب التربيع والتدوير على هامش الكامل للمبرد — الجزء الأول ص ٤٣ .
(٢) كتاب الحيوان — الجزء الأول ص ٩٧ .
(٣) كتاب الحيوان — الجزء السابع ص ٤١ .

فما أشبه قول (ديكارت) لا تصدق إلا ما كان واضحاً بقول الجاحظ : لا أجعل الشيء الجائز كالشيء الذي تثبته الأدلة ، ولكن (ديكارت) قد تبسط في هذه الطريقة فأنشأ لها قواعد ، منها تجزئة المصاعب ، ومنها الذهاب من المبسوط إلى المركب وغير ذلك .

إلا أن (ديكارت) يشك فى كل شيء ، وقد تكون الحياة فى نظره حلماً من الأحلام ، ولكن شكه هذا لا يشبه شك غيره من الفلاسفة ، فهو يشك فى كل شيء ، فقد يزعم أن العالم لا حقيقة له على أمل أن يصل إلى حقائق يثبتها العقل ، فالشك في مذهبه سبيل إلى اليقين .

و إذا توسعنا بعض التوسع في التنقيب عن مذهب الجاحظ فى التحقيق من جهة العقل تبين لنا أنه قد يميل إلى الشك على نحو ما مال إليه (ديكارت) فى العصور الأخيرة ، وقد يجعل هذا الشك سبيلاً إلى اليقين ، من ذلك قوله :[1]

« وزعم لي ابن أبي العجوز أن الدسّاس تلد ، وكذلك خبرني به محمد بن أيوب بن جعفر عن أبيه ، وخبرني به الفضل بن إسحق بن سليمان ، فإن كان خبرهما عن إسحق فقد كان إسحق فى معادن العلم ، وقد زعموا بهذا الإسناد أن الأرويّة تضع مع كل ولد وضعته أفعى فى مشيمة واحدة ، وقال الآخرون : الأروية لا تعرف بهذا المعنى ، ولـكنه ليس فى الأرض نمرة إلا وهي تضع ولدها وفى عنقه أفعى في مكان الطوق ، وذكروا أنها تنهش وتعض ، ولا تقتل ، ولم أكتب هذا لتقرّ به ، ولكنه رواية أحببت أن تسمعها ، ولا يعجبني الإقرار بهذا الخبر ، وكذلك لا يعجبني الإنكار له ، ولكن ليكن قلبك إلى إنكاره أميل ، و بعد هذا فاعرف مواضع الشك وحالاتها الموجبة له ، لتعرف بها مواضع اليقين والحالات الموجبة له ، وتعلم الشك في المشكوك فيه تعلماً ، فلو لم يكن [في] ذلك إلا تعرف التوقف . ثم التثبت ، لقد كان ذلك مما يحتاج إليه ، ثم اعلم أن الشك في طبقات عند جميعهم ، ولم يجمعوا على أن اليقين

(١) كتاب الحيوان — الجزء السادس ص ١٠ .

طبقات في القوة والضعف ، ولما قال أبو الجهم للمكي : أنا لا أكاد أشك ! قال المكي : وأنا لا أكاد أوقن ! ففخر عليه المكي بالشك فى مواضع الشك كما فخر عليه ابن الجهم باليقين فى مواضع اليقين » .

فقول الجاحظ : اعرف مواضع الشك والحالات الموجبة له لتعرف بها مواضع اليقين والحالات الموجبة له يشبه مذهب (ديكارت) في جعل الشك سبيلاً إلى اليقين.

هذا مذهب الجاحظ في التحقيق في كل أمر من أمور العلم والدين ، جمع فيه بين معونة المادة ومعونة العقل ، فكان هذا المذهب مقدمة للأصول التي بني عليها (باكون) (وديكارت) في العصور الأخيرة ، فالجاحظ صاحب طريقة في تحقيقه .

إنا لا نجهل قيمة الطريقة فى العلوم ، فقد قالوا فيها إنها فن استكشاف الحقيقة ، فإذا أراد البشر أن يصلوا إلى الحقائق لزمهم ألا يخبطوا خبطاً ، وأن ينهجوا منهجاً قد اختطوه لأنفسهم قبل التفرغ للبحث ، فلا يمكننا الوصول إلى الحقائق إلا إذا مشينا على خطة معينة ، أي على طريقة ، وما يكفينا أن نلجأ إلى طريقة ما في دراسة من الدراسات ، وإنما يجب علينا أن نستعمل لكل صنف من الحقائق الطريقة الخاصة بهذا الصنف ، ففي صنف تحسن التجربة ، وفي صنف يحسن العقل ، وفي ناحية تحسن التجربة والعقل معاً ، فإذا تجرد الفكر البشري من هذه القواعد ، ومشى دون أن يعرف مبدأ طريقه ومنتهاه ، أو أن يعرف الطريق التي يسلكها ، أضاع قواه دون أن يصل إلى الحقيقة .

والتاريخ يدلنا على أن الفلسفة والعلوم إنما وصلت إلى ما وصلت إليه بفضل هذه الطريقة و بفضل عبقرية الذين استعملوا هذه الطريقة .

إن واضع الفلسفة وهو سقراط إنما هو أول من عاين طبيعة الرجل العقلية ، وطبيعته الخلقية ، وطبق هذا العيان على درس النفس وعلى درس الخالق .

وإذا تقدمت فى عصرنا هذا علوم الطبيعة تقدماً عظيماً ، فالفضل في ذلك يرجع

إلى الطرائق التي وضعها (باكون) و (كلودبرنار) و (باستور) ، واستعملها العلماء من بعدهم .

ولم يكتف الجاحظ بهذه الطريقة وحدها ، ولكنه أحب أن يمزجها بشيء من روعة الفن، فما ذكر غريبة من غرائب العالم ، وطريفة من طرائفه ، إلا ومعها شاهد من كتاب منزل ، أو حديث مأثور ، أو خبر مستفيض ، أو شعر معروف ، أو مثل مضروب ، أو يكون ذلك مما يستشهد عليه الطبيب ، أو من أكثر من قراءة الكتب ، أو بعض من قد دارس الأسفار ، وركب البحار ، وسكن الصحارى ، واستذرى الهضاب ، ودخل فى الغياض ، ومشى فى بطون الأودية[1] .

نعم ، الجاحظ صاحب طريقة فى التحقيق ، ومن هذه الطريقة المعاينة والتجربة ، ومن أكبر صفات المعاين التطلع ، فإن هذا التطلع يحملنا على الاهتمام بأمور لا يكون لها في نظر العامة معنى من المعاني ، مثل مصباح (غليله) أو مثل تفاحة (نوتون) وأظن أني لا أحتاج إلا إلى ذكر مثل أو مثلين في هذا المعنى ، من ذكرهما تتبين لنا خصائص الجاحظ في حب التطلع والاستشراف ، فقد يقف على الأمور وقوف معتبر ، و يتأمل تأمل مفكر ، فإذا اعترض لواحد منها فلا يهدأ باله إلا إذا نفذ إلى حقائقه ، وعرف علله وعلم بمقادير قواه ، وتصرف أعماله ، وتنقل حالاته . قال أبو عثمان فى أثناء كلامه على الفيلة[2] :

« خرجت يوم عيد ، فلما صرت بعيساباذ إذا أنا بفيل مجلل بقطوع ومقطعات ، وإذا برجال جلوس عليهم أسلحتهم ، فسألت بعض من شهد العيد ، فقلت : ما بال هذه المسلحة فى هذا المكان ، وقد أحاط الناس بذلك الفيل ، فقال : هذا الفيل ، فقصدت نحوه ومالي هم إلا النظر إلى أذنيه ، وما كانت لي في ذلك علة إلا شغل قلبي بكل شيء هجمت عليه منه ، وكله كان شاغلا [لي] عن أذنه التي إليها كان قصدي ،

---

(١) كتاب الحيوان — الجزء السادس ص ٥ .

(٢) « « « السابع ص ٦١ .

فذاكرت في ذلك سهل بن هارون فذكر لي أنه ابتلي بمثلها ، وأنشد في ذلك بيتين من شعره وهما قوله :

أتيت الفيل محتسباً بقصدي   لأبصر أذنه ويطول فكري

فلم أر أذنه ورأيت خلقاً   يقرب بين نسياني وذكري».

فهذه القصة على حقارة شأنها ، تصور لنا مقدار ميل الجاحظ إلى التطلع ، فإذا مر بمشهد من المشاهد سأل عنه ، وقصد نحوه ، ونظر إليه ، وشغل قلبه به .

وهذا مثل ثان وهو ليس بأقل دلالة من الأول على تطلع الجاحظ ، قال[1] :

« ولقد تنازع بالبصرة ناس وفيهم رجل ليس عندنا [بالبصرة] أطيب منه ، فأطبقوا جميعاً على أن الجمل إذا نحر ومات ، فالتُمست خصيته وشقشقته ، أنهما لا توجدان ، فقال ذلك الطيّب فلعل مرارة الجمل أيضاً كذلك ، ولعله أن تكون له مرارة ما دام حيًّا ، ثم تبطل عند الموت والنحر ، وإنما صرنا نقول: لا مرارة له ، لأنا لا نصل إلى رؤية المرارة إلا بعد أن تفارقه الحياة ، فلم أجد ذلك عمل في قلبي مع إجماعهم على ذلك ، فبعثتُ إلى شيخ من جزاري باب المغيرة ، فسألته عن ذلك فقال : بلى لعمري إنهما لتوجدان إن أرادهما مريد ، وإنما سمعت العامة كلمةً ، وربما مزحنا بها ، فيقول [أحدنا] : خصية الجمل لا توجد عند منحره ، أجل والله ما توجد عند منحره وإنما توجد في موضعها ، وربما كان الجمل خياراً جيداً ، فتلحق خصيتاه بكليتيه ، فلا توجدان لهذه العلة ، فبعثتُ إليه رسولاً : إنه ليس يشفيني إلا المعاينة ، فبعث إلى بعد ذلك بيوم أو يومين مع خادمي نفيس بشقشقة وخصية ، ومثل هذا كثير قد يغلط فيه من يشتد حرصه على حكاية الغرائب » .

أفرأينا مقدار ولع الجاحظ بالتطلع ، يسمع كلام أهل الصناعة على أمر من الأمور ويجمعون على هذا الأمر ، فلا يعمل الكلام في قلبه ، فيسأل شيخ الجزارين عنه فيعترف له بصحته ، ولكن الجاحظ ليس يشفيه إلا المعاينة ، فهذا الإفراط في حب

---

(١) كتاب الحيوان — الجزء السادس ص ١٤٩ .

التطلع إنما هو من صفات العلماء ومن خصائصهم ، وهل الفرق بين معرفة العالم ومعرفة غير العالم ، إلا في بحث العالم عن كل علة ، واقتصار غيره على العيان وحده ، دون الاهتمام بالعلل و بالقوانين .

يقول صاحب كتاب (مفكري الإسلام) : لا يجد المرء في كتاب الحيوان مبحثاً علميًّا عن الحيوان .

فلنرجع إلى كتاب الحيوان ، فهو الكتاب الذي صور لنا الجاحظ في صورة العالم على مصطلح هذا العصر ، ففيه شواهد كثيرة على توخي الجاحظ الوصول إلى الحقائق فى مباحثه ، وفيه بيان لمختلف أساليبه في التحقيق ، وفيه أنماط من نقده العلمي ومن فلسفته العلمية ، فضلاً عن قيمته الفنيه ، التي نرجىء الكلام عليها إلى حينه ، وقد ألف الجاحظ كتاب الحيوان وهو ابن سبعين بوجه التقريب ، أي بعد أن اختمر عقله واستوى فكره ، واتسعت تجاربه ومعايناته .

فلنستخرج من هذا الكتاب طائفة من الأقوال، ولنحكم على طبائع هذه الأقوال وعلى خصائصها .

من هذه الأقوال ما يتعلق بخلق الطبيعة لكل صنف من الحيوان في تقويم يستعين به على مقادير حاجاته ، قال أبو عثمان[1] :

« وليس شيء من صنف الحيوان أردأ حيلة عند معاينة العدوّ من الغنم ، لأنها فى الأصل موصولة بكفايات الناس ، فأسندت إليهم في كل أمر يصيبها ، ولولا ذلك لخرّجت لها الحاجة ضروباً من الأبواب التي تعينها ، فإذا لم يكن لها سلاح ولا حيلة ، ولم تكن ممن يستطيع الانسياب إلى جُحْر أو صدع صخرة أو في ذروة جبل ، كانت مثل الدجاجة ، فإن أكثر ما عندها من الحيلة إذا كانت على الأرض أن ترتفع إلى رف ، ور بما كانت في الأرض فإذا دنا المغرب فزعت إلى ذلك، ور بما كان عند الجنس من الآلات ضروب ، كنحو ز برة الأسد ولبدته ، فإنه حمول للسلاح

(١) كتاب الحيوان — الجزء السادس ص ١٢٥ .

إلا في مراقّ بطنه ، فإنه من هناك ضعيف جدًّا ، وقال التغلبي :

ترى الناس منا جلد أسود سالخ وز برة ضرغام من الأسد ضيغم

وله مع ذلك بعدُ الوثبة واللزوق بالأرض ، وله الحبس باليد، وله الطعن بالمخلب ، حتى ربما حبس البعير بيمينه ، وطعن بمخلب يساره في لبته ، وقد ألقاه على مؤخره فيلتقى دمه شاحيا فاه وكأنه ينصب من فوّارة ، حتى إذا شربه واستفرغه صار إلى شق بطنه ، وله العض بأنياب صلاب حداد ، وفك شديد ، ومنخر واسع ، وله مع البرثن الشك بأظفاره دق الأعناق ، وحطم الأصلاب ، وله أنه أسرع حضراً من كل شيء أعمل الحضر في الهرب منه ، وله من الصبر على الجوع ، ومن قلة الحاجة إلى الماء ما ليس مع غيره ، ربما سار في طلب الملح ثمانين فرسخاً في يوم وليلة ، ولو لم يكن له سلاح إلا زئيره وتوقد عينيه وما في صدور الناس له لكفاه ، وربما كان كالبعير الذي يعلم أن سلاحه في نابيه وفي كركرته ، والإنسان يستعمل فى القتال كفيه في ضروب ، ومرفقيه ورجليه ومنكبيه وفمه ورأسه وصدره كل ذلك له سلاح ويعلم مكانه ، يستوي في ذلك العاقل والمجنون ، كما يستويان في الهداية في الطعام والشراب إلى الفم . والمرأة إذا ضعفت عن كل شيء فزعت إلى الصراخ والولولة التماساً للرحمة، واستجلابا للغياث من حماتها وكفاتها ، أو من أهل الحسبة في أمرها ».

ومن هذه الأقوال ما يختص بتلوّن كل صنف من الحيوان بألوان بيئته حفظاً لحياته ، قال الجاحظ :[1]

« حدثنا أبو جعفر المكفوف النحوي العنبري وأخوه روح الكاتب ورجال من بني العنبر : أن عندهم فى رمال العنبر حية تصيد العصافير وصغار الطير بأعجب صيد ، زعموا أنها إذا انتصف النهار واشتد الحر فى رمال بلعنبر ، وامتنعت الأرض على الحافي والمنتعل ، ورمض الجندب ، غمست هذه الحية ذنبها في الرمل ، ثم انتصبت كأنها رمح مركوز أو عود ثابت ، فيجيء الطائر الصغير أو الجرادة ، فإذا رأى عوداً

(١) كتاب الحيوان — الجزء الرابع ص ٣٨ .

قائماً ، وكره الوقوع على الرمل لشدة حرّه وقع على رأس الحية على أنها عود ، فإذا وقع على رأسها قبضت عليه ، فإن كان جرادة أو جعلاً أو بعض ما لا يشبعها مثله ابتلعته و بقيت على انتصابها ، و إن كان الواقع على رأسها طائراً يشبعها مثله أكلته وانصرفت ، وأن ذلك دأبها ما منع الرمل جانبه فى الصيف والقيظ فى انتصاف النهار والهاجرة ، وذلك أن الطائر لا يشك أن الحية عود ، وأنه سيقوم له مقام الجذل للحرباء إلى أن يسكن الحر ووهج الرمل .

وفي هذا الحديث من العجب أن تكون هذه الحية تهتدى لمثل هذه الحيلة ، وفيه جهل الطائر بفرق ما بين الحيوان والعود ، وفيه قلة اكتراث الحية بالرمل الذي عاد كالجمر ، وصلح أن يكون مَـلّةً وموضعاً للخبزة ، ثم [أن] يشتمل ذلك الرمل على ثلث الحية ساعات من النهار ، والرمل على هذه الصفة ، فهذه أعجوبة من أعاجيب ما في الحيات » .

ومن هذا القبيل ما نقله عن صاحب المنطق من أن لكل طائر يعشش شكلاً يتخذ عشه منه فيختلف ذلك على قدر اختلاف المواضع ، وعلى اختلاف صور تلك القراميص والأفاحيص (١) .

ومن هذه المباحث الكلام على تأثير البيئة ، وقد نقل قول صنف من الناس فقال (٢) :

« وقال الصنف الآخر : لا ننكر أن يفسد الهواء فى ناحية من النواحي ، فيفسد ماؤهم ، وتفسد تربتهم ، فيعمل ذلك فى طباعهم على الأيام ، كما عمل ذلك فى طباع الزنج ، وطباع بلاد الصقالبة ، وطباع بلاد يأجوج ومأجوج ، وقد رأينا العرب وكانوا أعراباً حين نزلوا خراسان ، كيف انسلخوا من جميع تلك المعانى ، وترى طباع بلاد الترك كيف تطبع الإبل والدواب وجميع ماشيتهم ، من سبع و بهيمة ، على طبائعهم ، وترى جراد البقول والرياحين وديدانها خضراً ، وتراها في غير الخضرة على غير

---

(١) كتاب الحيوان — الجزء الثالث ص ١٦١ .

(٢) » » » الرابع ص ٢٤ .

ذلك ، وترى القملة فى رأس الشاب الأسود الشعر سوداء ، وتراها في رأس الشيخ الأبيض الشعر بيضاء ، وتراها في رأس الأشمط شمطاء ، وفي لون الجمل الأورق ورقاء ، فإذا كانت في رأس الخضيب بالحمرة تراها حمراء ، فإن نصل خضابه صار فيها شُكلَة من بين بيض وحمر ، وقد نرى حرة بني سليم ، وما اشتملت عليه من إنسان وسبع وبهيمة وطائر وحشرة ، فتراها كلها سوداء ، وقد خبَّرنا من لا يحصي من الناس أنهم قد أدركوا رجالاً من نبط بيسان ، ولهم أذناب إلا تكن كأذناب التماسيح والأسد والبقر والخيل ، وإلاَّ كأذناب السلاحف والجرذان ، فقد كان لهم عجوب طوال كالأذناب ، وربما رأينا الملاَّح النبطي في بعض الجعفريات ، على وجهه شبه القرد ، وربما رأينا الرجل من المغرب ، فلا نجد بينه وبين المسخ إلا القليل ، وقد يجوز أن يصادف ذلك الهواء الفاسد ، والماء الخبيث ، والتربة الردية ، ناساً في صفة هؤلاء المغربيّين والأنباط ، ويكونون جهّالاً ، فلا يرتحلون ضنانة بمساكنهم وأوطانهم ولا ينتقلون ، فإذا طال ذلك عليهم زاد في تلك الشعور ، وفي تلك الأذناب ، وفي تلك الألوان الشقر ، وفي تلك الصور المناسبة للقرود » .

وقال في التناحر على الحياة :[1]

ومن العجَب في قسمة الأرزاق أن الذئب يصيد الثعلب فيأكله ، ويصيد الثعلب القنفذ فيأكله ويريغ القنفذ الأفعى فيأكلها ، وكذلك صنيعه في الحيات ما لم تعظم الحية ، والحية تصيد العصفور فتأكله ، والعصفور يصيد الجراد فيأكله ، والجراد يلتمس فراخ الزنابير وكل شيء يكون أفحوصة على المستوي ، والزنبور يصيد النحلة فيأكلها ، والنحلة تصيد الذبابة فتأكلها ، والذبابة تصيد البعوضة فتأكلها » .

وإذا أردت الإفاضة في هذا الباب اتسعت مذاهب الكلام ، فأقتصر على ما ذكرت دون التعرض لما نبه عليه الجاحظ فى كتاب الحيوان ، أو لما وصفه من

(١) كتاب الحيوان — الجزء السادس ص ١٠٢ .

غرائز أصناف الحيوان ومن إحساساتها وما شابه ذلك .

أظن أن أشباه هذه المباحث لا تخرج عن العلم ، وأظن أن الذى يخوض فيها لا يعبث ، إنها لم تخل فى تضاعيفها من أمور جليلة تكاد تكون أجلّ ما اهتدى إليه علماء الطبيعة فى العصور الأخيرة ، أمثال دروين ولامارك وسبنسر وأضرابهم . من هذه الأمور التناحر على الحياة والتلون بألوان البيئة وتأثير البيئة والإرث وغير ذلك ، فكان الجاحظ يعترض لأعاجيب الطبيعة ، ويفكر فيها ، لأن التفكر فيها على نحو ما قال ، مشحذة للأذهان ، ومنبهة لذوى الغفلة ، وتحليل لعقدة البلدة ، وسبب لاعتياد الروية ، وانفساح الصدور ، وعز فى النفوس ، وحلاوة تقتاتها الروح ، وثمرة تغذى العقل[1]

ولكن لا ينبغي لنا أن ننسى أن الجاحظ ظهر من أحد عشر قرناً وأن العلم الحديث لا يتجاوز عمره قرناً ونصف قرن ، فالجاحظ مشى على آثار أرسطاطاليس وغيره من العلماء اليونانيين فى رومة والإسكندرية فى تلخيص المعارف ، فلئن لم يكن له فى علم الحيوان مخترعات علمية لقد لخص معارف عصره ، فكتب كتباً علمية فى أشياء مختلفه .

فقولنا : لا نجد فى كتاب الحيوان مبحثاً علميًا ، لا يخلو من شىء من المجازفة ، وإذا نظرنا فى فصلنا الآتي فى أساليب الجاحظ فى التحقيق ، تبين لنا أن الجاحظ لا يلهو وإنما يبحث وينقب .

---

(١) كتاب الحيوان — الجزء الثاني ص ٣٩ .

١

التجربة والعيان

بقي من بعد هذا كله أن ننظر تفاصيل الأصول التي كان الجاحظ يبني عليها فى التحقيق ، فنذكر أنماطاً من تجربته وعيانه ، ونشير إلى بعض الخصائص فى هذه التجربة وهذا العيان ، ونذكر معرفة سماعه ، وإذا فرغنا من الكلام على استعانته بالحواس تعرضنا للكلام على استعانته بالعقل ، وعلى نقده العلمي وشكه وتعليله .

فلنأت على ذكر نماذج من تجاربه ، فقد جرّب في أصناف شتى من الحيوان كالضب والحيات والظليم والخنفساء والسمك والعقارب والجرذ والنمل ، وجرب في النبات . وكان في كل تجربة من تجاربه يذهب مذهبا خاصًّا ، ففي بعضها كان يقطع طائفة من الأعضاء ، وفي بعضها كان يلقي على الحيوان ضرباً من السم ، وحيناً كان يرمي في تجربته إلى معرفة بيض الحيوان والاستقصاء في صفاته ، وحيناً كان يعزم على ذبح الحيوان وتفتيش جوفه وقانصته ، ومرة كان يدفن الحيوان في بعض النبات ليعرف حركاته ، ومرة كان يذوق الحيوان ، وكان في أوقات يبعج بطن الحيوان ليعرف مقدار ولده ، وفي أوقات يجمع أضداد الحيوان في إناء من قوارير ليعرف تقاتلها ، وكان يلجأ في بعض الأحايين إلى استعمل مادة من مواد الكيمياء ليعلم تأثيرها في الحيوان .

من هذه التجارب قطعه طائفة من أعضاء الحيوان ، فقد عقد فصلاً في كتاب الحيوان بحث فيه عن نصيب الضباب من الأعاجيب والغرائب ، قال في مقدمة هذا الفصل[1] :

---

(١) كتاب الحيوان — الجزء السادس ص ١٦ .

« أول ذلك طول الذَّماء ، وهو بقية النفس ، وشدة انعقاد الحياة والروح بعد الذبح وهشم الرأس ، والطعن الجائف النافذ ، حتى يكون فى ذلك أعجب من الخنزير ومن الكلب ومن الخنفساء ، وهذه الأشياء التي قد تفردت بطول الذماء ، ثم شارك الضب الوزغة والحية ، فإن الحية تقطع من ثلث جسمها فتعيش إن سلمت من الذرّ ، فجمع الضبِ الخصلتين جميعاً ، إلا ما رأيت في دخَّال الأذن من هذه الخصلة الواحدة ، فإني كنت أقطعه بنصفين ، فيمضي أحد نصفيه يمنة ، والآخر يسرةً ، إلا أني لا أعرف مقدار بقائهما بعد أن فاتا بصري » .

إنا نرى أنه في خلال كلامه على صنف من الحيوان ، وفي أثناء تجربة تجار به قد يتعرض للمقابلة بين أصناف الحيوان ، ففي هذه التجربة قد أشار إلى مشاركة الضب للوزغة وللحية في بعض الخصائص ، والمقابلة ركن من أركان التحقيق في علم الحيوان .

ومن تجار به إلقاؤه على الحيوان ضرباً من السم فقد قال[١] :

« وقيل لي وقرأت في كتاب الحيوان إن ريح السذَّاب يشتد على الحيات ، فألقيت على [وجوه] الأفاعي جُرزَ السذاب ، فما كان عندها إلا كسائر البقل ، فلو قلت لهم فى ذلك شيئاً لقالوا : الحيات غير الأفاعي ، وهذا باطل ، الأفاعي نوع من الحيات ، وكلهم قد عم ولم يخص » .

فهو لا يصدق ما يقال له ، ولا يصدق ما يطالعه في كتاب الحيوان ، حتى يقرن هذا كله بشيء من التجريب .

وقد كرر ذكر هذه التجربة في موطن آخر ، فوضّح الأعضاء التي جرب فيها فقال[٢] :

« والأفاعي تكره ريح السذاب والشيح ، وتستريح إلى نبات الحرمل ، وأما أنا فإني ألقيت على رأسها وأنفها من السذاب ما غمرها ، فلم أر على ما قالوا دليلاً » .

ومن تجار به محاولته معرفة بيض الحيوان واستقصاء صفاته فقد قال[٣] :

---

(١) كتاب الحيوان — الجزء الخامس ص ١١١ .

(٢) كتاب الحيوان — الجزء السادس ص ١٣٣ .

(٣) كتاب الحيوان — الجزء الرابع ص ٥٦ .

« وقد رأيت بيض الحيات وكسرتها لأتعرف ما فيها ، فإذا هي بيض مستطيل أكدر اللون أخضر ، وفي بعضه نمش ولمع ، فأما داخله فلم أر قيحاً قط ، ولا صديداً خرج من جرح فاسد ، إلا والذي في بيضها أسمج منه وأقذر » .

ومن تجاربه القبض على الحيوان ليعرف حركته كقوله[١] :

« وفي الأفاعي من العجب أنها تذبح حتى يفرى منها كل ودج ، فتبقى كذلك أياماً لا تموت ، وأمرت الحاوي ، فقبض على خرزة عنقها ، فقلت له اقبضها من الخرزة التي تليها قبضاً رفيقاً ، ، فما فتح بينها بقدر سم الإبرة حتى بردت ميتة » .

وفي هذه التجربة تظهر لنا صفة من محاسن صفات التجربة وهي التكرار ، فقد قبض الحاوي على خرزة عنق الحية فأمره الجاحظ أن يقبضها من الخرزة التي تليها .

ومن تجاربه محاولته ذبح الحيوان ليفتش جوفه وقانصته ، فقد كنت ذكرت هذه التجربة في كلامي على أول عهدي بالجاحظ ، وذلك أن بعضهم شهد من يلقى الحجر في النار ، فإذا عاد كالجمر قذف به قدام الظليم ، فإذا هو يبتلعه كما يبتلع الجمر ، وقد كان الجاحظ حاول أن يعرف أيستمرئ الظليم الحديد كما يستمرئ الحجارة ، فعزم على ذبح الظليم ، وتفتيش جوفه وقانصته ، فلعل الحديد يكون قد بقي هناك لا ذائباً ولا خارجاً ، فعمد بعضهم إلى سكين فأحمي ، ثم ألقاه إليه فابتلعه ، فلم يجاوز أعلى حلقه حتى طلع طرف السكين من مذبحه ، ثم خرّ ميتاً ، فمنع الجاحظ بخرقه من استقصاء ما أراد .

ومن تجاربه دفنه الحيوان في بعض النبات ليعرف حركاته كقوله[٢] :

« وفي الذبان طبع كطبع الجعلان ، فهو طبع غريب عجيب ، ولولا أن العيان قهر أهله لكانوا خلقاء أن يدفعوا الخبر عنه ، فإن الجُعَل إذا دفن في الورد مات في العين

---

(١) كتاب الحيوان — الجزء الرابع ص ٣٩ .

(٢) كتاب الحيوان — الجزء الثالث ص ١٠٨ .

وفنيت حركاته كلها ، وعاد جامداً تارزاً ، ولم يفصل الناظر إليه بينه و بين الجعل الميت ما أقام على تأمله ، فإذا أعيد إلى الروث عادت إليه حركة الحياة من ساعته ، وجربت أنا [مثل] ذلك في الخنفساء فوجدت الأمر فيها قريباً من صفة الجعل ، ولم يبلغ كل ذلك [إلّا] لقرابة [ما] بين الخنفساء والجعل » .

وقد كان لا يكتفي بأن يجرب بنفسه ، وإنما كان يعاين تجارب غيره ، من هذا الشكل قوله[١] :

« ودخلت يوماً على ابن أبي كريمة ، وإذا هو قد أخرج إجّانة كان فيها ماء من غسالة أوساخ الثياب ، وإذا ذبان كثيرة قد تساقطن فيه من الليل ، فموّتن ، هكذا كان فى رأي العين ، فغبرن كذلك عشيتهن وليلتهن والغد إلى انتصاف النهار ، حتى انتفخن وعفِنّ واسترخين ، وإذا ابن أبي كريمة قد أعد آجرّة جديدة ، وفتات آجر جديد ، وإذا هو يأخذ الخمس منهن والستّ ثم يضعهن على ظهر الآجرة الجديدة ، ويذر عليهن من دقاق ذلك الآجر الجديد المدقوق بقدر ما يغمرها ، فلا تلبث أن تراها قد تحركت ، ثم مشت ، ثم طارت ، إلا أنه طيران ضعيف » .

ومرة كان يذوق الحيوان ، من هذا القبيل ما حكاه لنا قال[٢] :

« والشبوط حفظك الله جنس كثير الذكور ، قليل الإناث ، فلا يكون إناثه أيضاً يجمعن البيض ، وإذا جمعن فلو جمعت بيض عشر منهن لما كان كشطر بيض بنيّة واحدة ، فقد رأيت بعض الشبوط وذقته للتعرف ، فوجدته غير طائل ولا معجب ، وكل صياد تسأله فهو ينبيك أن له بيضاً ، ولكنه إذا كان يكون ضئيلاً قليلاً ، لأن الشبابيط في أصل العدد من أقل السمك ، وكذلك الجنس منه إذا كانت الأنثى منه مذكاراً ، على أنه رب نهر يكون أكثر سمكة الشبوط ، وذلك قليل كنهر رامهرمز ، والشبوط لا يتربى في البحار ، ولا يسكن إلا في الأودية والأنهار ،

---

(١) كتاب الحيوان — الجزء الثالث ص ١٠٨ .
(٢) « « « الأول ص ٦٩ .

ويكره الماء الملح ، ويطلب الأعذب فالأعذب ، ويكون في الماء الجاري ، ولا يكون في الساكن . »

فما ذاق الجاحظ الشبوط إلاَّ على سبيل التعرّف .

ومرة كان يبعج بطن الحيوان ، من هذا النوع قوله[1] :

« كنت بعجت بطن عقرب إذ كنت بمصر ، فوجدت فيه أكثر من سبعين عقارب صغار ، كل واحدة نحو أرزة ، حرره أبو بكر السروكني » .

وحيناً كان يلجأ إلى استعمال مادة من مواد الكيمياء ليعلم مبلغ تأثيرها في الحيوان كاستعماله الكبريت الأصفر والقطران ، فقد قال في كلامه على النمل[2] :

« ومن أسباب هلاك النمل نبات الأجنحة له وقد قال الشاعر :

وإذا استوت للنمل أجنحة   حتى يطير فقد دنا عطبه

وإذا صار النمل كذلك أخصبت العصافير ، لأنها تصطادها في حال طيرانها ، وتقتل بأن يصب في أفواه بيوتها القطران والكبريت الأصفر ، ويدس في أفواهها الشعر ، وقد جربنا ذلك فوجدناه باطلاً » .

وحيناً كان يجمع أضداد الحيوان في إناء من قوارير ، ليعرف تقاتلها ، كالجمع بين الجرذ والعقرب ، فقد قال[3] :

«ويزعمون أنهم لم يروا قتالاً قط بين بهيمتين [ولا سبعَيْن] أشد من قتال يكون بين جرذين ، فإذا ربط أحدهما بطرف خيط ، وشد رجل الآخر بالطرف الآخر ، فلهما عند ذلك من الجلب والخمش والعض والتنييب والعِفاس ما لا يوجد بين شيئين من ذوات العقار والهراش ، إلا أن ذلك ما داما في الرباط ، فإذا انحلا وانقطع ولّى كل واحد منهما عن صاحبه وهرب في الأرض ، وأخذ خلاف جهة الآخر ، وإن جعلا

(١) كتاب الحيوان — الجزء الرابع ص ٥٦ .

(٢) كتاب الحيوان — الجزء الرابع ص ١١ .

(٣) كتاب الحيوان — الجزء الخامس ص ٧٧ .

في إناء من قوارير ، أعني الجرذ والعقرب ، وإنما ذكرت القوارير لأنها لا تستر عن أعين الناس صنيعهما ، ولا يستطيعان الخروج لملاسة الحيطان ، فالفارة عند ذلك تختل العقرب ، فإن قبضت على إبرتها قرصتها وإن ضربتها العقرب ضرباً كثيراً فاستنفدت سمها كان [ذلك] من أسباب حتفها » .

أما تجريبه في النبات فقد ذكرت قصة في كلامي على حياته تتعلق باعتنائه بداره فقد أراد أن يغرس في داره أراكة ، فكان ينقل المشارات من مكان إلى مكان فما أفلح حب الأراك .

وإلى جنب هذه التجارب أعمال كان يعملها على سبيل الضحك كقوله[1] :

« وإذا أردت أن ترى من الفيل ما يضحك وتراه في أسخف حالاته [وأجهله] فألق إليه جوزة فإنه يريد أن يأخذ بطرف خرطومه ، فإذا دنا منها تنفس ، فإذا تنفس طارت الجوزة من بين يديه ، ثم يدنو ثانية ليأخذها ، فيتنفس أخرى ، فتبعد [عنه] ، فلا يزال ذلك دأبه » .

وهذا يدلنا على مبلغ ميله إلى الهزل ، وعلى سر من أسرار روحه ، كما يتبين لنا ذلك في كلامنا على تهكمه .

هذه طائفة من تجارب الجاحظ في الحيوان ، قد نجد فيها صفة من صفات المجرّب الحاذق ، وأُريد بهذه الصفة التطلع العلمي ، فإن هذا التطلع قد يحمل العالم على الاهتمام بأمور لا يكون لها في نظر العامة معنى من المعاني ، وقد نجد فيها شيئاً من الصفات التي تستلزمها التجربة ، كالانتباه والتنزه عن كل غرض ، وإنما ينقصها لوازم التجربة في عصرنا هذا ، فمن هذه اللوازم تنويع التجربة وبسط آفاقها ، ونقلها من شكل إلى شكل ، وقلبها وما شابه ذلك ، فلئن كان الجاحظ يجرب فما رأيناه في بعض تجاربه يذهب مذاهب مختلفة وصولاً إلى الحقائق ، فما كان ينوّع هذه التجارب ، أو يبسطها ، أو يخرج بها من صورة إلى صورة ، أو يقلبها من وجه إلى وجه .

---

(١) كتاب الحيوان — الجزء السابع ص ٥٤ .

ولقد كان ينقصه شيء أعظم من هذا كله على ما أعتقد ، فما كان يذهب من التجربة في أُمور خاصة إلى استنباط القوانين العامة ، وما كان يقابل بين أصناف الحيوان ، ويصنف ضروب هذا الحيوان . والمقابلة والتصنيف ركنان من أركان التحقيق في علم الحيوان ، وما رأيناه في بعض مقابلاته ليس بكثير .

إلا أن من علماء الطبيعة من لا يرى للتصنيف وجهاً فقد قال « بوفون » : ليس للطبيعة أصناف ولا أنواع ، فإنها لا تشتمل إلا على أفراد ، وإنما الأصناف والأنواع من أعمال عقلنا .

وكيف كان الأمر فالجاحظ ظهر من أحد عشر قرناً ، وليس من العدل أن نكلفه أُموراً لم تهتد إليها الفلسفة والعلم إلا من زمن غير بعيد .

وسواء أنقصت أُصوله التي كان يبني عليها في التحقيق نواقص ، أم لم ينقصها شيء فإنه لم يخرج في تجربته من زمرة كبار العلماء ، وما يقال في نماذج تجربته قد يقال في أنماط عيانه ، ولا بأس بأن أذكر طائفة من هذه المعاينات ، فقد أخذ عيانه أصنافاً مختلفةً من البشر ومن الحيوان أيضاً ، كالفيل والذباب والسنور والعقارب والفأر والحمير .

أما بعض معاينته لأُمور البشر فقد كان يختص بما يعرض للخصيان ، من هذا النوع قوله[1] :

« ومن العجب أنهم مع خروجهم من شطر طبائع الرجال إلى طبائع النساء ، لا يعرض لهم التخنيث ، وقد رأيت غير واحد من الأعراب مخنثاً متفككاً ، ومؤنثاً يسيل سيلاً ، ورأيت عدة مجانين مخنثين ، ورأيت ذلك في الزنج الأقحاح ، وقد خبرني من رأى كردياً مخنثاً ، ولم أر خصياً قط مخنثاً ، ولا سمعت به ، ولا أدري كيف ذلك ، ولا أعرف المانع منه ، ولو كان الأمر في ذلك إلى ظاهر الرأي ، لقد كان ينبغي لهم أن يكون ذلك فيهم عاما » .

---

(١) كتاب الحيوان — الجزء الأول ص ٦٢ .

ومنه قوله[١] :

« وقد توجد المرأة ذات لحية ، وقد رأيت ذلك ، وأكثر ما رأيته في عجائز الدهاقين ، وكذلك الغبب والشارب ، وقد رأيت ذلك أيضاً ، وهي ليست في رأي العين بخنثى ، بل [نجدها] أنثى تامة ، إلا أن تكون لم تضرب في ذلك بالسبب الذي يقوى حتى يظهر في غير ذلك المكان ، [ولا تعرض اللحى للنساء إلا عند ارتفاع الحيض] ، وليس يعرض ذلك للخصي » .

ففي هذه المعاينة شيء من المقابلة .

وأما بعض معاينته لأمور الحيوان فأذكر من هذا النوع كلامه على شيء من أعاجيب الذباب ، وفيه صورة العالم الطُّلَعة الذي لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلاَّ أحصاها ، وهذا كلامه[٢] .

« وأعجوبة أُخرى وهي عندي أعجب من كل شيء صدَّرنا به جملة القول في الذباب ، فمن العجب أن يكون بعض الحيوان لا ينام كالعصافير والتنوط ، فإنهما إذا كان الليل فإن أحدهما يتدلى من غصن الشجرة ، ويضم عليه رجليه ، وينكس رأسه ، ثم لا يزال يصيح حتى يبرق النور ، والآخر لا يزال يتنقل في زوايا بيته ، ولا يأخذه القرار خوفاً على نفسه ، فلا يزال كذلك ، وقد نتف قبل ذلك مما على ظهور الأشجار مما يشبه الليف ، فنفشه ثم فتل منه حبلاً ، ثم عمل منه كهيئة القفة ، ثم جعله مدلًّى بذلك الحبل ، وعقده بطرف غصن من تلك الأغصان ، إلا أن ذلك بترصيع ونسج ومداخلة عجيبة ، ثم يتخذ عشه فيه ، ويأوي إليه مخافة على نفسه » .

ومن هذه المعاينات ما حكاه في بعض كلامه على غمس خراطيم الذباب في جوف لحوم الدواب وخرق جلودها الغلاظ ، قال[٣] :

---

(١) كتاب الحيوان — الجزء الأول ص ٥٢ .
(٢) كتاب الحيوان — الجزء الثالث ص ١٢٥ .
(٣) كتاب الحيوان — الجزء الثالث ص ١١٠ .

« وربما رأيت الحمار ، وكأنه مُمَغَّر أو معصفر ، وإنهم مع ذلك ليجللون حمرهم ويبرقعونها ، وما يدعون موضعاً إلا ستروه بجهدهم ، فربما رأيت الحمير وعليها الرجال ، بأيديهم المناخس والمذابّ ، وقد ضربت بأنفسها الأرض ، واستسلمت للموت ، وربما رأيت صاحب الحمير إذا كان أجيراً يضربها بالعصا بكل جهده ، فلا تنبعث ، وليس لجلد البقرة والحمار والبعير عنده خطر ، ولقد رأيت ذباباً سقط على سالفة حمار كان تحتي ، فضرب بأذنيه ، وحك رأسه بكل جهة [و] أنا أتأمله ، وما يقلع عنه ، فعمدت بالسوط لأنحيه به فنزا عنه ، ورأيت مع نزوه عنه الدم ، وقد انفجر كأنه كان يشرب الدم ، وقد سدّ المخرج بفيه ، فلما نحاه طلع » .

ولقد كان يراقب السنانير في داره نفسها ، فيشهد مقاتلتها للجرذان فقد قال[1] :

« وأنا رأيت سنوراً عندنا ساور جرذاً في بيت الحطب ، فأفلت الجرذ منه ، وقد فقأ عين السنور » .

(١) كتاب الحيوان — الجزء الخامس ص ٧٧ .

(٢)

معرفة السماع

و إلى جنب هذا المذهب الذي كان يذهبه في التحقيق ، أي مذهب الاستعانة بالتجربة والعيان ، مذهب آخر وهو معرفة السماع ، وقد أشار إليه في مقدمة كتاب الحيوان لما قال : فقد أخذ ، أي كتاب الحيوان ، من طرف الفلسفة ، وجمع معرفة السماع وعلم التجربة ، وهذه الطريقة . أي طريقة التحقيق بالسماع ، قد يلجأ إليها أكابر العلماء في عصرنا أمثال « سبنسر » فقد وجدت أنه في كلامه على تأثير الحيوان في العمران كان يروي كلام أحد التجار على النمل ، فقد كان الجاحظ يعتمد في تحقيقه في بعض الأحوال على ما يسمعه من أقاويل متعلقها الحيوان ، فكان يسمع أخبار العطارين والجزارين والبحريين والسماكين والصيادين والملاحين والحوائيين والأطباء والأكرة وغيرهم من أصدقائه ، وأهل المعرفة والعلم ، وقد تدخل هذه الأخبار في أبواب شتى من أبواب الحيوان ، مثل تقطيع أصوات بعض الطير ، أو اقتتال العقارب والفأر ، أو طعم العقارب ، أو طعم الحيات ، أو سم الأفاعي ، أو أخلاق بعض الكلاب ، أو بيوت الزنابير ، أو ختل الأسد لفريسته ، أو زواج الشفنين ، أو تسافد الذئب والذئبة ، أو بعض أخبار الفيل أو أخبار السمك .

ولكن كيف كان الجاحظ ينظر في هذه الأخبار ، أفكان يلتقطها التقاطاً ليس فيه شيء من التمحيص ، أفكان يجمع هذه الأخبار دون أن يعرضها على تمييزه ، أو يعمل فكرته فيها ، وهو المتوثق في تحقيقه ، المتثبت في تدقيقه ، الذي لا تشفيه إلا المعاينة ، والذي لا يصدق إلا ما تثبته الأدلة ، ويخرجه البرهان من باب الإنكار ؟ أم كان الجاحظ يعمل الروية في الذي يتصل به من الأخبار ، فلا ينقل إلا عن

رجل لا يرتاب بخبره[١] ، أو عن رجل قاطع الشهادة[٢] ، أو عن أمثال هذه الطبقة من الرجال ممن يصدق أخبارهم[٣] ، أو عن أستاذ من الأساتيذ ، أو عن رجل يثق بعقله و يسكن إلى خبره[٤] ؟

أو كان ينقل عن جماعة إذا خالجه الشك في أخبارهم نبه عن غرابة أقوالهم ، وغثاثة عباراتهم ، وسماجة مخارج هذه الأقوال والعبارات ، حتى يجعل القارىء على هدى من أمره ؟

لقد وقفنا على نماذج مختلفة من الأخبار التي كان ينقلها ، فمرة كان يسمع ، من هذه الأخبار ما لا يهتدي إلى الإحاطة بأسراره ، فيسأل عن هـذه الأسرار أهل المعرفة حتى ينكشف له الأمر ، من هذا النوع ما حكاه لنا لما قال[٥] :

« وقال ابن الكلبي ، قال الشرقي بن القطامي ذات يوم : أرأيتم لو فكر رجل منكم عمره الأطول في أن يتعرف الشيء الذي تتخذ الزنابير بيوتها المخرَّقة بمثل المجاوب المستوية في الأقدار ، المتحاجزة بالحيطان ، السخيفة في المنظر ، الخفيفة في المحمل ، المستديرة ، المضمر بعضها ببعض ، المتقاربة الأجزاء ، وهي البيوت التي تعلم أنها بنيت من جوهر واحد وكأنها من ورق أطباق صغار الكاغد المزرَّرة ، قولوا لي : كيف جمعته ، ومن أي شيء أخذته ، وهو لا يشبه البناء ، ولا النسج ، ولا الخياطة ؟ ولم يفسر ابن الكلبي والشرقي في ذلك شيئاً ، فلم يصر في أيدينا منها إلا التعجب والتعجيب ، فسألت بعد ذلك مشايخ الأكرة فزعموا أنها تلتقطه من زبد المُدود فلا يدري أمن نفس الزبد تأخذ ، أم من شيء يكون في الزبد ، والذي عرّف الزنابير مواضع تلك الأجزاء ، ودلها على ذلك الجوهر هو الذي علم العنكبوت ذلك النسج » .

---

(١) كتاب الحيوان — الجزء الخامس ص ٢٥ .
(٢) كتاب الحيوان — الجزء الخامس ص ٧٠ .
(٣) كتاب الحيوان — الجزء الثالث ص ١٦٢ .
(٤) كتاب الحيوان — الجزء السابع ص ٤٢ .
(٥) كتاب الحيوان — الجزء السابع ص ١٢ .

فلما رأى الجاحظ أن ابن الكلبي والشرقي لم يفسرا له كيف جمعت الزنابير بيوتها ومن أي شيء أخذتها ، لم يطمئن فكره ، ولم يهدأ باله ، فقصد إلى مشايخ الأكرة وسألهم عن ذلك ، وهذه صفة من صفاته الغالبة ، فإنه مجبول على محبة الوصول إلى الحقائق ، يسأل عنها أيا كان ممن له اتصال بها .

ومن هذا النوع قوله في طعم الحيات وقد سأل عنه بعض الحوائين ، فقد قال[1] :

« وسألت بعض الحوائين ممن يأكل الأفاعي حيّة ونيّة فما دونها ، فقلت : مابال الحيات منتنة الجلود والجروم ، قال : أما الأفاعي فإنها ليست منتنة ، لأنها لا تأكل الفأرة فأما الحيات عامةً فإنها تطلب الفأر طلباً شديداً ، وربما رأيت الحية وما يكون غلظها إلا مثل غلظ إبهام الكبير ، ثم أجدها قد ابتلعت الجرذ أغلظ من الذراع ، فأنكر نتن الحيات إلا من هـذا الوجه ، ولم أر الذي قال قولاً . ودخل أعرابي بعض الأمصار فلقي من الجرذان جهداً ، فوجد بها ودعا عليها فقال : الأبيات . . . »

ومرة كان يسمع الخبر فيثبته دون إبداء رأي فيه ، كقوله في سم الأفاعي[2] :

« ومن عجيب سم الأفاعى ما أخبرني بعض من يَخْبُر شأنَ الأفاعي، قال: كنت بالبادية، ورأيت ناقة [ترتع] وفصيلها يرتضع من أخلافها، إذ نهشت الناقة على مشافرها أفعى ، فبقيت واقفة سادرة ، والفصيل يرتضع ، فبينا هو يرتضع إذ خرّ ميتاً ، فكان موته قبل موت أمه من العجيب ، وكان مرور السم في تلك الساعة القصيرة أعجب ، وكان ما صار من فضول سمها في لبن الضرع حتى قتل الفصيل قبل أمه عجبا آخر » .

أو قوله في بعض أخبار الفيل[3] :

« وحدثني صديق لى قال : رأيت الفياالين على ظهر فيل من هذه الفيلة ، وأقبل صبي يريد السندي الراكب ، فكلم الفيل بالهندية ، فوقف ، ثم كلمه ، فمد يده رافعاً

---

(١) كتاب الحيوان — الجزء الخامس ص ٨٠ .

(٢) كتاب الحيوان — الجزء الخامس ص ١١١

(٣) كتاب الحيوان — الجزء السابع ص ٧٠ .

في الهواء حتى ركبها الغلام ، ثم رفع يده حتى مد السندي يده ، فأخذ بيد الصبي » .

أو قوله في أخبار تسافد الذئب والذئبة :[١]

« وحدثني أحمد بن المثنى قال : خرجت إلى صحراء خوخ لجناية جنيتها ، وخفت الطلب وأنا شاب ، إذ عرض لي ذئب ، فكنت كلما درت من شق استدار بي ، فإذا درت له دار من خلفي ، وأنا وسط برية لا أجد معيناً إلا بشيء أسند إليه ظهري ، وأصابني الدوار وأيقنت بالهلكة ، فبينا أنا كذلك وقد أصابني ما أصابني ، وذلك هو الذي أراده الذئب وقدره ، إذا ذئبة قد عرضت ، وكان من الصنع وتأخير الأجل أن ذلك كان في زمن اهتياجها وتسافدها ، فلما عاينها تركني وقصد نحوها ، فما تلعثم أن ركبها . وقد كنت قرأت في بعض الكتب أنها تلتحم ، ففوّقت سهمي وهما ينظران إلي ، فلما لم أر عندهما نكيراً حقق ذلك عندي ما كان في الكتاب من تلاحمهما ، فمشيت إليهما بسيفي حتى قتلتهما » .

أو قوله في بعض أخلاق الكلاب وعاداتها :[٢]

« وحدثني صديق لى قال : كان عندنا جرو كلب ، وكان عندنا خادم لهجاً بتقريبه مولعاً بالإحسان إليه ، كثير المعاينة له ، فغاب عنّا إلى البصرة أشهراً ، فقلت لبعض من عندي : أتظنون أن فلاناً ، يعني الكلب ، يثبت اليوم صورة فلان ، يعني خادمه الغائب ، وقد فارقه وهو جرو ، وقد صار كلباً يشغر ببوله ؟ قالوا : ما نشك أنه نسي صورته ، وجميع بر كان يبره ، قال : فبينا أنا جالس في الدار إذ سمعت من قبل باب الدار نباحه ، فلم أر شكل نُباحه من التأنب والتغثيث والتوعد ، ورأيت فيه بصبصة السرور وحنين الإلف ثم لم ألبث أن رأيت الخادم طالعاً علينا ، و إن الكلب ليلتفّ على ساقيه ، و يرتفع إلى نحديه ، و ينظر في وجهه ، و يصيح صياحاً يستبين فيه الفرح ، ولقد بلغ من إفراط سروره أني ظننت أنه عرِض ، ثم كان بعد ذلك يغيب الشهرين

---

(١) كتاب الحيوان — الجزء الثاني ص ٧٨ .

(٢) كتاب الحيوان — الجزء الثاني ص ٤٥ .

والثلاثة ، ويمضي إلى بغداد ، ثم يرجع إلى العسكر بعد أيام ، فأعرف بذلك الضرب من البصبصة ، وبذلك النوع من النباح ، أن الخادم قدم ، وحتى قلت لبعضهم عندي ينبغي أن يكون فلان قد قدم ، وهو داخل عليكم مع الكلب ، وزعم لي أنه ربما ألقى لهذا الجرو إلى أن صار كلباً تامًّا بعض الطعام ، فيأكل منه ما أكل ، ثم يمضي بالباقي ليخبأه ، وربما ألقى اليه الشيء وهو شبعان ، فيحمله حتى يأتي به بعض المخابئ فيضعه هناك ، حتى إذا جاع رجع إليه ، فأكله ، وزعم لي غلماني وغيرهم من أهل الدرب أنه كان ينبح على كل راكب يدخل الدرب إلى عراقيب برذونه ، سائساً كان أو صاحب دابة ، إلا أنه كان إذا رأى محمد بن عبد الملك داخلاً إلى باب الدرب أو خارجاً منه ، لم ينبح البتة ، لا عليه ولا على دابته ، بل كان لا يقف له على الباب ، ولا على الطريق ، ولكنه يدخل الدهليز سريعاً ، فسألت عن ذلك ، فبلغني أنه كان إذا أقبل صاح به الخادم وهَوّله بالضرب ، فيدخل الدهليز ، وأنه ما فعل ذلك به إلا ثلاث مرات ، حتى صار إذا رأى محمد بن عبدالملك دخل الدهليز من تلقاء نفسه ، فإذا جاوز وثب على عراقيب دواب الشاكرية ، ورأيت هذا الخبر عندهم مشهور ، قال : وكنا إذا تغذينا دنا من الخوان ، فرجمناه مرة أو مرتين ، فكان لا يقرب بنا لمكان الرجم ، ولا يبعد عن الخوان لعلة الطمع ، فإن ألقينا إليه شيئاً أكله ثم ودنا من أجل ذلك بعض الدنو ، فكنا نستظهر عليه ، فنرمي باللقمة فوق مربضه بأذرع ، فإذا أكلها ازداد في الطمع ، فقرب به ذلك من الخوان ، ثم يجوز موضعه الذي كان فيه ، لولا ما كنا نقصد اليه من امتحان ما عنده ليصير ما يظهر لنا حديثاً ، لكان إطعام الكلب والسنور من الخوان خطأ من وجوه » .

أو قوله في السنانير :(١)

« وزعم بعض الأطباء أن السنور إنما يدفن خرأه ، ثم يعود إلى موضعه فيشتمه ، فإن كان يجد من ريحه بعد شيئاً زاد عليه من التراب ، لأن الفارة لطيفة الحس جيدة

---

(١) كتاب الحيوان — الجزء الخامس ص ٧٨ .

الشم ، فإن وجدت تلك الريح ، عرفتها ، فأمعنت في الهرب ، فلذلك يصنع السنور ما يصنع » .

أو قوله في طعم العقارب :[١]

« وقد زعم ناس ممن يأكلون العقارب مشوية ونية أنها كالفراخ السمان » .

وحيناً كان يسمع الأخبار فيرتاب بها ارتيابا شديداً ، وخاصة أخبار البحريين ، فما كان يغفل عن التنديد بهم في كل فرصة يصيبها .

من هذا النحو قوله في بعض كلامه على السمك :[٢]

« ولم نجعل لما يسكن الملح والعذوبة والأنهار والأدوية والمناقع والمياه الجارية من السمك ، ومما يخالف السمك مما يعيش مع السمك ، باباً مجرداً ، لأني لم أجد في أكثره شعراً يجمع الشاهد ، ويوثق منه بحسن الوصف ، وينشط بما فيه من غير ذلك للقراءة ، ولم يكن الشاهد عليه إلا أخبار البحريين ، وهم قوم لايعدون القول في باب الفعل ، وكلما كان الخبر أغرب ، كانوا به أشد عجباً ، مع عبارة غثة ، ومخارج سمجة ، وفيه عيب آخر وهو أن معه من الطول والكثرة مالا تحتملونه ولو غنًّا كم بجميعه مخارق ، وضرب عليه زلزل ، وزمر عليه برصوما ، فلذلك لم أتعرض له » .

أو قوله في موطن آخر[٣] :

« وقد روى لنا غير واحد من أصحاب الأخبار أن إياس بن معاوية زعم أن الشبُّوط كالبغل ، وأن أمها بُنِّيَّة ، وأباها زَجْرٌ ، وأن من الدليل على ذلك أن الناس لم يجدوا فى بطن شبوطة قط بيضاً . وأنا أخبرك أني قد وجدته فيه مراراً ، ولكني وجدته أصغر جثة ، وأبعد من الطيب ، ولم أجده عامًّا كما أجده في بطون جميع السمك ، فهذا قول أبي وائلة إياس بن معاوية المزني الفقيه القاضي ، وصاحب الأزكان

(١) كتاب الحيوان — الجزء الرابع ص ١٥ .
(٢) كتاب الحيوان — الجزء السادس ص ٦ .
(٣) كتاب الحيوان — الجزء السادس ص ٦ .

وأفوق من كُرْز بن علقمة ، وداهية مضر في زمانه ، ومفخر من مفاخر العرب ، فكيف أسكن بعد هذا إلى أخبار البحريين ، وأحاديث السماكين ، وإلى ما في كتاب رجل لعله أن لو وجد هـذا المترجم أن يقيمه على المصطبة ويبرأ إلى الناس من كذبه عليه ، ومن إفساد معانيه بسوء ترجمته » .

وإذا كانت أخبار البحريين مما يتقبله بعض الناس وهو لم يوقن به كل الإيقان نبه عليه كقوله[1] :

« وسمعت حديثاً من شيوخ ملاحي الموصل ، وأنا هائب له ، ورأيت الحديث يدور بينهم ، ويتقبله جميعهم ، وزعموا أن الأسد ربما جلل قلس السفينة ، فيتشبث به ليلاً ، والملاحون يمدون السفينة ، فلا يشكون أن القلس قد التف على صخرة ، أو تعلق بجذم شجرة ، ومن عادتهم أن يبعثوا الأول من المدادين ليحله ، فإذا رجع إليه الملاح ليمده تمدد الأسد بالأرض ، ولزق بها ، وغمض عينيه كيلا يبصر و بيصهما بالليل ، فإذا قرب منه وثب عليه فخطفه ، فلا يكون للملاحين هم إلا إلقاء أنفسهم في الماء ، وعبورهم إليه ، وربما أكله إلا ما بقي منه ، وربما جر فريسته إلى عريسه وعرينه ، وإلى أجرائه وأشباله ، وإن ذلك على أميال » .

أو إذا كان البحري مقتصداً في القول ، سديد الرأي ، قليل الكلفة ، أخذ عنه الخبر وأشار إلى صفاته حتى ينفي الشبهة عنه ، كما قال في بعض المواطن[2] :

« وأخبرني رجل من البحريين لم أر فيهم أقصد ولا أسد ولا أقل تكلفاً منه ، قال : لم أجدهم يشكون أن فيلاً ضرب فيلاً فأوجعه ، فألح عليه ، وأنهم عند ذلك نهوه وخوفوه وقالوا : لا تنم حيث ينالك ، فإنه من الحيوان الذي يحقد و يطالب ، ولما أراد ذلك السائس القائلة شده إلى أصل شجرة ، وأحكم وثاقه ، ثم تنحى عنه بمقدار ذراع ونام ، ولذلك السائس جمة قال : فتناول الفيل بخرطومه غصناً كان مطروحاً ،

---

(١) كتاب الحيوان — الجزء الثاني ص ٤٥ .
(٢) كتاب الحيوان — الجزء السابع ص ٧١ .

فوطئ على طرفه حتى تشعث ، ثم أخذه بخرطومه فوضع ذلك الطرف على جمة الهندي ، ثم لواها بخرطومه ، فلما ظن أنها تشبكت به وانعقدت جذب العود جذبة فإذا الهنديّ تحت قوائمه فخبطه خبطة كانت نفسه فيها ، فإن كان الحديث حقاً في أصل مخرجه فكفاك بالفيل معرفة ومكيدة ، وإن كان باطلاً فإنهم لم ينحلوا الفيل هذه النحلة دون غيره من الدواب إلا وفيه عندهم ما يحتمل ذلك ويليق به » .

على أنه كان ينقل عن فريق منهم من غير أن يتبين في كلامه الشك ، من هذا الشكل قوله[١] :

« ويزعم البحريون أن طائرين يكونان ببلاد السُّفَالة ، أحدهما يظهر قبل قدوم السفن إليهم ، وقبل أن يمكن البحر من نفسه لخروجهم في متاجرهم ، فيقول الطائر : قرب آمد ، فيعلمون بذلك أن الوقت قد دنا ، وأن الإمكان قد قرب ، قالوا : ويجيء به طائر آخر ، وشكل آخر فيقول : سمارو ، وذلك في وقت رجوع من قد غاب منهم ، فيسمون هذين الجنسين من الطير : قرب ، وسمارو ، كأنهم سموهما بقولهما ، وتقطيع أصواتهما ، كما سمت العرب ضرباً من الطير القطا ، لأن القطا كذلك تصيح ، وتقطع أصواتها : قطا ، وكما سموا الببغا بتقطيع الصوت الذي ظهر منه ، فيزعم أهل البحر أن ذينك الطائرين لا يطير أحدهما أبداً إلا في إناث ، وأن الآخر لا يطير أبداً إلا في ذكورة » .

وربما نقل عن بعضهم كلاماً جعله حجة يحاجّ بها أرسطاطاليس في بعض رده عليه ، فإنه لما قال[٢] :

« وقد قلت لرجل من البحريين ، زعم أرسطاطاليس أن السمكة لا تبتلع الطعم أبداً إلا ومعه شيء من ماء ، مع سعة المدخل ، وشره النفس ، فكان من جوابه أن قال لي : ما يعلم هـذا إلا من كان سمكة ، أو أخبرته به سمكة ، أو حدَّثه بذلك الحواريون

---

(١) كتاب الحيوان — الجزء الثالث ص ١٦٢ .

(٢) كتاب الحيوان — الجزء السادس ص ٦ .

أصحاب عيسى ، فإنهم كانوا صيَّادين ، وكانوا تلامذة المسيح ، وهذا البحري صاحب كلام ، وهو يتكلف معرفة العلل ، وهذا كله جوابه ، ولكني لن أدَعَ ذكر بعض ما وجدته في الأشعار والأخبار أو كان مشهوراً عند من ينزل الأسياف وشطوط الأودية والأنهار ، ويعرفه السماكون ، ويقرّ به الأطباء بقدر ما أمكن من القول » .

جعل قول البحري حجة له في ردّه على أسطاطاليس [١] :

« وأما قول صاحب المنطق في أن الضفادع لا تنقّ حتى تدخل فكها الأسفل في الماء لأن الصوت لا يجيئها حتى يكون في فكّها ماء ، فقد قال ذلك ووافقه عليه ناس من العلماء وادعوا في ذلك العيان ، فأما زعمه أن السمكة لا تبتلع شيئاً من الطعم إلا ببعض الماء فأي عيان دلّ على هذا ، وهذا عسر » .

والخلاصة أنه كان ينقل عن ثقة ، وهذا الثقة قد يكون أستاذاً كما في قوله [٢] :

« ودخلت أنا مرة وحمدان [بن] الصباح على عبيد [بن] الشونيزي ، فإذا عنده برنية زجاج فيها عشرون عقرباً ، وعشرون فأراً ، فإذا هي تقتتل ، فخيل لي أن تلك الفأر قد اعتراها ورم من شدة وقد اللسع ، ورأيت العقارب قد كلت عنها وتاركتْها ، ولم أر إلا هذا المقدار الذي وصفت ، وحدثنا عنها عبيد بأعاجيب ، ولو كان عبيد أستاذاً لخبّرت عنه ، ولكن موضع البياض من هذا الكتاب خير من جميع ما كان لعبيد » .

هذه جملة القول في معرفة سماعه ، ومنها يتبين لنا أن الجاحظ لم يخلُ من التوثق في تسقط أخباره ، فإذا وجد مجال الشك ذا سعة عمد إلى الشك ، لأن الرجل الذي يقول في كلامه على الأخبار ، وعلى المولعين بها [٣] :

« إن الناس موكلون بحكاية كل عجيب ، وميسرون للإخبار عن كل عظيم ، وليسوا للحسن أحكى منهم للقبيح ، ولا لما ينفع أحكى منهم لما يضر ، وعلى قدر كبر الشيء تكون حكايتهم له واستماعهم » .

---

(١) كتاب الحيوان — الجزء الخامس ص ١٥٦ . (٢) كتاب الحيوان — الجزء الخامس ص ٧٨ . (٣) رسائل الجاحظ على هامش الكامل — الجزء الثاني ص ٦٢ .

والذي يقول في موطن آخر :[١]

« إن الخبر قد يكون أصله ضعيفاً ثم يعود قويًّا، ويكون أصله قويًّا فيعود ضعيفاً ، للذي يعتريه من الأسباب ، ويحل به من الأعراض، من لدن مخرجه وفصوله إلى أن يبلغ موته ومنتهى أجله ، وغاية التدبير فيه ، والمصلحة عليه ، فلما كان هذا مخوفاً وغير مأمون على المتقادم منه ، وضع الله تعالى لنا على رأس كل فترة علامة ، وعلى غاية كل مدة أمارة ، ليعيد قوة الخبر ، ويجدد ما قد همَّ بالدروس من أنباء المرسلين عليهم الصلاة والسلام أجمعين . »

إن الذي يقول هذا القول وأضرابه لعارف بما يدخل الأخبار عادةً من نقص الناقصين ، أو زيادة الزائدين ، على حسب الأهواء ، أو على قدر متانة الحفظ وضعفه ، أو على قياس الفتنة بالحقيقة والولع بالخيال ، فلهذا لم يجد الجاحظ له بدًّا من التثبت في تصديق بعض الأخبار ، ومن الشك في طائفة منها .

(١) رسائل الجاحظ على هامش الكامل — الجزء الثاني ص ٥٦ .

(٣)

استعانته بالعقل — نقده العلمي

تجربة وعيان وسماع ، هذه أصول الجاحظ في تحقيق الأخبار ، وأريد بالأخبار في هذا المقام أخبار العلم، وخاصة علم الحيوان ، فقد استكمل الجاحظ كثيراً من صفات العالم ، جرَّب وعاين وسمع . ولهذه الأصول شأن عظيم في علوم الطبيعة ، وبلغ من هذا الشأن أنهم عابوا بعض علماء الطبيعة بزهدهم في التجربة والعيان ، فعابوا مثلاً العالم (بوفون) ببعض كتبه في نشوء الأرض ، وفي أدوار الطبيعة فقالوا فيه : وصف كثيراً وعاين قليلاً[1] .

فالجاحظ لم يفته فضل العيان والتجربة، وإن فاته في بعض الأحوال روح الترتيب في الذي عاينه ، أو جرَّب فيه ، أو فاته خيالُ العالم ، وأعني بهذا الخيال قدرة العالم على التعميم ، وعلى الحزر والحدس لاستنباط القوانين العامة ، أو فاته التمكن من إنشاء المقاييس العلمية ، فقد نجد كثيراً من معارفه مبعثرة لا يجمعها نظام واحد .

وكما جرَّب وعاين فقد سمع ، وكان في معرفة السماع شديد التثبت والتوثق .

ولقد ضمَّ إلى هذه المذاهب كلها ، إلى التجربة والعيان والسماع ، مذهباً آخر وهو العقل ، فقد جعل العقل دليله في مجامع أموره ، فما كان يصدّق إلا ما تثبته الأدلة ، ويحققه الامتحان ، فالعقل في نظره إنما هو الحجة في حكم الامور .

فلننظر في فصلنا هذا في طائفة من خصائص عقله قد نهتدي إليها في أبواب كثيرة من أبواب الحيوان ، كالكلام على بعض عجائب الحيوان ، أو على طول عمر البغل ، وأعمار ذكورة العصافير ، أو على ابتلاع السمكة للطعم ، أو على وضع النمرة ولدها وهو متطوق بأفعى ، أو على إلقاح الثور ، أو على الضفادع ، أو على الخلق المركب ، أو على

---

(١) أدب القرن الثامن عشر « أميل فاكه ص ٤٣١ » .

الأفاعي أو على ولد الكركدن ، أو على خلق السنانير والخنازير ، أو على تعاون الذر ، أو على غير ذلك من الأمور التي قد يطول استقصاؤها .

فإذا أردنا أن نعرف خصائص هذا العقل في التحقيق ، لزمنا أن ننظر إلى بعض مواطن من المواطن التي يظهر فيها تصرف العقل ومقدار نفاذه ، وأظن أننا إذا بحثنا عن أشياء يسيرة من طبيعة نقده العلمي ، أو من طبيعة شكه في أمور العلم ، أو من طبيعة تنقيبه عن علة هذه الأمور، استطعنا أن نحيط بناحية من نواحي عقله .

أما طبيعة نقد الجاحظ في أبواب العلم فالذي يعنينا من أمرها إنما هو الوقوف على الأمور التي وطّن نفسه على إبطالها وردّها ، والوقوف على الأمور التي كان يعيب بها عالماً من العلماء ، فهل كان يقرع الحجة بأشباهها ، أم كان يرد قولاً من الأقوال مقتصراً على مجرّد الرد ؟ وهل كان يجسر نقد العلماء دون التقيد بشيء ، ومن هم العلماء الذين نقدهم ؟

وأما طبيعة الشك فالذي يهمنا من شأنها أن نعرف أيميل الجاحظ إلى الشك ؟ أيشك في الأمور وصولاً إلى اليقين ؟ أم يشك فيها للشك وحده ؟ و إذا شك في أمر فهل يبيّن الأسباب التي من أجلها يبطل هذا الأمر في نظره ، أم أنه يشك في هذا الأمر دون بيان شيء من هذه الأسباب ؟

وأما طبيعة تنقيبه عن علة من العلل فالذي يشغلنا منها إنما هو مقدار تصرف عقله في هذا التنقيب ، ومبلغ نفاذ هذا العقل .

فلنتفرغ قبل كل شيء للكلام على نقده العلمي، ما الذي كان يشغل بال الجاحظ في هذا النقد، هل كان يجسر على التكذيب في كل حين ، من هم العلماء الذين نقدهم ؟

همُّ الجاحظ الابعدُ عرض الأمور على التصحيح والتميز ، فقد كان مولعاً بالتنبيه على الخرافات سواء أكانت هذه الخراقات في أبواب العلم ، أم كانت في أبواب الدين ، فهو كثير التنديد بغث الأمور وممتنعها ، فإذا أصاب فرصة في التحذير من توليد الكذابين ومن غرائب الأخبار حذّر بقدر ما أُوتيه من حكمة و بيان ،

فإن الذي لا يصدق إلا ما تثبته الأدلة و يحققه العيان والتجربة والسماع ، قد يصعب عليه أن يجعل مجال الخرافات ذا سعة فمن قوله في هذا المعنى :[١]

« وقد ابتلينا بضربين من الناس ، ودعواهما كبيرة ، أحدهما يبلغ من حبه للغريب أن يجعل سمعه هدفاً لتوليد الكذابين ، وقلبه قراراً لغرائب الزور ، ولكلفه بالغريب وشغفه بالطُرَف لا يقف على التصحيح والتمييز ، فهو يدخل الغث في السمين ، والممكن في الممتنع ، و يتعلق بأدنى سبب ، ثم يدفع عنه كل الدفع ، والصنف الآخر ، وهو أن بعضهم يرى أن ذلك لا يكون منه عند من يسمعه يتكلم إلا من خاف التقزُّزَ من الكذب . . . »

فالجاحظ كما يتبين من هذا الكلام يكره غرائب الأخبار مما لا يحققه العقل ، ومن هذه الغرائب التي تجرّد لردها والتحذير منها ، كلامهم على بعض الخلق المركب فقد قال :[٢]

« وقالوا في الخلق المركب ضروباً من الحق والباطل ، ومن الصدق والكذب ... وزعم حريث أنه كان بأيْدجَ فإذا سحابة [دهماء] طَخْياء تكاد تمس الأرض ، وتكاد تمس قمم رؤوسهم وأنهم سمعوا فيها كأصوات المجانيق ، وكهدير الفحول في الأشوال ، ثم إنها دفعت بأشد مطر رُئي أو سمع به ، حتى استسلموا للغرق ، ثم اندفعت بالضفادع العظام ، ثم اندفعت بالشبابيط السمان الخذال ، فطبخوا واشتووا وملحوا وادخروا » .

وقال في مقام آخر شبه هذا الكلام :[٣]

« وفيها أعجوبة أُخرى ، وذلك أنا نجد من كبارها وصغارها الذي لا يحصى في غب المطر ، إذا كان المطر ديمة ، ثم نجدها في المواضع التي ليس بقربها بحر ولا نهر ولا حوض ولا غدير ولا واد ولا بئر ، ونجدها في الصحاصح الأماليس ، وفوق ظهور مساجد الجماعة ، حتى زعم كثير من المتكلفين ، ومن أهل الخسارة ، وممن لا يحتفل

---

(١) كتاب الحيوان — الجزء الرابع ص ٥٨ .
(٢) كتاب الحيوان — الجزء الأول ص ٦٨ .
(٣) كتاب الحيوان — الجزء الخامس ص ١٥٣ .

بسوء الحال عند العلماء ، ولا يكترث للشك ، أنها كانت في السحاب ، ولذلك طمع بعض الكذابين ممن نكره اسمه ، فذكر أن أهل أيْذج مطروا [مرةً] أكبر شبابيط في الأرض وأسمنها [وأعذبها] وأعظمها ، [وأنهم اشتووا وملّحوا وقرّسُوا وتزوّد منه مسافرهم] وإنما تلك الضفادع شيء يخلق في تلك الحال بمزاوجة الزمان ، وتلك المطرة ، وتلك الأرض وذلك الهواء . والضفادع من الخلق الذي لا عظام له ، ويزعم أصحاب الغرائب أن العلاجيم منها الذكورة السود ، ويقال : أرسَح من ضفدع ، وتزعم الأعراب أن الضفدع كان ذا ذنب وأن الضب سلبه إياه ، وذلك في خرافة من خرافات الأعراب ، [ويقول آخرون : إن الضفدع إذا كان صغيراً كان ذا ذَنَب ، فإذا خرجتْ له يدانِ أو رجلانِ سقط . وتقول العرب] : لا يكون ذلك حتى يجمع بين الأروى والنعام ، وحتى يجمع بين الماء والنار ، وحتى يشيب الغراب ، وحتى يبْيضّ القارُ ، وحتى تقع السماء على الأرض » .

يستخرج مما تقدم أن الذي يشغل بال الجاحظ إنما هو التنبيه على الكذابين وعلى غرائب الأخبار ، إلا أنه لا يكلف نفسه في بعض هذا التنبيه المجيء بالبرهان ، وكأنما رأى أن تكذيب هذه الأعاجيب إنما هو معلوم في بدائه العقول ، فلا يحتاج إلى شيء من البراهين على أن اندفاع السحابة بالضفادع أو بالسمك بعد زوبعة من الزوابع ليس فيه شيء من الاستغراب . وإنما الجاحظ لم ير هذا كله بعينيه .

وقد يظهر لنا أن حرية النقد كانت ضيقة المذاهب في بعض الأحايين ، فكان الجاحظ يشير إلى الأجناس العجيبة من الأقوال ، دون أن يجسر في كتبه على تكذيب العلماء ودراس الكتب ، أو على تسميتهم ، من هذا النحو قوله :(١)

« والعوام تضرب المثل في الشدة والقوة بالكركدن ، وتزعم أنه ربما نطح الفيل فرفعه بقرنه الواتدِ في وسط جبهته ، فلا يشعر بمكانه ، ولا يحس به حتى ينقطع على الأيام ، وهذا القول بالخرافة أشبه ، وأعجب من القول في ولد الكركدن ، ما يخبرنا به ناس من أهل النظر والأدب وقراءة الكتب ، وذلك أنهم يزعمون أن النمرة لا تضع ولدها أبداً إلا وهو متطوق بأفعى ، وأنها تعيش وتنهش ، إلا أنها

(١) كتاب الحيوان — الجزء السابع ص ٤٢ .

لا تقتل ، ولو كنت أجسر في كتبي على تكذيب العلماء ودرّاسي الكتب لبدأت بصاحب هذا الخبر ، وليس هذا عندي كزعمهم أن الأفعى تلد وتبيض ، لأن تأويل [ذلك أن] الأفعى تتمضّل ببيضها ، فإذا طرّقت بالبيض تلوّت ، فحطمته في جوفها ، ثم ترمي بتلك القشور والخراشي أولاً فأولاً ، كما لا بد لكل ذات حمل أن تلقي مشيمتها » .

أو قوله في موطن آخر في خرافة من الخرافات ، وهو لم يسم صاحب هذه الخرافات (١)

« ومما أكتب لك من الأخبار العجيبة التي لا يجسر عليها إلا كل وقاح أخبار بعض العلماء ، وبعض من يؤلف الكتب ، ويقرؤها ويدارس أهل العبر ويتحفظها ، زعموا أن الضبع يكون عاماً ذكراً وعاماً أنثى ، وسمعت هذا من جماعة منهم من لا أستجيز تسميته ، قال الفضل بن إسحق : أنا رأيت العفص والبلوط في غصن واحد ، قال : ومن العفص ما يكون مثل الأُكَر ، وقد خبرني بذلك غيره ، وهو يشبه تحول الأنثى ذكراً ، والذكر أنثى ! وقد ذكرت العرب فى أشعارها الضباع والذئاب والسبع والعسبار وجميع الوحوش والحشرات والأحناش ، وهم أخبر الخلق بشأن الضبع ، فكيف تركت ما هو أعجب وأطرف ، وقد ذكرت العلماء الضباع في مواضع من الفتيا لم نر أحداً ذكر ذلك ، وأولئك بأعيانهم هم الذين زعموا أن النمر تضع في مشيمة واحدة جرواً وفي عنقه أفعى قد تطوقت به ، وإذا لم يأتنا في تحقيق الأخبار شعر شائع ، أو خبر مستفيض ، لم نلتفت لفته » .

على أنه قد تعرض لجماعة ، فسماهم وجسر على تكذيبهم ، فقد قال : (٢)

« ورووا عن أبي واثلة أنه زعم أن من الدليل على أن الشبوط كالبغل أن الناس لم يجدوا في طول ما أكلوا الشبابيط في جوفها بيضاً قط ، فإن كان هذا الخبر عن هذا الرجل المذكور بشدة العقل ، المنعوت بثقوب الفراسة ، ودقة الفطنة ، صحيحاً ، فما أعظم المصيبة علينا فيه ، وما أخلق الخبر أن يكون صحيحاً ، وذلك أني سمعت له كلاماً كثيراً من تصنيف الحيوان وأقسام الأجناس ، يدل على

---

(١) كتاب الحيوان — الجزء السابع ص ٤٩

(٢) كتاب الحيوان — الجزء الأول ص ٦٨ .

أن الرجل حين أحسن في أشياء وهَمّه العجب بنفسه أنه لا يروم شيئاً فيمتنع عليه ، وغرّه من نفسه الذي غرّ الخليل بن أحمد حين أحسن في النحو والعروض ، فظن أنه يحسن الكلام وتأليف اللحون ، فكتب فيهما كتابين لا يشير بهما ولا يدل عليهما إلا المرة المحترقة ، ولا يؤدي إلى مثل ذلك إلا خذلان من الله تعالى ، فإن الله عز وجل لا يعجزه شيء » .

إلا أن الذي تعرض له كثيراً في كتابه إنما هو أرسطاطاليس ، فقد عاب عليه أموراً كثيرةً ، منها أنه لم يَبْن في تحقيقه على الأصول التي بنى عليها الجاحظ نفسه ، أي لم يثبت أموره بالعيان أو بمعرفة السماع ، من هذا النحو قوله :(١)

« وزعم صاحب المنطق في كتاب الحيوان أن ثوراً فيما سلف من الدهر ، سفد وألقحَ من ساعته بعد أن خصي ، فإذا أفرط المديحُ وخرج من المقدار ، أو أفرط التعجيبُ وخرج من المقدار ، احتاج صاحبه إلى أن يثبته بالعيان ، أو بالخبر الذي لم يكذب مثله ، وإلا فقد تعرض للتكذيب ، ولو جعلوا حركتهم خبراً وحكاية ، وتبرؤوا من مينه ، ماضرهم ذلك ، فكان ذلك أصون لأقدارهم ، وأتم لمروآت كتبهم » .

أو قوله في موطن آخر :(٢)

« وفي المثل : أغلم من تيس بني حمّان ، و [بنو] حمان تزعم أنه قفط سبعين عنزاً ، وقد فريت أوداجه ، فهذا من الكذب الذي يدخل فى باب الخرافة ، وقد ذكر أرسطوطاليس في كتاب الحيوان أنه قد ظهر ثورٌ وثب بعد أن خصي .. فنزا على بقرة فأحبلها ، ولم يَحْكِ هذا عن معاينته ، والصدور تضيق بالرد على أصحاب النظر ، وتضيق بتصديق هذا الشكل » .

أو قوله :(٣)

---

(١) كتاب الحيوان — الجزء الخامس ص ٧٠ .

(٢) كتاب الحيوان — الجزء « ص ١٤٧ .

(٣) كتاب الحيوان — الجزء « ص ١٥٦ .

« وأما قول صاحب المنطق فى أن الضفادع لا تنق حتى تدخل فكها الأسفل في الماء ، لأن الصوت لا يجيئها حتى يكون في فكها ماء ، فقد قال ذلك ، و [قد] وافقه عليه ناس من العلماء ، وادعوا في ذلك العيان ، فأما زعمه أن السمكة لا تبتلع شيئاً من الطعم إلا ببعض الماء ، فأي عيان دل على هذا ، وهذا عسر » .

أو قوله :(١)

« وقد سمعنا ما قال صاحب المنطق من قبل ، وما يليق بمثله أن يخلد على نفسه فى الكتب شهادات لا يحققها الامتحان ، ولا يعرف صدقها أشباهه من العلماء ، وما عندنا في معرفة ما ادعى إلا هذا القول » .

ولم يقتصر الجاحظ على مؤاخذة أرسطاطاليس بأنه لم يعتمد فى تحقيقه على العيان والسماع والامتحان ، و إنما عاب عليه فى بعض الأحوال إنه إذا تكلم على حيوان فإنه لا يستوفي عجائب هذا الحيوان ، من هذا كلامه على الفيل:(٢)

« وما أعجب ما قرأت لصاحب الحيوان فى كتاب المنطق ، وجدته وقد ذكر [رأس الفيل و] قِصَر عنقه ولم يذكر انقلاب لسانه ، وذلك أعجب ما فيه ، ولم يذكر في كم يضع ، ولا مقدار وزن أعظم الأنياب ، وكيف يخرج من بطن أمه نابت الأسنان » .

وأحياناً كان يتعرض له ، فيقف في تعرضه موقفاً وسطاً دون دفع الخبر ، أو قبوله كقوله(٣) .

« وذكر صاحب المنطق أن الطير الكبير الذي يسمى باليونانية (اغتيوليس) يحكم عشه و يتقنه ، و يجعله مستديراً مُدَاخَلاً ، كأنه كرة معمولة ، وروى أنهم يزعمون أن هذا الطائر يجلب الدارصيني من موضعه ، فيفرش به عشه ، ولا يعشش إلا في أعالى الشجر المرتفعة المواضع ، قال وربما عمد الناس إلى سهام ، يشدون عليها رصاصاً ، ثم يرمون بها أعشتها فيسقط عليهم الدارصيني ، فيلتقطونه و يأخذونه . .

---

(١) كتاب الحيوان — الجزء الأول ص ٨٥ .

(٢) كتاب الحيوان — الجزء السابع ص ٧٠ .

(٣) كتاب الحيوان — الجزء الثالث ص ١٦٢ .

ولست أدفع خبر صاحب المنطق عن صاحب الدارصيني ، و إن كنت لا أعرف الوجه في أن طائراً ينهض من وكره في الجبال ، أو بفارس ، أو باليمن ، فيؤم و يعمد نحو بلاد الدارصيني وهو لم يجاوز موضعه ، ولا قرب منه ، وليس يخلو هذا الطائر من أن يكون من الأوابد [أو من القواطع] ، و إن كان من القواطع ، فكيف يقطع الصحصحان الأملس ، و بطون الأودية ، وأهضامَ الجبال ، بالتدويم في الأجواء ، و بالمضي على السمت ، لطلب ما لم يره ولم يشمه ولم يذقه ، وأخرى فإنه لا يجلب منه بمنقاره ورجليه ما يصير فراشاً له ومهاداً إلا بالاختلاف الطويل و [بعدُ فإنه] ليس بالواطئ الوثير ، ولا هو له بطعام ، فأنا و إن كنت لا أعرف العلة [بعينها] فلست أنكر الأمور من هذه الجهة ، فاذْكرْ هذا » .

وقد تعرض لغير أرسطاطاليس ، فتعرض لأبي زيد النحوي ، وحشره في جملة علماء السوء ، فعابهم بأنهم لم يكونوا في تحقيقهم من حذاق المتكلمين ، كقوله[1] :

« وأما الذين ذكروا في أشعارهم السِّمْع والعسبار فليس في ظاهر كلامهم دليل على ما ادعى عليهم الناس من هذا التركيب المختلف ، فأدينا الذي قالوا ، وأمسكنا عن الشهادة إذ لم نجد عليها برهاناً .

وللناس في هـذا الضرب ضروب من الدعوى ، وعلماء السوء يظهرون تجويزها وتحقيقها كالذي يدعون من أولاد السعالي من الناس ، كما ذكروا عن عمرو بن يربوع وكما يروي أبو زيد النحوي عن السعلاة التي أقامت في بني تميم حتى ولدت فيهم ، فلما رأت برقاً يلمع من شق بلاد السعالي حنت وطارت إليهم ، فقال شاعرهم :

رأى برقاً فأوضع فوق بكر فلابِكَ أسال وما أغاما

وأنشدني أن الجن طرقوا بعضهم فقال :

أتوا ناري فقلت : منون أنتم فقالوا : الجن ، قلت عموا ظلاما

فقلت : إلى الطعام ، فقال منهم زعيم : نحسد الإنس الطعاما

---

(١) كتاب الحيوان — الجزء الأول ص ٨٥ .

ولم أعب الرواية و إنما عبتُ الإيمان بها ، والتوكيد لمعانيها، فما أكثر من يروي هذا الضرب على التعجب منه ، وعلى أن يجعل الرواية [له] سبباً لتعريف الناس حق ذلك من باطله ، وأبو زيد وأشباهه مأمونون على الناس ، إلا أن كل من لم يكن متكلماً حاذقاً ، وكان عند العلماء قدوة و إماماً ، فما أقرب إفساده لهم من إفساد المتعمد لإفسادهم » .

وكان في بعض نقده يعيب طائفة من الناس بوضعهم الموجب من الأمور موضع المقرب منها ، و بإنزال الدليل منزلة شبه الدليل كقوله[١] :

« والذين زعموا أن ذكورتها لا تعيش إلا سنةً ، يحتاجون إلى أن يعرفوا الناس ذلك ، وكيف يستطيعون تعريفهم ؟ وقد تكون القرى بقرب المزارع ، والبيادر مملوءة عصافير ، ومملوءة من بيضها وفراخها ، وهم مع ذلك لم يروا عصفوراً قط ميتاً . . . والذين زعموا أن البغل إنما طال عمره لقلة السفاد ، والعصفور إنما قصر عمره لكثرة السفاد وغلمته ، لو قالوا بذلك على جهة الظن والتقريب لم يلمهم أحد من العلماء ، والأمور المقربة غير الأمور الموجبة ، فينبغي أن يعرفوا فصل ما بين الواجب والمقرّب وفرق ما بين الدليل وشِبه الدليل ، ولعل طول عمر البغل يكون للذي قالوا ولشيء آخر ، وليس ينبغي أن نجزم على هذه العلة فقط » .

هذه جملة القول في نقده ، والذي يستخلص من هذا النقد أن الجاحظ لجأ إليه للتنبيه على مواطن الزور في أبواب العلم مما لا يحققه العقل ، فكأن الجاحظ يقول : لا أصدق من الأمور إلا ما كان واضحاً ، وهذه خطة (ديكارت) نفسه كما علمنا ذلك .

ولم ينقد الجاحظ للنقد وحده ، إنه أجل من ذلك ، و إنما نقد وصولاً إلى الحقائق ، فكان مرة يدل على الخرافات ويحذر منها ، ومرة يشير إلى مزلات أقدام بعض العلماء

---

(١) كتاب الحيوان — الجزء الخامس ص ٧١ .

كما أشار إلى إعراض أرسطاطاليس عن استعمال التجربة والعيان والسماع في بعض مباحثه العلمية ، وكما عاب أبا زيد النحوي بأنه لم يكن من حذاق المتكلمين .

وقد كان في بعض نقده يستغني عن الإتيان بالبرهان ، لأن من الأمور التي نبه على بطلانها ما يقبله العقل دون برهان .

فغاية الجاحظ في نقده العلمي الوصول إلى الحقيقة ، والحقيقة ضالة العالم .

(٤)

شكه — تعليله

ومن المواطن التي يظهر فيها مقدار دقة فطنته ، وثقوب عقله ، موطن الشك ، فما ننسى قوله في صدر كلامنا على تحقيقه :

« ولا يعجبنى الإقرار بهذا الخبر ، وكذلك لا يعجبني الإنكار له ، ولكن ليكن قلبك إلى إنكاره أميل ، و بعد هذا فاعرف مواضع الشك وحالاتها الموجبة لها لتعرف بها مواضع اليقين والحالات الموجبة له » .

وهذ الشك قريب من شك (ديكارت) الذي كنت أشرت اليه ، فقد كنت ذكرت أن (ديكارت) يشك في كل شيء ، وقد تكون الحياة في نظره حلماً من الأحلام ، ولكن شكه هذا لا يشبه شك غيره من الفلاسفة ، فهو يشك في كل شيء ، فقد يفرض أن العالم لا حقيقة له على أمل أن يصل إلى حقائق يثبتها البرهان ، فالشك فى مذهبه سبيل إلى اليقين .

فإذا قابلنا بين هذين الرأيين : بين رأي الجاحظ و بين رأي (ديكارت) وجدنا فيهما بعض التقارب ، فالجاحظ يقول : اعرف مواضع الشك وحالاتها الموجبة لها لتعرف بها مواضع اليقين والحالات الموجبة له ، ومعنى هذا كله : اعرف الشك لتعرف به اليقين ، فالشك في نظره سبيل إلى اليقين ، فهولا يشك في الأمور من أجل الشك وحده ، و إنما يشك فيها حتى يصل إلى يقين قاهر ، وكذلك (ديكارت) فإنه لا يشك في الأمور من أجل الشك وحده ، و إنما يشك فيها على أمل أن يصل إلى حقائق يثبتها البرهان .

وكيف يلجأ الجاحظ إلى مجرد الشك وهو الذي يقول[1] :

---

(١) رسائل الجاحظ على هامش كامل المبرد — الجزء الثاني ص ٨٤ .

« واعلم أن من عوّد قلبه التشكك اعتراه الضعف » .

فلننظر بعد هذا في أنماط من أقاويله التي ظهرت عليها آثار الشك ، كالكلام على رؤوس الحيات ، أو كالكلام على لعاب الأفاعي ، أو كالكلام على سلامة الفراريج على الأفاعي أو كالكلام على خَلْق الفأر ، أو كالكلام على إخراج الولد رأسه من بطن أمه .

فمرة كان يشك في الأمر وينفيه لأن العلم لا يحققه ، ومرة كان يشك فيه ويبين السبب الذي من أجله استفاض هـذا الأمر ، وحيناً كان يشك فيه من دون أن يحاول نفيه بالحجة ، أو يوضح علة من علل شيوعه ، وحيناً كان يشك فيه فيحار في أمره حيرةً لا يجد لنفسه مخرجاً منها ، ثم يجد هذا المخرج فيرد الأمر لأنه لم يثبته ظاهر العيان أو متظاهر الأخبار .

فمن المواضع التي ظهر شكه فيها قوله(١) :

« وزعم بعض المفسرين أن السنور خلق من عطسة الأسد ، وأن الخنزير خلق من عطسة الفيل ، لأن أصحاب التفسير يزعمون أن أهل سفينة نوح لما تأذوا من كثرة الفأر وشكوا [إلى نوح ذلك] سأل ربه الفرج ، فأمره أن يأمر الأسد فيعطس ، فلما عطس ، خرج من منخريه زوج سنانير ، ذكر وأنثى ، خرج الذكر من المنخر الأيمن ، والأنثى من المنخر الأيسر ، فكفياهم مؤونة الجرذان ، ولما تأذوا برائحة نجوهما شكوا ذلك إلى نوح وشكا ذلك إلى ربه ، فأمره أن يأمر الفيل فيسلح ، فسلح [زوج] خنازير ، فكفياهم مؤونة رائحة النجو ، وهذا الحديث نافق عند العوام وعند بعض القصاص ، وقد أنكرنا أن يكون الفأر تخلق إلا في أرحام إناثها من أصلاب ذكورها » .

فالجاحظ ينكر خلق الفار إلا في أرحام إناثها من أصلاب ذكورها ، ويشك في ضد هذا الأمر لأن العلم لا يؤيده .

(١) كتاب الحيوان — الجزء الخامس ص ١٠٦ .

ومن هذه المواضع التى ظهرت فيها آثار الشك قوله[١] :

« وقد زعم صاحب المنطق أنه قد ظهرت حية لها رأسان ، فسألت أعرابياً عن ذلك ، فزعم أن ذلك حق ، فقلت له : فمن أين جهة الرأسين تسعى ؟ ومن أيهما تأكل وتعض ؟ فقال : فأما السعي فلا تسعى ، ولكنها تسعى إلى حاجتها بالتقلب كما يتقلب الصبيان على الرمل ، وأما الأكل فإنها تتعشى بفم ، وتتغدى بفم ، وأما العض فإنها تعض برأسيها معاً !! فإذا به أكذب البرية ، وهذه الأحاديث كلها مما يزيد في الرعب منها ، وفي تهويل أمرها ... »

فبعد أن شك الجاحظ في أن يكون للحية رأسان ، أخذ يقلب النظر في استفاضة هذا الخبر ، فوجد أن العلة في ذلك الرعب والتهويل .

ومن هذه المواضع قوله[٢] :

« وزعم أحمد بن غالب قال : باعني حوّاء ثلاثين أفعى بدينارين ، وأهدى إلي خمساً اصطادها من قبالة القلب في تلك الصحارى على شاطئ دجلة ، قال : وأردتها للترياق ، فقال لي حين جاءني بها : قل لي من يعالجها ؟ فقلت : فلان الصيدلاني ، فقال : ليس عن هذا سألتك ، قل لي : من يذبحها ويسلخها ، قال : قلت هذا الصيدلاني بعينه ، قال : أخاف أن يكون مغروراً من نفسه ، إنه والله إن أخطأ موضع المفصل من قفاها ، وحركته أسرع من البرق ، فإن كان لا يحسن ولا يدري كيف يتغفله فينقره نقرة لم يفلح بعدها أبداً ، ولكني سأتطوع لك بأن أعمل ذلك بين يديه ، قال : فبعثت إليه وكان رأسه [إلى] الجونة فيغفل الواحدة فيقبض على قفاها بأسرع من الطرف ، ثم يذبحها ، فإذا ذبحها سال من أفواهها لعاب أبيض ، فيقول : هذا هو السم الذي يقتل ، قال : فجالت يده جولة ، وقطرت من ذلك اللعاب قطرة على طرف قميص الصيدلاني ، قال : فتفشى ذلك القاطر حتى صار في قدر الدرهم العظيم ، ثم

(١) كتاب الحيوان — الجزء الرابع ص ٥٢ .
(٢) كتاب الحيوان — الجزء الرابع ص ٣٩ .

إن الحواء امتحن ذلك الموضع ، فتهافت في يده ، و بقيت الأفاعي مذبَّحة [تجول] في الطست و يكدم بعضها بعضاً ، حتى أمسينا ، قال : و بكرت على أبي رجاء إلى باب الجسر أحدثه بالحديث ، فقال لي : وددت أني رأيت موضع القطرة من قميص الصيدلاني ، قال : فوالله ما رمت حتى مرّ معي إلى الصيدلاني ، فأريته موضعه ، وأصحابنا يزعمون أن لعاب الأفاعي لا يعمل في الدم ، إلا أن أحمد بن المثنى زعم أن من الأفاعي جنساً لا يضر الفراريج من بين الأشياء ، ولا أدري أي الخبرين أبعد ، أخبر ابن غالب في تفسيخ الثوب ، أو خبر ابن المثنى في سلامة الفروج على الأفعى » .

فهنا يتبين لنا أن الجاحظ اكتفى بإنكار الخبر ، دون أن يبين سبباً من الأسباب .

ومنها قوله :[1]

« وقد زعم صاحب المنطق أن ولد الفيل يخرج من بطن أمه نابت الأسنان لطول لبثه في بطنها ، وهذا جائز في ولد الفيل ، غير منكر ، لأن جماعة نساء معروفات الآباء والأبناء قد ولدن أولادهن ، ولهن أسنان نابتة كالذي رووا في شأن مالك بن أنس، ومحمد بن عجلان وغيرهما ، وقد زعم ناس من أهل البصرة أن خاقان بن عبدالله بن الأهتم استوفى في بطن أمه ثلاثة عشر شهراً ، وقد مدح بذلك وهجي ، وليس ذلك بالمستنكر و إن كنت لم أر قط قابلة تقر بشيء من هذا الباب ، كذلك الأطباء ، وقد رووه كما علمت ، ولكن العجب كل العجب ما ذكروا من إخراج ولد الكركدن رأسه ، واعتلافه ، ثم إدخاله رأسه بعد الشبع والبطنة ، ولا بد ، أكرمك الله لما أكل من نجو،فإن كان بقي [ذلك] الولد يأكل ولا يروث ، فهذا عجب ، وإن كان يروث في جوفها فهذا أعجب ، و إنما جعلناه يروث حيث سموه حماراً ، وهذا مما ينبغي لنا أن نذكره في خصال الحمير ، إذا بلغنا ذلك الباب ، ولا أقر أن الولد يخرج رأسه من بطن أمه حتى يأكل شبعه ، ثم يدخل رأسه ، ولست أراه محالاً ولا ممتنعاً في القدرة ولا [ممتنعاً] في الطبيعة ، وأرى جوازه موهوماً غير مستحيل ، إلا أن

---

(١) كتاب الحيوان — الجزء السابع ص ٤٠ .

قلبي ليس يقبله ، وليس في كونه ظلم ولا عبث ولا خطأ ولا تقصير في شيء من الصفات المحمودة ، ولم نجد القرآن ينكره ، و [لا] الإجماع يدفعه ، والله هو القادر دون خلقه ، ولست أبت بإنكاره ، و إن كان قلبي شديد الميل إلى رده ، وهذا مما لا يعلمه الناس بالقياس ، ولا يعرفونه إلا بالعيان الظاهر ، والخبر المتظاهر » .

فالجاحظ في مثل هذا المقام يعمد إلى رد الخبر ، لأن العيان الظاهر لم يثبته .

هذا ما يتعلق ببعض خصائص شكه ، فلنلجأ إلى النظر في العلل التى يجدها لأمر من الأمور ، ففي هذا النوع يتبين لنا مقدار تغلغل عقله في الأسرار ، ومبلغ توفيقه في الإحاطة بهذه الأسرار ، فلننتخب موضعاً أو موضعين من المواضع التى يستدل بها على نفوذ عقله .

مرة يشهد الأمر فيدونه كما يدون عالم الطبيعة حادثة من حوادثها ، ثم يستنبط من هذا الأمر قانوناً عامًّا ، يلجأ اليه كلما جد الكلام على الأمر الذي دونه ، على نحو استنباط علماء الطبيعة القوانين العامة من الأمور الصغيرة التي يجربونها و يعاينونها ، من ذلك قوله :[1]

« وربما أكل الإنسان الجراد أو ما يشبه بعض الجراد ، فتسقط من يده الواحدة أو صدر الواحدة ، وليس بقربه ذره ، ولا له بالذر عهد في ذلك المنزل ، فلا يلبث أن تقبل ذرة قاصدة إلى تلك الجرادة ، فترومها ، وتحاول قلبها ونقلها وسحبها وجرها ، فإذا أعجزتها بعد أن بلغت عذراً مضت إلى جحرها راجعة ، فلا يلبث ذلك الإنسان أن يراها قد أقبلت ، وخلفها صُوَيْحباتُها كالخيط الأسود الممدود ، حتى يتعاونّ عليها فيحملنها ، فأول ذلك صدق الشم لما لا يشمه الإنسان الجائع ، ثم بعد الهمة والجراءة على محاولة نقل شيء في وزن جسمها مائة مرة وأكثر من مائة مرة ، وليس شيء من الحيوان يقوى على حمل ما يكون ضعفه مراراً غيرها ، وعلى أنها لا ترضى بأضعاف الأضعاف إلا بعد انقطاع الأنفاس .

---

(١) كتاب الحيوان — الجزء الرابع ص ٣ .

فإن قلت : وما علم الرجل أن التى حاولت نقل الجرادة ، فعجزت ، هي التى أخبرت صويحباتها من الذر ، وأنها كانت على مقدمتهن ؟ قلنا : لطول التجربة ، ولأنا لم نر ذرة قط حاولت نقل جرادة فعجزت عنها ، ثم رأيناها راجعة ، إلا رأينا معها مثل ذلك ، و إن كنا لا نفصل في العين بينها و بين أخواتها ، فإنه ليس يقع في القلب غير الذي قلنا ، وعلى أننا لم نر ذرة قط حملت شيئاً أو مضت إلى جحرها فارغة ؛ فتلقاها ذرة الا واقفتها وخبرتها بشيء ، فدل ذلك على أنها في رجوعها عن الجرادة إنما كانت لأشباهها كالرائد لا يكذب أهله » .

ذرّة تأخذ عينها جرادة فتحاول نقلها ، فإذا عجزت عنها ذهبت إلى أخواتها فاستعانت بهن على حملها ، هـذا هو الأمر الصغير الذي عاينه الجاحظ ، من هذا الأمر الذي عاينه استخرج قانوناً عامًّا وهذا هو القانون : كل ذرة حاولت نقل جرادة أو غيرها فعجزت عنها استدعت صويحباتها ، فتعاونّ على نقل هذه الجرادة .

قد كنت ذكرت أن الجاحظ لم يستنبط من تجربته وعيانه وسماعه قوانين عامة ولكنه في هـذه المرة لم يقصر في استنباط القانون من الأمر الصغير ، ولو فعل هذا الفعل في كل الأمور التى جربها أو عاينها لما نقص تجربته وعيانه شيء ، ولكان فى هذه التجربة وهذا العيان شبه علماء هذا العصر .

ومرة يمعن في الكشف عن غرائز الحيوان ، فلا يعاين حركة من حركاته كالانقياد أو كالعصيان مثلاً إلا وضح أسرار هذه الحركة ، مصيباً في توضيحه شاكلة الصواب .

فمن كلامه على سلاح أصناف الحيوان[1] :

« وإنما تتقرب الشاة بالمتابعة والانقياد للسبع ، تظن أن ذلك مما ينفعها ، فإن الأسد إذا أخذ الشاة [و] لم تتابعه ولم تعنه على نفسها ، فربما اضطر الأسد إلى أن يجرّها إلى عرينه ، و إذا أخذها الذئب عدت معه حتى لا يكون عليه فيها مؤونة ، وهو إنما يريد أن ينحّيها عن الراعي والكلب ، و إن لم يكن في ذلك الوقت هناك كلب

(١) كتاب الحيوان — الجزء السادس ص ١٢٥ .

ولا راع ، فيرى أن يجري على عادته ، وكذلك الدجاج إذا كنّ وقّعاً على أغصان الشجر ، أو على الرفوف ، فلو مرّ تحتها كل كلب و [كل] سنور ، وكل ثعلب ، وكل شيء يطالبها ، فإذا مرّ ابن آوى بقربها لم يبق منها واحدة إلا رمت بنفسها إليه ، لأن الذئب هو المقصود به إلى طباع الشاة ، وكذلك شأن ابن آوى والدجاج ، يخيل إليها أن ذلك مما ينفع عنده ، وللجبن تفعل كل هـذا ، ولمثل هذه العلة نزل المنهزم عن فرسه الجواد ليحضر ببدنه ، يظن اجتهاده أنجى له ، وأنه إذا كان على ظهر الفرس أقل كدًّا ، وأن ذلك أقرب [له] إلى الهلاك ، ولمثل هذه العلة يتشبث الغريق بمن أراد إنقاذه حتى يغرقه ويغرق نفسه ، وهما قبل ذلك قد سمعا بحال الغريق والمنهزم ، وأنهما إنما هما في ذلك كالرجل المعافى الذي يتعجب ممن يشرب الدواء من يد أعلم الناس به ، فإن أصابته شقيقة ، أو لسعة عقرب ، أو اشتكى خاصرته ، أو أصابه حُصْر أو أُسْر ، شرب الدواء من يد أجهل الخليقة ، أو جمع بين دواءين متضادين » .

فما انقادت الشاة للسبع أو للذئب ، وما رمت الدجاجة بنفسها إلى ابن آوى إلا للجبن ، فالجاحظ يظهر لنا في هذا المقام في صورة العالم الواقف على غرائز الحيوان .

أو قوله (٢) :

« وليس شيء من صنف الحيوان أردأ حيله ، عند معاينة العدو ، من الغنم ، لأنها فى الأصل موصلة بكفايات الناس ، فأسندت اليهم فى كل أمر يصيبها ، ولولا ذلك لخرّجت لها الحاجة ضروباً من الأبواب التي تعينها . . . » .

***

هذا ما عن لنا من الكلام على ناحية جليلة من نواحي الجاحظ ، وأعني بها ناحية العلم ، وقد أحببت قبل أن أنتقل إلى الكلام على نواحى دينه ، أو تهكمه ، أو أدبه ، أن أجمل القول فى مذاهب تحقيقه ، حتى تبقى صورته من هذه الجهة ماثلة لأذهاننا ، قائمة فى صدورنا .

---

(١) كتاب الحيوان — الجزء السادس ص ١٢٥ .

أرادت طائفة ألا تجد في الجاحظ إلا ناحية واحدة وهي ناحية الفن ، فما رأت في بعض كتبه ، وخاصة في كتاب الحيوان ، إلا خصائص فنية ، وهـذا الرأي ناشىء عن أحد أمرين : إما عن جهل بمذاهب التحقيق فى العلم ، وإما عن تهاون بدراسة الجاحظ من كل أطرافه ، فليس من المعدلة في شيء أن ننظر إلى الجاحظ من ناحية واحدة ، وأن نهمل ناحية أجل ، وهي ناحية العلم .

كل ما تقدم من الفصول قد صور لنا الجاحظ في صورة العالم على مصطلح هذا العصر .

همُّ العالم التنقيب عن الحقيقة ، وهو يذهب في هـذا التنقيب مذاهب مختلفة ، على حسب العلم الذي ينصرف إليه ، وقد أخرج مكنونه في التفتيش عن هذه الحقيقة ، وأظن أن تجربته في أصناف من الحيوان كالحيات والأفاعي والخنافس والعقارب والجرذان ، لم يكن لمجرد اللهو والعبث ، وأي لهو في عيان العقارب ، أم أي عبث في مشاهدة الأفاعي ، فاذا قطع الجاحظ طائفة من أعضاء الحيوان ، أوألقى عليه ضرباً من السم ، أو ذبحه وفتش جوفه وقانصته ، أو دفنه في بعض النبات ، أو ذاقه ، أو بعج بطنه ، أو جمع أضداده في إناء من قوارير ، أو ألقى عليه مادة من مواد الكيمياء ، فما كان يفعل هذا وأشباهه عبثاً ، وإنما كان يرمي إلى غايات بعيدة ، إنه كان يرمي إلى إدراك الحقيقة من أرشد مسالكها .

فمرة كان يستعين بحواسه على الوصول إلى هذه الحقيقة ، فيستعين باللمس أو بالذوق أو بالرؤية أو بالشم أو بسؤال أهل المعرفة والعلم ، متوثقاً في كل خبر يسمعه ، متثبتاً في كل كلام يبلغ إليه ، حتى يكون على هدى من أمره ، وحتى يعرض هذه الحقيقة في أوضح معارضها فلا يخامره شك فيها ، وأي شك بعد العيان القاهر ، أو الخبر المتظاهر .

ومرة كان يستعين عليها بآلة أكمل من كل آلة ، وهي آلة العقل .

ولقد أحكم استعمال عقله ، فرامى دون حياض الحقيقة ، حتى لا يفسدها شيء من توليد كذاب ، أو من غرائب زور .

فحيناً كان يقف بالمرصاد لكل رجل تحدثه نفسه بخرافة من الخرافات ، وحيناً كان يحذر الناس من الأباطيل ، فيدلهم على عيوبها ، مقتصداً في دلالته ، لا شتم ولا بذاءة ، شأن العالم الجليل ، أو يشككهم فيها ، ثم يخرجهم من ظلمة الشك إلى ضياء اليقين .

وكان في بعض الأحوال يلجأ إلى توضيح العلل في أبواب العلم فلا يخطىء مواطن الحق .

وفي كل مذهب من هذه المذاهب ، في تجربته وعيانه وسماعه ونقده وشكه وتعليله ، كان الجاحظ يطلع علينا في صورة العالم الذي يعمل عقله في البحث عن الحقيقة .

المعتزلة الجاحظية

أنتقل فجأة من الكلام على تحقيق الجاحظ في أبواب العلم ، إلى الكلام على دينه ، ولعل هذا الانتقال لا يخلو من معنى من المعاني ، فقد علمنا أن للعقل في مذاهبه في التحقيق عملاً كبيراً ، فلا يكاد يؤمن إلا بما تراه العين ، أو تسمعه الأذن ، أو يذوقه الفم ، أو يشمه الأنف ، أو تلمسه اليد ، هذا من جهة الحكم الظاهر للأمور ، وأما من جهة الحكم الباطن لهذه الأمور ، فإنه لا يقر إلا بما يقبله العقل ولا يرده ، ومن كان هذا مذهبه في آفاق العلم ، أي من كان مذهبه التصحيح والتمييز دون أن يجعل سمعه هدفاً لكل توليد ، وقلبه قراراً لكل زور ، أخلق به أن يسير هذه السيرة في كل عمل من أعماله ، فهل غلب العقل على الجاحظ في أبواب الدين غلبته عليه في أبواب العلم ؟ هل توثق الجاحظ في دينه توثقه في علمه ، فلم يخرج في شيء من التفسير والتأويل عما يمليه عليه عقله ، وإن كان في هذه الأمالي شذوذ عن بعض أهل التفسير والتأويل ؟ هذا ما نجتهد في إدراك حقائقه في الكلام على دين الجاحظ .

لما قال الجاحظ في مقدمة كتاب الحيوان : إن هذا الكتاب أشرك بين علم الكتاب والسنة ، وبين وجدان الحاسة وإحساس الغريزة ، بسط لنا مذهبه فى أصل الدين على نحو ما بسط لنا مذهبه فى العلم لما قال فى المقدمة نفسها : وجمع (أي كتاب الحيوان) معرفة السماع وعلم التجربة ، فالجاحظ لا يريد أن يخرج فى تفسير الآيات وتأويل الأحاديث عن عمل الحواس وعمل العقل ، فهو يريد أن يدرك هذه الآيات ، وهذه الأحاديث من طريقين : من طريق الحواس ، ومن طريق العقل ، فهو من المعتزلة .

ويسمي المعتزلة فريق من الإفرنجة[1] : المفكرين الأحرار ، والصحيح أن حرية

(١) مفكرو الإسلام — Baron Carra de Vaux الجزء الأول ص ٢٩٤ .

التفكير من خصائص الاعتزال ، فالمعتزلة في نظرهم إنما هم فلاسفة يخوضون في مسائل الدين على حسب ما يريدون ، دون أن يجعلوا لسلطة من السلطات دخلاً فى حل هذه المسائل ، فهم رجال العقل في الدين .

و إذا أردنا أن نتبسط فى بيان معتقدات المعتزلة ، ونوازن بينها و بين بعض المذاهب الفلسفية فى عصرنا الأخير ، تراخى أمد الكلام ، فأرى أن أكتفى بذكر بعض أمور عن المعتزلة حتى يكون لنا رأي مجمل في الاعتزال .

فلننظر في فصلنا هذا فى أصل كلمة الاعتزال ، وفي الاحتجاج للاعتزال ، وفي القواعد التى أجمع عليها المعتزلة ، وفي طوائف المعتزلة ، وفي بعض طبقات المعتزلة ، وفي الطائفة التي يعنينا أمرها وهي الجاحظية ، وفى رأى الجاحظ نفسه فى المعتزلة .

فلنشرع في ذكر المصدر الذي صدرت عنه كلمة الاعتزال[١] :

« دخل واحد على الحسن البصري فقال : يا إمام الدين ، لقد ظهرت فى زماننا جماعة يكفرون أصحاب الكبائر ، والكبيرة عندهم كفر يخرج به عن الملة ، وهم وعيدية الخوارج ، وجماعة يرجئون أصحاب الكبائر ، والكبيرة عندهم لا تضر مع الإيمان ، بل العمل على مذهبهم ليس ركناً من الإيمان ، ولا يضر مع الإيمان معصية ، كما لا ينفع مع الكفر طاعة ، وهم مرجئة الأمة ، فكيف تحكم لنا فى ذلك اعتقاداً ، فتفكر الحسن في ذلك وقبل أن يجيب قال واصل بن عطاء : أنا لا أقول أن صاحب الكبيرة مؤمن مطلق ، ولا كافر مطلق ، بل هو في منزلة بين المنزلتين . لا مؤمن ولا كافر ، ثم قام واعتزل إلى أسطوانة من أسطوانات المسجد يقرر ما أجاب به على جماعة من أصحاب الحسن ، فقال الحسن اعتزل عنا واصل ، فسمي هو وأصحابه معتزلة .

ووجه تقريره أنه قال : إن الإيمان عبارة عن خصال خير ، و إذا اجتمعت سمى

(١) الملل والنحل للشهرستانى على هامش الملل والأهواء والنحل لابن حزم — الجزء الأول ص ٦٠ .

المرء مؤمناً وهو اسم مدح ، والفاسق لم يستجمع خصال الخير ، ولا استحق اسم المدح ، فلا يسمى مؤمناً ، وليس هو بكافر مطلق أيضاً ، لأن الشهادة وسائر أعمال الخير موجودة فيـه لاوجه لإنكارها ، لـكنه إذا خرج من الدنيا على كبيرة من غير توبة ، فهو من أهل النار خالداً فيها ، إذ ليس في الآخرة إلا الفريقان : فريق في الجنة وفريق في السعير ، لـكنه يخفف عنه العذاب ، وتكون دركته فوق دركة الـكفار ، وتابعه على ذلك عمرو بن عبيد بعد أن كان موافقاً له في القدر ، وإنكار الصفات » .

فمن هنا يتبين لنا أنهم سموا بالمعتزلة منذ اعتزال واصل بن عطاء الحسن ، وتابعه على ذلك عمرو بن عبيد .

وقال المرتضى في سبب تسميتهم[1] :

« وقيل (أي وسموهم بالمعتزلة) لقول قتادة : وكان من أصحاب الحسن ، ما تصنع المعتزلة ، فكان يسميهم بهذا الاسم ، روى عن عثمان الطويل قال : لقيت قتادة فقال : ما حبسك عنا ؟ لعل هؤلاء المعتزلة حبستك عنا ؟ قلت : نعم ، حديث رويته أنت عن النبي صلى الله عليه وسلم ، قال ما هو ؟ قال : رويت أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : ستفترق أمتي على فرق ، خيرها وأبرُّها المعتزلة ، وقيل : سموا بذلك لرجوع عمرو بن عبيد إلى قول واصل في الفاسق ، وخالف الحسن ، ذلك أنه لما خالف واصل أقوال أهل زمانه في الفاسق ، واعتزلها كلها واقتصر على المجمع عليه ، وهو تسميته فاسقاً ، ورجع عمرو بن عبيد إلى قوله بعد مناظرة وقعت بينهما ، سمي وأصحابه معتزلة لاعتزالهم كل الأقوال المحدثة ، والمجبرة تزعم أن المعتزلة لما خالفوا الإجماع في ذلك سموا معتزلة ، قلت : لم يخالفوا الإجماع بل عملوا بالمجمع عليه في الصدر الأول ، ورفضوا المحدثات المبتدعة » .

---

(١) ذكر المعتزلة ص ٤ .

ويسمون العدلية لقولهم بعدل الله وحكمته ، والموحّدة لقولهم : لا قديم مع الله[١] .

ويسمون أصحاب العدل والتوحيد ويلقبون بالقدرية[٢] .

أما احتجاج المعتزلة للاعتزال فقد ذكره المرتضى فقال[٣] :

« ويحتجون للاعتزال ، أي لفضله ، بقوله تعالى : (وأعتزلكم) ونحوها ، وهو قوله تعالى : (واهجرهم هجراً جميلاً) ، وليس إلا بالاعتزال عنهم .

واحتجوا من السنة بقوله صلى الله عليه وآله وسلم : من اعتزل من الشر سقط في الخير .

واحتجوا أيضاً بالخبر الذي رواه سفيان الثوري عن أبي الزبير عن جابر بن عبد الله عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، وهو قوله صلى الله عليه وآله وسلم : ستفترق أُمتي على بضع وسبعين فرقة ، أبرها وأتقاها الفئة المعتزلة ، وهو تمام الخبر ، ثم قال سفيان لأصحابه : تسموا بهذا الاسم لأنكم اعتزلتم الظلمة ، فقالوا : سبقك بها عمرو بن عبيد وأصحابه ، فكان سفيان بعد ذلك يروي واحدة ناجية » .

وهذه هي القواعد التي أجمع عليها المعتزلة على نحو ما بينها الشهرستاني لما قال[٤] :

« فالذي يعم طائفة المعتزلة من الاعتقاد القول بأن الله تعالى قديم ، والقدم أخص وصف ذاته ، ونفوا الصفات القديمة أصلاً . فقالوا : هو عالم بذاته ، قادر بذاته ، حي بذاته ، لا بعلم وقدرة وحياة ، هي صفات قديمة ، ومعان قائمة به ، لأنه لو شاركته الصفات في القدم الذي هو أخص الوصف لشاركته في الإلهية » .

واتفقوا على أن كلامه محدث مخلوق في محل ، وهو حرف وصوت ، كُتب أمثاله في المصاحف حكايات عنه ، فإنما وجد في المحل عرض فقد فني في الحال .

---

(١) ذكر المعتزلة للمرتضى ص ٢ .

(٢) الملل والنحل للشهرستاني على الهامش — ص ٥٤ .

(٣) ذكر المعتزلة ص ٢ .

(٤) الملل والنحل للشهرستاني ص ٥٥ .

واتفقوا على أن الإرادة والسمع والبصر ليست معاني قائمة بذاته ، لكن اختلفوا في وجوه وجودها . ومحامل معانيها كما سيأتي .

واتفقوا على نفي رؤية الله تعالى بالأبصار في دار القرار ، ونفي التشبيه عنه من كل وجه : جهةً ومكاناً وصورةً وجسماً وتحيزاً وانتقالاً وزوالاً وتغيراً وتأثراً .

وأوجبوا تأويل الآيات المتشابهة فيها ، وسموا هذا النمط : توحيداً .

واتفقوا على أن العبد قادر ، خالق لأفعاله خيرها وشرها ، مستحق على ما يفعله ثواباً وعقاباً في الدار الآخرة ، والرب تعالى منزه أن يضاف إليه شر وظلم ، وفعل هو كفر ومعصية ، لأنه لو خلق الظلم كان ظالماً ، كما لو خلق العدل كان عادلاً .

واتفقوا على أن الحكيم لا يفعل إلا الصلاح والخير ، ويجب من حيث الحكمة رعاية مصالح العباد ، وأما الأصلح واللطف ففي وجوبه خلاف عندهم ، وسموا هذا النمط : عدلاً .

واتفقوا على أن المؤمن إذا خرج من الدنيا على طاعة وتوبة استحق الثواب ، والعوض والتفضُّل معنى آخر وراء الثواب ، وإذا خرج من غير توبة عن كبيرة ارتكبها استحق الخلود في النار ، ولكن يكون عقابه أخف من عقاب الكفار ، وسموا هذا النمط : وعداً ووعيداً .

واتفقوا على أن أُصول المعرفة وشكر النعمة واجب قبل ورود السمع ، والحسن والقبيح يجب معرفتهما بالعقل ، واعتناق الحسن واجتناب القبيح واجب ، كذلك ورود التكاليف ألطاف للباري تعالى ، أرسلها إلى العباد بتوسط الأنبياء عليهم السلام ، امتحاناً واختباراً ، ليهلك من هلك عن بينة . ويحيا من حي عن بينة .

واختلفوا في الإمامة والقول فيها نصًّا واختياراً » .

وأشار المرتضى إلى هذه القواعد فأوجز فقال[1] :

« وأما ما أجمعوا عليه ، فقد أجمعت المعتزلة على أن للعالم محدثاً قديماً ، قادراً عالماً

---

(١) ذكر المعتزلة — ص ٦ .

حيًّا ، لا لمعانٍ ، ليس بجسمٍ ، ولا عرض ، ولا جوهر عيناً واحـداً ، لا يدرك بحاسة ، عدلاً حكيماً ، لا يفعل القبيح ولا يريده ، كلَّف تعريضاً للثواب ، ومكّن من الفعل وأزاح العلة ولا بد من الجزاء ، وعلى وجوب البعثة حيث حسنت ، ولا بد للرسول صلى الله عليه وآله وسلم من شرع جديد ، أو إحياء مندرس ، أو فائدة لم تحصل من غيره ، وأن آخر الأنبياء محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، والقرآن معجزة له ، وأن الإيمان قول ومعرفة وعمل ، وأن المؤمن من أهل الجنة ، وعلى المنزلة بين المنزلتين ، وهو أن الفاسق لا يسمى مؤمناً ولا كافراً ، إلا من يقول بالإرجاء ، فإنه يخالف في تفسير الإيمان ، وفي المنزلة ، فيقول الفاسق يسمى مؤمناً ، وأجمعوا أن فعل العبد غير مخلوق فيه ، وأجمعوا على تولي الصحابة ، واختلفوا في عثمان بعد الأحداث التي أحدثها ، فأ كثرهم تولاه ، وتأوّل له كما مر ، وكما سيأتي ، وأ كثرهم على البراءة من معاوية وعمرو بن العاص ، وأجمعوا على وجوب الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، وفي تعداد علمائهم مصنفات عدة كالمصابيح لابن يزدان وغيره » .

فالذي يستنتج من ذكر بعض معتقدات المعتزلة أن هذه المعتقدات تتعلق بعلم ما وراء الطبيعة ، وبالفلسفة نفسها ، فإن البحث عن قدرة البعد ، وعن خلقه لأفعاله خيرها وشرها ، وعن الجوهر والعرض وما شابه هذه الأمور ، من خصائص الفلسفة ، ومن خصائص علم ما وراء الطبيعة . فلا نستطيع أن نفهم أقوال الجاحظية ، وسائر طوائف المعتزلة ، إلا إذا كنا واقفين على العلوم التي تدخل فيها هذه الأقوال .

والمعتزلة طوائف شتى ، كالواصلية ، أصحاب أبي حذيفة واصل بن عطاء الغزّال تلميذ الحسن البصري ، وكالهذيلية أصحاب أبي الهذيل حمدان بن أبي الهذيل العلاّف شيخ المعتزلة ، وكالنظّامية أصحاب إبراهيم سيّار بن هانئ النظّام ، وكالحائطية أصحاب أحمد بن حائط ، وكالحدثية أصحاب فضل بن الحدثي ، وكالبشرية أصحاب بشر بن المعتمر ، وكالمعمرية أصحاب معمر بن عباد السلمي ، وكالمزدارية أصحاب عيسى بن صبيح المكنى بأبي موسى الملقب بالمزدار ، راهب المعتزلة ، وكالثمامية أصحاب ثمامة بن

أشرس النميري ، وكالهشامية أصحاب هشام بن عمر الفوطي ، وكالجاحظية ، وكالخياطية أصحاب أبي الحسين بن أبي عمرو الخيَّاط أُستاذ أبي القاسم بن محمد الكعبي ، وكالجبائية والبهشمية أصحاب أبي علي محمد بن عبد الوهاب الجبائي وابنه أبي هاشم عبد السلام .

ولكل طائفة من هذه الطوائف اعتزال يدور على قواعد معينة ذكرها الشهرستاني في الملل والنحل .

ومن طبقات المعتزلة :

محمد بن الحنفية ، وعنه أخذ واصل بن عطاء علم الكلام ، وأبو الأسود الدؤلي ، وعلقمة ، والأسود ، وشُريح ، والحسن البصري صاحب الرسالات في القضاء والقدر إلى عبد الملك و إلى الحجاج ، وله مع الحجاج مناظرات ، وكان لا يرد عليه أحد كما يرد عليه الحسن ، وغيلان بن مسلم الدمشقي الذي كان يعيب هشام بن عبد الملك ، ويعيب آباءه ، فلما ولي هشام خرج غيلان وصاحبه إلى أرمينية ، فأرسل هشام في طلبهما ، فجيء بهما ، فحبسهما أياماً ، ثم أخرجهما وقطع أيديهما وأرجلهما ، فمات صالح ، وصلى عليه غيلان ، ثم اندفع في ذكر بني أُمية بالسوء فقيل لهشام : قطعت يدي غيلان ورجليه ، وأطلقت لسانه ، إنه قد بكَّى الناس ونبههم على ما كانوا عنه غافلين ، فأرسل إليه من قطع لسانه فمات .

ومنهم واصل بن عطاء الذي كان يلزم صديقه أبا عبد الله الغزّال ليعرف المتعففات من النساء فيجعل صدقته لهن .

كان واصل ألثغ في الراء ، قبيح اللثغة فيها ، فكان يخاص كلامه من الراء . ولا يفطن لذلك لاقتداره وسهولة ألفاظه ، وقد كان صديقاً لبشار ، مدحه بشار وذكر خطبته التي ألقى منها الراء فقال :

تكلف القول والأقوام قد حفلوا ... وحبّروا خطباً ناهيك من خطب
وقال مرتجلا تغلي بداهته ... كمرجل القين لما حُفَّ باللهب
وجانب الراء لم يشعر به أحد ... قبل التصفح والإغراق في الطلب

فلما قال بشار بالرجعة ، وتكفير جميع الأمة ، تبرأ منه واصل ، فهجاه بشار ، وعابه بطول عنقه فقال :

مالي أُشايع غزّالاً له عنق كنقنق الدوِّ إن ولّى و إن مثلا
عنق الزرافة ما بالي وبالكم تكفرون رجالاً كفّروا رجلا

أنفذ واصل بن عطاء أصحابه إلى الآفاق ، و بث دعاته في البلاد ، فبعث عبد الله ابن الحارث إلى المغرب ، فأجابه خلق كثير ، و بعث حفص بن سالم إلى خراسان ، و بعث القاسم إلى اليمن ، و بعث أيوب إلى الجزيرة ، و بعث الحسن بن ذكوان إلى الكوفة ، و بعث عثمان الطويل إلى أرمينية ، وكان عثمان أُستاذ أبي الهذيل العلاّف .

ومنهم عمرو بن عبيد وكان المنصور العباسي يبالغ في تعظيمه .

ومنهم صالح الدمشقي صاحب غيلان الدمشقي .

ومنهم أبو الهذيل العلاّف ، أتاه رجل فقال له : أشكل عليّ أشياء من القرآن فقصدت هذا البلد ، فلم أجد عند أحد ممن سألته شفاءً لما أردته ، فلما خرجت في هذا الوقت قال لي قائل : إن بغيتك عند هذا الرجل ، فاتق الله وأفدني ، فقال أبو الهذيل : فماذا أشكل عليك ؟ قال : آيات من القرآن توهمني أنها متناقضة ، وآيات توهمني أنها ملحونة ، قال : فماذا أحب إليك ؟ أجيبك بالجملة ، أو تسألني عن آية آية ؟ قال : بل تجيبني بالجملة ، قال أبو الهذيل : هل تعلم أن محمداً كان من أوسط العرب ، وغير مطعون عليه فى لغته ، وأنه كان عند قومه من أعقل العرب ، فلم يكن مطعوناً عليه ؟ فقال : اللهم نعم ، قال أبو الهذيل : فهل تعلم أن العرب كانوا أهل جدل ؟ قال : اللهم نعم ، قال : فهل اجتهدوا في تكذيبه ؟ قال : اللهم نعم ، قال : فهل تعلم أنهم عابوا عليه بالمناقضة أو باللحن ؟ قال : اللهم لا ، قال أبو الهذيل : فتدعُ قولهم مع علمهم باللغة وتأخذ بقول رجل من الأوساط ؟ قال : فأشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، قد كفاني هذا وانصرف ، وتفقه فى الدين .

وفي أبي الهذيل يقول المأمون : أطل أبو الهذيل على الـكلام كإطلال الغمام على الأنام .

ومنهم أبو إسحاق إبراهيم بن سيّار النظّام أُستاذ الجاحظ ، وقد عرفنا رأي الجاحظ فيه .

ومنهم بشر بن المعتمر الهلالي رئيس معتزلة بغداد ، ومنهم معمر بن عبّاد السلمي أُستاذ بشر ، ومنهم أبو الحسين القاضي علي بن عبد العزيز الجرجاني ، والصاحب الكافي ، والجوهري صاحب الصحاح ، وأبو بكر الرازي ، وغيرهم من الذين أتى على ذكرهم المرتضى في كتابه ذكر المعتزلة .

والذي يشغلنا من طوائف المعتزلة ومن طبقاتها في مثل هذا المقام الجاحظية وحدها ، فالجاحظ وافق أصحابه المعتزلة على أُمور ، وانفرد عنهم بمسائل تابعه عليها فريق من المعتزلة فسموا بالجاحظية ، وهذه هي المسائل التي انفرد بها[1] :

« منها قوله : إن المعارف كلها ضرورية طباع ، وليس شيء من ذلك من أفعال العباد وليس للعباد كسب سوى الإرادة ، وتحصل أفعاله منه طباعاً كما قال ثمامة ، ونقل عنه أيضاً أنه أنكر أصل الإرادة ، وكونها جنساً من الأعراض ، فقال : إذا انتهى السهو عن الفاعل وكان عالماً بما يفعله ، فهو المريد على التحقيق ، وأما الإرادة المتعلقة بفعل الخير فهو ميل النفس إليه ، وزاد على ذلك بإثبات الطبائع للأجسام كما قال الطبيعيون من الفلاسفة ، وأثبت لها أفعالاً مخصوصة بها ، وقال باستحالة عدم الجواهر ، فالأعراض تتبدل ، والجوهر لا يجوز أن يفنى .

ومنها قوله في أهل النار إنهم لا يخلدون فيها عذاباً ، بل يصيرون إلى طبيعة النار ، وكان يقول : النار تجذب أهلها إلى نفسها دون أن يدخل أحد فيها ، ومذهبه في نفي الصفات مذهب الفلاسفة ، وفي إثبات القدر ، خيره وشره من العبد ، مذهب المعتزلة .

وحكى الـكعبي عنه في نفي الصفات أنه قال : يوصف الباري تعالى بأنه مريد ،

(١) الملل والنحل — للشهرستاني ص ٩٤ .

بمعنى أنه لا يصح عليه السهو في أفعاله ، ولا الجهل ، ولا يجوز أن يغلب ويقهر ، وقال : إن الخلق كلهم من العقلاء ، عالمون بأن الله تعالى خالقهم ، وعارفون بأنهم محتاجون إلى النبي وهم محجوجون بمعرفتهم ، ثم هم صنفان : عالم بالتوحيد وجاهل به ، فالجاهل معذور ، والعالم محجوج ، ومن انتحل دين الإسلام، فإن اعتقد أن الله تعالى ليس بجسم ولا صورة ولا يُرى بالأبصار ، وهو عدل لا يجور ، ولا يريد المعاصي ، و بعد الاعتقاد والتبيين أقر بذلك كله ، ثم جحده وأنكره ، أو دان بالتشبيه والجبر ، فهو مشرك كافر حقاً ، و إن لم ينظر في شيء من ذلك، واعتقد أن الله ربه ، وأن محمداً رسول الله ، فهو مؤمن لا لوم عليه ، ولا تكليف عليه غير ذلك .

وحكى ابن الراوندي عنه أن القرآن جسد يجوز أن يقلب مرة رجلاً ومرة حيواناً ، وهذا مثل ما يحكى عن أبي بكر الأصم ، أنه زعم أن القرآن جسم مخلوق ، وأنكر الأعراض أصلاً ، وأنكر صفات الباري تعالى ، ومذهب الجاحظ هو بعينه مذهب الفلاسفة، إلا أن الميل منه ومن أصحابه إلى الطبيعيين منهم أكثرمنه إلى الإلهيين » .

وقد تعرض ابن الراوندي للمعتزلة ، وفي جملتهم الجاحظ ، فردَّ عليه الخياط في كتابه الانتصار ، فقال في دفاعه عن الجاحظ (١) :

ثم قال : أي ابن الراوندي ، وقد زعم الجاحظ مع ما حكيت عنه من إحالة فناء الأجسام وعدمها ، أن الله لا يخلد كافراً في النار ، ولا يدخله فيها ، وأن النار تُدخل الكافر نفسها ، وتخلده فيها ، ثم قال هر بأ بزعمه من مسائل الملحدين في التخليد ، قال : فقلت لبعض أصحابه : وكيف صارت النار هي التي تخلد الكفار في عذابها وتصيرهم إليها ؟ قال ، فقال : من قبل أنهم عملوا أعمالاً فصارت أجسادهم لا تمتنع النار إذا حاذتها في القيامة من اجتذابها إليها بطباعها ، ثم وصف كلاماً (زعم) دار بينه و بين هذا الرجل في هذا الباب ، وهذا كذب وزور . وهذه كتب الجاحظ في أفعال الطبائع ، فانظر فيها ، فإن وجدت فيها حرفاً واحداً مما حكاه عنه هذا

---

(١) كتاب الانتصار للخياط المعتزلي — ص ٩١ .

الماجن فهوصادق، و إلا فاعلم أنه كاذب بهّات، كذب عليه في الحكاية عنه أنه يحيل فناء الأجسام ، ثم أردفه بكذب آخر والله المستعان » .

والمعتزلة في نظر الجاحظ مقام رفيع ، فقد أشار إليهم في بعض مواطن ، منها قوله[١] :

« لولا مكان المتكلمين لهلكت العوام من جميع الأمم ، ولولا مكان المعتزلة لهلكت العوام من جميع النحل، فإن لم أقل : ولولا أصحاب إبراهيم و إبراهيم لهلكت العوام من المعتزلة ، فإني أقول إنه قد أنهج لهم سُبُلاً ، وفتق لهم أموراً ، واختصر لهم أبواباً ظهرتْ فيها المنفعة وشملتهم بها النعمة » .

ومنها قوله بعد كلام له على الجهمية ، ومن أنكر إيجاد الطبائع ، وعلى ناسٍ اتبعوا ظاهر الحديث وظاهر الأشعار[٢] :

« وليس هؤلاء ممن يفهم تأويل الأحاديث ، وأيّ ضرب منها يكون مردوداً . وأي ضرب منها يكون متأولاً ، وأي ضرب منها يقال إن ذلك إنما هو حكاية عن بعض القبائل ، ولذلك أقول : لولا مكان المتكلمين لهلكت العوام ، واختطفت واسترقت ، ولولا المعتزلة لهلك المتكلمون » .

---

(١) كتاب الحيوان — الجزء الرابع ص ٦٩ .
(٢) « « « ص ٩٦ .

شعور الجاحظ الديني

إنِ مذهباً تبنى أُصوله على العقل ، ويستفيض في عصر استفاضت فيه الخرافات غرائب الزور ، فيتفرغ رجال للتنبيه على الأضاليل ، والتحذير من الأكاذيب ، إن مذهباً هذا شأنه لايخلو في صدر أمره من تعرض المتعرضين . ولم ينج الجاحظ في حياته وبعد مماته من مثل هذا التعرض ، أما الذين نقدوه نقداً خالصاً فليس لنا كلام عليهم ، فسواء أذَهبوا مذهبه في الاعتزال والفلسفة والعلم ، أم خالفوا هذا المذهب ، إنهم أحرار ، فلكل رأيه ومعتقده ، ولكن بعض المعترضين لم يقفوا عند حد النقد ، فلم يسلم الجاحظ في حياته من حسد الحساد ، وقد رأينا كيف كانوا يتعقبونه في أواخر أيامه ، ملتمسين في كلامه لفظاً مضطرباً ، أو تأليفاً سيئاً ، أو نظاما مقطعاً ، ومغضين على كل محمود من هذا الكلام ، وليس هذا من النقد في شيء ، وإنما أصل الأمر في النقد أن ننظر إلى جهتي المحاسن والمساوئ ، فندل على هذه المحاسن حتى يزداد شعورنا بها ، وننبه على هذه المساوئ حتى تصلح أذواقنا ، فالاقتصار على ذكر المذموم من كلام المؤلف دون التفرغ لبيان المحمود من هذا الكلام قد يكون فيه شيء يسميه بعض الناس : الحسد ، والجاحظ كان محسوداً في حياته على نحو ما علمنا .

والحسد مستحكم في البشر ، سواء فيه العالم والجاهل ، ولا يقعن في خلد أحد أن العلم يهون من خطبه ، قال الأستاذ (ريشه) في تصويره أخلاق العلماء[1] :

« العلماء حساد لأنهم بشر ، فهم لا يستطيعون أن ينظروا بعين الرضا إلى تكريم يكرمه زميل من زملائهم ، أو إلى لقب يحصل عليه ، أو إلى حظوة يحظى بها ، أو إلى غير ذلك من رتب تتساقط عليه تساقط الوابل ، وكلما كان العلم الذي ينصرف

(١) كتاب العالم — ص ٢١ .

إليه هذا الزميل قريباً من علمهم اشتد الحسد ، فالفلكي لا يحزنه الشرف الذي يتناهى إلى النباتي ، ولكنه يجد أن الشرف الذي يحصل عليه فلكي آخر لا يستحقه هذا الفلكي » .

قلت : لم يقف المتعرضون للجاحظ عند حد النقد ، وإنما أحبوا أن يثلموا من شعوره الديني ، فلم تجد طائفة منهم في كلامه إلا جهالات وإلا ضلالات ، ولقد ذهبوا في ذلك مذهباً أبعد ، فاستكثروا تسميته إنساناً ، وعدوا هذه التسمية ذنباً لا يغفر، والتمسوا له شبيهاً من أصناف الحيوان فلم يجدوا أصلح من الخنزير .

فقد تعرض له أيضاً أبو منصور البغدادي في كتابه الفرق بين الفرق ، فرد عليه في بعض آرائه في الفلسفة والتوحيد ، ثم نسبه إلى الشعوبية وإلى السرقة ، مما لا نجد حاجة إلى ذكره في مثل هذا المقام ، وإنما نشير إلى هذه العبارة :[1]

« ولو عرفوا جهالاته في ضلالاته لاستغفروا الله تعالى من تسميتهم إياه إنساناً، فضلا عن أن ينسبوا إليه إحساناً » .

أو إلى العبارة الآتية[2] :

ومن افتخر بالجاحظ سلمناه إليه ، قول أهل السنة في الجاحظ كقول الشاعر فيه :

لو يمسخ الخنزير مسخاً ثانياً   ما كان إلا دون قبح الجاحظ

رجل ينوب عن الجحيم بنفسه   وهو القذى في كل طرف لاحظ

إن مثل هذا الكلام يمر به مر الكرام ، فإذا لم يكن الجاحظ إنساناً فمن الإنسان . والصحيح أن الجاحظ جاوز أفق البشرية ، وحلق في جو لا يصل إليه كل واحد من الناس .

وكما تعرض له البغدادي ، فقد تعرض له ابن قتيبة ، فثلمه في دينه ، فقال[3] :

« ويعمل كتاباً يذكر فيه حجج النصارى على المسلمين ، فإذا صار إلى الرد عليهم

(١) الفرق بين الفرق — ص ١٦٠ .
(٢) الفرق بين الفرق — ص ١٦٢ .
(٣) تأويل مختلف الحديث — ص ٧٢ .

تجوز في الحجة كأنه إنما أراد تنبيههم على ما لا يعرفون ، وتشكيك الضعفة من المسلمين ، وتجده يقصد في كتبه للمضاحيك والعبث ، يريد بذلك استمالة الأحداث وشرّاب النبيذ ، ويستهزئ من الحديث استهزاء لا يخفى على أهل العلم ، كذكره كبد الحوت وقرن الشيطان وذكر الحجر الأسود ، وأنه كان أبيض فسوده المشركون ، وقد كان يجب أن يبيضه المسلمون حين أسلموا ، ويذكر الصحيفة التي كان فيها المنزل في الرضاع تحت سرير عائشة ، فأكلتها الشاة ، وأشياء من أحاديث أهل الكتاب في تنادم الديك والغراب ، ودفن الهدهد أمه فى رأسه وتسبيح الضفدع ، وطوق الحمامة ، وأشباه هذا مما سنذكره فيما بعد إن شاء الله . وهو مع هذا من أكذب الأمة وأوضعهم لحديث ، وأنصرهم لباطل » .

والغريب أن ابن قتيبة عاب الجاحظ بقصده للمضاحيك والعبث ، وهو نفسه من الذين قصدوا لهذه المضاحيك ولهذا العبث ، حتى قال في مقدمة كتابه عيون الأخبار :

« ولم أخله (أي لم يخل كتابه) مع ذلك من نادرة طريفة ، وفطنة لطيفة ، وكلمة معجبة ، وأخرى مضحكة ، لئلا يخرج عن الكتاب مذهب سلكه السالكون ، وعروض أخذ فيها ، ولأروّح بذلك عن القارئ من كد الجد ، و إتعاب الحق ، فإن الأذن مجاجة ، وللنفس حمضة » .

وقال في مقام آخر من هذه المقدمة :

« و إذا مر بك حديث فيه إفصاح بذكر عورة ، أو فرج ، أو وصف فاحشة ، فلا يحملنك الخشوع أو التخاشع على أن تصعر خدك ، وتعرض بوجهك ، فإن أسماء الأعضاء لا تؤثم ، وإنما المأثم فى شتم الأعراض ، وقول الزور والكذب ، وأكل لحوم الناس بالغيب » .

هذا ما قاله ابن قتيبة نفسه ، وأيد قوله بأحاديث الرسول ، و بكلام بعض الخلفاء الراشدين ، فلم سلك هذا المسلك وعاب الجاحظ بسلوكه إياه ؟ و إذا كان المأثم في شتم الأعراض وقول الزور والكذب وأكل لحوم الناس بالغيب ، فالجاحظ قد عرضت

أنماطاً من نقده العلمي ، فأظن أنه ما شتم عرض أرسطاطاليس لما تعرض له ، وأظن أنه كان يتقذر من قول الزور والكذب ، وقد رأينا كيف كان يدل على توليد الكذابين ، وعلى غرائب الزور من دون أن يأكل لحومهم بالغيب .

وكان ابن أبي دواد يقول في الجاحظ[١] :

« أنا أثق بظرفه ولا أثق بدينه » .

وكلام ابن أبي دواد في مثل هذا المقام ، فيه بعض النظر ، فإن الجاحظ كان منحرفاً عنه ، ملازماً لعدوه ابن الزيات .

ومثل هذا قوله أيضاً لما جيء به مقيداً :

« قبحك الله ، ما علمتك إلا كثير تزويق الكلام ، وقد جعلت ثيابك أمام قلبك ثم اصطفيت فيه النفاق والكفر » .

وقال ابن أبي الدنيا المحدث[٢] :

« حضرت وليمة حضرها الجاحظ ، وحضرت صلاة الظهر ، فصلينا ، وما صلى الجاحظ ، وحضرت صلاة العصر ، فصلينا وما صلى الجاحظ ، فلما عزمنا على الانصراف قال الجاحظ لصاحب المنزل : إني ما صليت لمذهب أو لسبب أخبرك به ، فقال له : (أو قيل له) ما أظن أن لك مذهباً في الصلاة إلا تركها » .

وقال ثعلب في الجاحظ : كان كذاباً على الله ، وعلى رسوله ، وعلى الناس .[٣]

وذكر أبو الفرج الأصبهاني أنه كان يرمى بالزندقة[٤]

ثلموا الجاحظ في دينه وجردوه من الشعور الديني ، فلنجتهد في التنقيب عن بعض مواضع من كلام الجاحظ ، ظهر فيها هذا الشعور الذي سلخوه منه الظهور كله ، ولقد ظهر في مقام علمي ، لا متعلق للدين به ، ولو كتمه الجاحظ لما كان عليه مطعن

---

(١) طبقات الأدباء للأنباري — ص ٢٥٨ .

(٢) تاريخ ابن عساكر .

(٣) لسان الميزان — الجزء الرابع ص ٣٥٧ .

(٤) لسان الميزان — الجزء الرابع ص ٣٥٦ .

من المطاعن ، فإنه في باب علم لا في باب دين ، ولكن هذا الشعور أبى إلا أن يفيض على جنبات كلامه ، و إذا كان المرء مأخوذاً بظاهر عقيدته لا بباطنها ، فليس في ظاهر عقيدة الجاحظ مغمز من المغامز ، أما الباطن فما نحاول مكاشفته ، فلنا ظاهر الجاحظ ولله باطنه .

قال زياد لأهل العراق لما قدم والياً عليهم (١) :

« إني لو علمت أن أحدكم قد قتله السل من بغضي ، لم أكشف له قناعاً ، ولم أهتك له ستراً حتى يبدي صفحته لي » .

وليس من المستسهل أن نعرف عقيدة الرجل على حقيقتها ، فقد يكتم المرء غير ما يظهر وقد يظهر غير ما يكتم .

مرة ينظر الجاحظ إلى الحمام كيف يعد الذكر والأنثى العش لولدهما ، وكيف ينقلان القصب ، ويشققان الخوص و ينسجانه نسجاً مداخلاً ، وكيف يتخذان موضعاً للولد و يصطنعانه بقدر جثمان الحمامة ، وكيف يحفظان البيض ، و يمنعانه من التدحرج ، وكيف يتعاوران الأفحوصة ، و ينفيان عنها طبيعتها الأولى ، و يحدثان لها طبيعة أخرى ، على مقدار من البرد والسخانة ، والرخاوة والصلابة ، وكيف تضع الأنثى البيض في هذه الأفحوصة ، وكيف يتعاقب الذكر والأنثى الحضن و يتعاورانه ، وكيف ينصدع البيض عن الفرخ فيعلمان الفرخ الغذاء ، و يعينانه عليه ، وكيف يزقانه باللعاب ، ثم بالحب والماء على مقدار قوته ، وكيف يمنعانه بعض المنع بعد أن يطيق اللقط ، وكيف يفطمانه فطماً مقطوعاً مجذوذاً ، بعد أن يعلما أن أسبابه قد اجتمعت ، وكيف ينفيانه إذا بلغ لنفسه منتهى حاجته ، وسألها الكفاية ، وكيف ينزعان منهما تلك الرحمة له ، و ينسيان ذلك العطف عليه ، فلا يروحان إليه ، ولا يغدوان عليه .

ينظر إلى مجامع هذه الحكمة فلا يسعه إلا التسبيح لمن أودع المعرفة هذا الذكر والأنثى ، وألقى إليهما الإلهام ، و بسط عليهما ظل الهناء ، وجعلهما ضياء للمستضيء

(١) العقد الفريد — الجزء الأول ص ٥ .

وراشداً للمسترشد فيقول[١] :

« فسبحان من عرّفهما ، وألهمهما ، وهداهما ، وجعلهما دلالة لمن استدل ، ومخبراً صادقاً لمن استخبر ، ذلكم الله رب العالمين » .

ومرة ينظر إلى أصناف الحيوان ، فيتدبر كيف تبيض في صدع الصخر ، وأعالي الهضاب ، وكيف تبيض في الأجحرة ، وكيف تلد ولا تبيض ، ولا ترضع ولا تلقم ، وكيف تبيض وترضع ، وكيف تبيض في أوكارها في عرض مقاطع الجبال ، وكيف تبيض في البيوت في أصول أجذاع السقف ، وكيف لا تبيض من الجبال إلا في الوحشي منها ، وإلا في أسحقها وأبعدها عن مواضع أعدائها ، وكيف تتخذ بيوتها في عرض شطوط الأنهار والسواقي ، وكيف لا تجثم على بيضها ، وكيف لا تزق ، ولا تلقم ، ولا تلحم ، ولا تحضن ، ولا ترضع ، وكيف تزق وتحضن وتحتاج إلى ما تغذو به ولدها .

ينظر إلى هذا كله ، فيستدل به على حسن صنع الله وإحكامه وتدابيره[٢] .

وحيناً ينظر إلى الخنافس ، كيف يسقط إلى المقاييس أنها تجاب الرزق ، وأن دنوها دليل على رزق حاضر من صلة ، أو جائزة ، أو ربح ، أو هدية ، أو حظ ، وكيف تدخل في قمص الناس ، فتنفذ إلى سراويلاتهم ، فلا يقولون لها قليلاً ولا كثيراً ، وكيف يدفعونها ببعض الرفق ، وينظر إلى الذباب الكبير ، الشديد البطش ، الجهير الصوت ، كيف كانوا يحتالون في صرفه وطرده ، إذا أكربهم بكثرة طنينه وزجله وهماهمه ، وكيف صاروا يعتقدون أنه مبشر بقدوم غائب ، وبرء سقيم ، فصاروا إذا دخل منازلهم وأوسعهم شرًّا لم يهجه أحد منهم .

ينظر إلى هذا فيرى في أضعافه قدرة خالق يمد في الآجال مرة ، ويقصّر من الأعمار مرة ، ويهيئ لكل واحدة منهما سبباً ، فلا يسعه إلا الاعتراف بهذه القدرة فيقول :

---

(١) كتاب الحيوان — الجزء الثالث ص ٤٧ .
(٢) « « السابع ص ١٩ .

« وإذا أراد الله عز وجل أن ينسئ في أجل شيء من الحيوان ، هيأ لذلك سبباً ، كما أنه إذا أراد أن يقصر عمره ، هيأ له سبباً ، فتعالى الله علواً كبيراً » .

ولقد ظهر هذا الشعور في قوله[1] :

« اعلم رحمك الله تعالى أن الله عز وجل قد أضاف ست سور من كتابه إلى أشكال من أجناس الحيوان الثلاثة ، منها مما يسمونه باسم البهيمة ، وهي سورة البقرة ، وسورة الأنعام ، وسورة الفيل ، وثلاثة [منها] مما يعدون اثنتين منها من الهمج ، وواحدة من الحشرات ، فلو كان موقع ذكر هذه البهائم وهذه الحشرات والهمج من الحكمة والتدبير موقعها من قلوب الذين لا يعتبرون ولا يفكرون ولا يميزون ولا يحصلون الأمور ولا يفهمون الأقدار ، لما أضاف هذه السور العظام ، الخطيرة الشريفة الجليلة ، إلى هذه الأمور المحقرة السخيفة ، والمغمورة المقهورة ، ولأمر ما وضعها في هذا المكان ، ونوه بأسمائها هذا التنويه ، وأنا ذاكر من شأن الضفدع من القول ما يحضر مثلي ، وهو قليل في جنب ما عند علمائنا ، والذي عند علمائنا لا يحسن في جنب ما عند الله تبارك وتعالى » .

وظهر شعوره الديني في غير هذه المواطن ، فإذا أطنب في ذكر العظيم الجثة من الحيوان . فلا يطنب في شيء من ذلك لعظم جثته ، وإنما يلتمس ما كان أكثر أعجوبة وأبلغ في الحكمة ، وأدل عند العامة على حكمة الرب[2] .

وبلغ من حرصه على الدين ، أنه رأى الخطأ في الدين أضر من الخطإ في كل علم من العلوم ، فقال في كلامه على الترجمة في عصره وعلى شروط هذه الترجمة وعلى خطإ المترجم[3] :

« والخطأ في الدين أضر من الخطإ في الرياضة والصناعة والفلسفة والكيمياء ، وفي بعض المعيشة التي يعيش بها بنو آدم » .

(١) كتاب الحيوان — الجزء الخامس ص ١٥٢ .
(٢) « « « ص ٤٩ .
(٣) « « الأول ص ٣٩ .

وهو يجد كتب الله تعالى أنفع وأشرف من كتب الأوائل ، وما اشتملت عليه من عجيب حكمة ، ومن سيرة ، قال[١] :

« وأكثر من كتبهم نفعاً ، وأشرف منها خطراً ، وأحسن موقعاً ، كُتُب الله تعالى التي فيها الهدى والرحمة ، والإخبار عن كل حكمة ، وتعريف كل سيئة وحسنة » .

وقد علمنا أن الزندقة مستفيضة في عصر الجاحظ ، ومر بنا أن من الذين اتهموا بهذه الزندقة حماد الراوية ، وقد عرض به حماد بن الزبرقان بأبيات ذكرت في محلها ، منها :

وحبوت من زعم السماء تكونت. والأرض خالقها لها لم يمهد

وقد قال الجاحظ بعد هذا الشعر : فليس يقول أحد إن الفلك بما فيه من التدبير تكون بنفسه ومن نفسه .

وتعرض الجاحظ لجماعة من الذين اتهموا بالزندقة ، واستنكر استفاضتها ، على نحو ما تبين لنا ذلك في كلامنا على عصره إذ قال :

« وقد ترك هذا الجمهور الأكبر والسواد الأعظم ، التوقف عند الشبهة والتثبت عند الحكومة جانباً ، وأعرضوا عنه صفحاً فليس إلا : لا أو نعم ، إلا أن قولهم : لا ، موصول منهم بالغضب ، وقولهم : نعم ، موصول منهم بالرضى ، وقد عزل الحق جانباً ، ومات ذكر الحلال والحرام ، ورفض ذكر القبيح والحسن » .

إن هذا كله يدلنا دلالة واضحة على أن الجاحظ لم يضعف شعوره الديني ، فإن نسبته إلى الجهالات والضلالات ، والشك في دينه ، واتهامه بالكفر والنفاق ، كل هذا لا يخلو من تحامل ظاهر ، وأظن أنهم ما طعنوا فيه هذا المطعن إلا لمخالفته إياهم في أصل الدين ، فإن الرجل يستند في تفسير الآيات وتأويل الأحاديث إلى عقله ، على نحو ما يظهر لنا ذلك في الفصل الآتي .

---

(١) كتاب الحيوان — الجزء الأول ص ٤٣ .

مذهب الجاحظ في التفسير والتأويل

علمنا من قبل أن الجاحظ يعتمد في تحقيق العلم على العقل ، وقد وضحنا مذاهبه في هذا الباب ، ولم يقتصر في إعماله العقل على العلم أو على الفاسفة ، وإنما أعمل هذا العقل في الدين ، وخاصة في تفسير الآيات وتأويل الأحاديث ، وشأننا في هذا المقام أن ننتخب نماذج من تفسيره وتأويله ظهرت عليها آثار العقل ، وغايتنا في انتخابنا تبيين الصفة الغالبة من صفات الجاحظ وهي صفة المفكر ، فلسنا نرمي إلى التخطئة والتصويب في هذه السبيل ، فلكل رأيه في التفسير والتأويل ، وما لنا في هـذا الرأي إلا الحيدة التامة .

قد كنت ذكرت في كلامي على ثقافة الجاحظ ، وعلى أساتيذه ، قول النظّام في المفسرين : لا تسترسلوا إلى كثير من المفسرين ، وإن نصبوا نفسهم للعامة ، وأجابوا فى كل مسألة ، إلى آخر هذا القول ، وبينت أن الجاحظ يشارك النظّام في هذا الرأي ، فمن قول الجاحظ في هذا الباب[1] :

« وليس يؤتى القوم إلا من الطمع ، ومن شدة إعجابهم بالغريب من التأويل » .

فمذهب الجاحظ في التفسير والتأويل اجتناب الغريب منهما ، فقد تمر به أحاديث يحتج بها طائفة من القوم ، فيردها دون شيء من التصديق ، وقد يختلف هذا الرد ، فمرة يردها ردًّا مجرداً دون الإفاضة في بيان العلة ، من هذا الشكل قوله[2] :

« هشام بن عروة قال : أخبرني أبي أن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها ، كانت تقتل الأوزاغ » .

---

(١) كتاب الحيوان — الجزء الأول ص ١٦٩ .

(٢) كتاب الحيوان — الجزء الرابع ص ٩٦ .

« يحيى بن أبي أنيسة ، عن الزهري ، عن عروة ، عن عائشة ، قالت : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول للوزغ : فويسق ، قالت : ولم أسمع رسول الله صلى الله عليه وسلم أمر بقتله » .

« عبد الرحمن بن زياد قال : أخبرني هشام ، عن عروة ، عن عائشة : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال للوزغ : الفويسق » .

«أبو بكر الهذلي ، عن معادة ، عن عائشة ، قالت : دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم عليّ ، وفي يدي عكاز فيه زج ، فقال : يا عائشة ما تصنعين بهذا ؟ قلت : أقتل به الوزغ في بيتي ، قال : إن تفعلي ، فإن الدواب كلها حين أُلقي إبراهيم عليه السلام في النار ، كانت تطفئ عنه ، وإن هذا كان ينفخ عليه ، فصم وبرص » .

« وهذه الأحاديث كلها يحتج بها أصحاب الجهالات ، ومن زعم أن الأشياء كانت كلها ناطقة ، وأنها أُمم مجراها مجرى الناس » .

ومرة يردها لأن رواتها يروونها دون توضيح شيء من عللها وبرهاناتها ، مقتصرين فيها على ظاهر ألفاظها ، فالجاحظ لا يصدقها ، فلنضرب مثلاً لذلك[1] :

بحث الجاحظ عن الكلام المتروك ، والأسماء التي زالت مع زوال معانيها ، كالغلامة بمعنى الجارية ، وكالمرباع والنشيطة ، وعن الأسماء التي حدثت في الإسلام ولم تكن في الجاهلية ، وإنما اشتقت من أسماء متقدمة على التشبيه ، مثل قولهم لمن أدرك الجاهلية والإسلام : مخضرم ، ومثل قولهم : المنافق والمشرك والكافر والتيمم .

وبحث عن بعض كلام كرهوه ، كما روي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : لايقولن أحدكم خبثت نفسي ، ولكن ليقل : لقست نفسي ، كأنه كره أن يضيف المؤمن الطاهر إلى نفسه الخبث والفساد بوجه من الوجوه .

وبعد أن أفاض بعض الإفاضة في أشباه هذه المباحث قال :

---

(١) كتاب الحيوان — الجزء الأول ص ١٦٦ .

« وقد كرهوا أشياء ممـا جاءت في الروايات لا تعرف وجوهها ، فرأى أصحابنا لا يكرهونها ، ولا نستطيع الرد عليهم ، ولم نسمع لهم في ذلك أكثر من الكراهة ، ولو كانوا يروون الأمور مع عللها و برهاناتها خفت المؤنة ، ولكن أكثر الروايات مجردة ، وقد اقتصروا على ظاهر اللفظ دون حكاية العلة ، ودون الإخبار عن البرهان ، و إن كانوا قد شاهدوا النوعين مشاهدة واحدة ، قال ابن مسعود وأبو هريرة : لا تسموا العنب الكرم ، فان الكرم هو الرجل المسلم ، وقد رفعوا ذلك إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، وأما قوله : لا تسبوا الدهر فإن الدهر هو الله ، فما أحسن ما فسر ذلك عبد الرحمن بن مهدى ، قال : وجه هذا عندنا أن القوم قالوا وما يهلكنا إلا الدهر ، فلما قال القوم ذلك ، قال النبي صلى الله عليه وسلم : ذلك الله ، يعني أن الذي أهلك القرون هو الله عز وجل ، فتوهم منه المتوهم أنه إنمـا أوقع الكلام على الدهر » .

وحيناً يرد الأحاديث ويجادل في ردها ، من هذا القبيل قوله[1] :

«وقالوا في الحديث أنه من اقتنى كلباً ليس بكلاب زرع ولا ضرع ولا قنص فقد أثم ، . . .

و بعد ، فلعل النبي صلى الله عليه وسلم قال هذا القول ، إن كان قاله ، على الحكاية لأقاويل قوم ، ولعل ذلك كان على معنى كان يومئذ معلوماً ، فترك الناس العلة ، ورووا الخبر سالماً من العلل ، مجرداً غير مضمَّن ، ولعل من سمع هذا الحديث شهد آخر الكلام ولم يشهد أوله ، ولعله عليه الصلاة والسلام قصد بهذا الكلام إلى ناس من أصحابه قد كان دار بينهم و بينه فيه شيء ، وكل ذلك ممكن سائغ ، غير مستنكر ولا مدفوع » .

هـذا مذهبه في رد الأحاديث التي يشك في روايتها ، ولقد ذهب هذا المذهب في تفسير الآيات ، فكما كره الغريب من تأويل الأحاديث ، فقد كره الغريب من تفسير الآيات ، ولم يخل من تهكم على بعض المفسرين ، وقد يظهر تهكمه من مجرد

(١) كتاب الحيوان — الجزء الأول ص ١٤٧ .

ذكره لتفسيرهم ، من هذا النوع قوله وقد ذكرته من قبل[(١)] :

« وزعم بعض المفسرين وأصحاب الأخبار أن أهل سفينة نوح كانوا تأذوا بالفأر فعطس الأسد عطسة ، فرمى منخريه بزوج سنانير ، فلذلك السنور أشبه شيء بالأسد ، وسلح الفيل زوج خنازير ، فلذلك الخنزير أشبه شيء بالفيل .

قال كيسان : فينبغي أن يكون ذلك السنور آدم السنانير ، وتلك السنورة حواءها ! وضحك القوم » .

نعم ، يكره الجاحظ الغريب من التفسير ، ومن تفرغه لتأويل قولٍ رفع إلى أبي موسى نعرف مقدار إحاطته ببواطن الأمور ، فهو لا يقتصر على ظواهرها ، وإنما يتولى الكشف عن أسرارها ، وهذا تأويله الذي أشرت إليه[(٢)] :

« وعن قتادة أن أبا موسى قال : لا تتخذوا الدجاج في الدور ، فتكونوا أهل قرية ، وقد سمعتم ما قال الله تعالى في أهل القرى (أَفَأَمِنَ أهل القرى أن يأتيهم بأسنا بياتاً وهم نائمون) ، وهذا عندي من أبي موسى ليس على ما يظنه الناس ، لأن تأويله هذا ليس على وجه ، ولكنه كره للفرسان ورجال الحرب اتخاذَ ما يتخذه الفلاح الفرسان وأصحاب التعيُّش ، مع حاجته يومئذ إلى تفرغهم لحروب العجم ، وأخذهم في تأهب الفرسان ، وفي دربة رجال الحرب ، فإن كان ذهب إلى الذي يظهر في اللفظ فهذا التأويل مرغوب عنه » .

وقبل أن أتعرض لذكر طائفة من أنماط تفسيره لا أرى بأساً برواية بعض كلام له يدل على مقدار كراهيته للغريب من تأويل أي شيء كان ، حتى قال : ولم يهلك الناس شيء كالتأويل ، وهذا هو كلامه[(٣)] :

« ويقول الناس : فلان مخدوم ، يذهبون إلى أنه إذا عزم على الشياطين والأرواح والعمار أجابوه وأطاعوه ، فمنهم عبد الله بن هلال الحميري الذي كان يقال له صديق

(١) كتاب الحيوان — الجزء الأول ص ٦٧ .
(٢) « « الأول ص ١٤٣ .
(٣) « « السادس ص ٦١ .

إبليس ، ومنهم كرباش الهندي ، وصالح المديبري ، وقد كان عبيد يقول : إن العامر حريص على إجابة العزيمة ، ولكن البدن إذا لم يصلح أن يكون [له] هيكلاً لم يستطع دخوله ، والحيلة في ذلك أن يتبخر باللبان الذكر ، ويراعى سير المشتري ، ويغتسل بالماء القراح ، ويدع الجماع وأكل الزهومات ، ويتوحش في الفيافي ، ويكثر دخول الخرابات ، حتى يرق ويلطف [ويصفو] ويصير فيه مشابه من الجن ، فإن عزم عند ذلك فلم يجب فلا يعودن لمثلها ، فإنه ليس ممن يكون بدنه هيكلاً لها ، ومتى عاد خُبِطَ ، فربما جن ، وربما مات ، قال : فلو كنت ممن يصلح أن يكون لهم هيكلاً لكنت فوق عبد الله بن هلال ، قال الأعراب : وربما نزلنا بجمع كثير ، ورأينا خياماً وقباباً وناساً ثم فقدناهم من ساعتنا ، والعوام تروي أن ابن مسعود ، رضي الله عنه ، رأى رجلا من الزط ، فقال : هؤلاء أشبه من رأيت بالجن ليلة الجن ، قال : وقد روي عنه خلاف ذلك ، وتأولوا قوله تعالى : (وأنه كان رجال من الإنس يعوذون برجالَ من الجن فزادوهم رَهقاً) ، ولم يهلك الناسَ كالتأويل ، ومما يدل على ما قلنا قول أبي النجم حيث يقول :

☼ بحيث تستن مع الجن الغول ☼

فأخرج الجن من الغول الذي بانت به [من] الجن ، وهكذا عادتهم أن يخرجوا الشيء من الجملة بعد أن دخل ذلك الشيء في الجملة فيظهر لأمر خاص ، وفي بعض الرواية أنهم كانوا يسمعون في الجاهلية من أجواف الأوثان همهمة ، وأن خالد بن الوليد حين هدم العزَّى رمته بالشرر ، حتى احترق عامة فخذه ، حتى عوذه النبي صلى الله عليه وسلم ، وهذه فتنة لم يكن الله تعالى ليمتحن بها الأعراب [وأشباه الأعراب] من العوام ، وما أشك أنه كان للسدنة حيل وألطاف لمكان التكسب » .

من هذا يتبين لنا أنه يرد الأمور إلى حقائقها ، ويبين في كل فتنة جواهر عللها ، فليس في أجواف الأوثان شيء من الهمهمة ، وإنما هي حيل وألطاف يلجأ إليها السدنة على سبيل التكسب .

فلنعجل بعد هذا كله ، فنبين مواطن من تفسيره ظهرت عليها آثار عقله .

مرّة يحمل اللفظ على ظاهره ، فالشيطان فى اللغة معروف أمره ، ولكن من المفسرين من فسر رؤوس الشياطين في الآية الوارد ذكرها تفسيراً عدّه الجاحظ غريباً ، وتفرّغ لردّ التفسير إلى حقائقه ، مبيناً السبب الذي من أجله قد نستقبح الشيء ولم نر صورته ، فمن كلام للجاحظ في خلال تفسير بعض الآيات قوله في تأويل هذه الآية[1] :

«(إنها شجرة تخرج في أصل الجحيم ، طلعها كأنه رؤوس الشياطين) ، قال الجاحظ في تأويل هذه الآية : « وليس أن الناس رأوا شيطاناً قط على صورة ، ولكن لما كان الله قد جعل في طباع جميع الأمم استقباح جميع صور الشياطين ، واستسماجه وكراهته ، وأجرى على ألسنة جميعهم ضرب المثل في ذلك ، رجع بالإيحاش والتنفير ، وبالإخافة والتقريع إلى ماقد جعله الله في طباع الأولين والآخرين ، وعند جميع الأمم ، على خلاف طبائع جميع الأمم ، وهذا التأويل أشبه من قول من زعم من المفسرين أن رؤوس الشياطين نبات ينبت باليمن » .

ومرّة يحمل الكلام على باطنه ، فالتين في اللغة والزيتون معروف أمرهما ، ولكن الجاحظ في تفسير قوله تعالى : (والتين والزيتون) ، لم يقف عند ظاهر المعنى ، وإنما نفذ إلى بواطن الأمور استنباطاً للحكم منها ، من هذا النحو قوله[2] :

« وقد قال الله عز وجل : (والتين والزيتون) ، فزعم زيد بن أسلم أن التين دمشق ، والزيتون فلسطين ، وللغالية في هذا تأويل أرغب بالعترة عنه وذكره . . . . . .

والكلمات في هذا الموضع ليس يريد بها القول والكلام المؤلف من الحروف ، وإنما يريد النعم والأعاجيب والصفات وما أشبه ذلك ، فإن كلاًّ من هذه الفنون لو وقف عليه رجل رقيق اللسان ، صافي الذهن ، صحيح الفكر ، تام الأداة ، لما برح أن تحشره المعاني ، وتغمره الحكم » .

---

(١) كتاب الحيوان — الجزء الرابع ص ١٣ .
(٢) « « « الأول ص ٩٧ .

وحيناً يعترض المعترضون في بعض الآيات ، فيتجرد الجاحظ لردهم إلى الصواب ، ذاهباً في هذا مذهب المتكلمين ، من هذا القبيل قوله[١] :

« وسنذكر مسألة كلامية ، وإنما نذكرها لكثرة من يعترض في هذا ممن ليس له علم بالكلام ، ولو كان أعلم الناس باللغة لم ينفعك في باب الدين حتى يكون عالماً بالكلام ، وقد اعترض معترضون في قوله عز وجلّ : (واتلُ عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين ، ولو شئنا لرفعناه بها ، ولكنه أخلد إلى الأرض ، واتبع هواه ، فمثله كمثل الكلب ، إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث ، ذلك مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا) ، فزعموا أن هذا المثل لا يجوز أن يضرب لهذا المذكور في صدر هذا الكلام ، لأنه قال : (واتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا ، فانسلخ منها) ، فما يشبه حال من أعطي شيئاً فلم يقبله ولم يذكر غير ذلك بالكلب الذي إن حملت عليه نبح وولى ذاهباً ، وإن تركته شد عليك ونبح ، مع أن قوله : يلهث ، لم يقع في موضعه ، وإنما يلهث الكلب من عطش شديد ، وحرّ شديد ، ومن تعب ، وأما النباح والصياح فمن شيء آخر ، قلنا له : إن قال : ذلك مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا ، فقد يستقيم أن يكون الرادّ لا يسمى مكذباً ، ولا يقال لهم كذبوا إلا وقد كان ذلك منهم مراراً ، فإن لم يكن ذلك فليس ببعيد أن يشبه الذي أوتي الآيات والأعاجيب والبرهانات والكرامات ، في بدء حرصه عليها ، وطلبه لها ، بالكلب في حرصه وطلبه ، فإن الكلب يعطي الجد والجهد من نفسه في كل حالة من الحالات ، وشبه رفضه وقذفه لها من يديه ، ورده لها بعد الحرص عليها وفرط الرغبة فيها ، بالكلب إذا رجع ينبح بعد إطرادك له ، وواجب أن يكون رفض قبول الأشياء الخطيرة النفيسة ، في وزن طلبها ، والحرص عليها ، والكلب إذا أتعب نفسه في شدة النباح مقبلاً إليك ، ومدبراً عنك ، لهث واعتراه ما يعتريه عند التعب والعطش ، وعلى أننا ما نرمي بأبصارنا إلى كلابنا ، وهي رابضة وادعة ، إلا وهي

---

(١) كتاب الحيوان — الجزء الثاني ص ٦ .

تلهث من غير أن تكون هناك إلا حرارة أجوافها ، والذي طبعت عليه من شأنها ، إلا أن لهث الكلب يختلف بالشدة واللين » .

وحيناً يطعن في بعض الآيات ناس من الملحدين ، و بعض من لا علم له بلغة العرب ، و بمداخلها ومخارجها ، فيهديهم الجاحظ سواء السبيل ، مفصلاً لهم مذاهب لغة العرب أدق تفصيل ، من هذا النوع قوله :[1]

« وقد طعن ناس من الملحدين ، و بعض من لا علم له بوجوه اللغة ، وتوسع العرب في لغتها ، وفهم بعضها عن بعض بالإشارة والوحي ، فقالوا : قد علمنا أن الشمع شيء تنقله النحل مما يسقط على الشجر ، فتبني بيوت العسل منه ، ثم تنقل من الأشجار العسل الساقط عليها ، كما يسقط الترنجبين والمن وغير ذلك ، إلا أن مواضع الشمع وأبدانه [خفي ، وكذلك العسل] أخفى وأقل ، فليس العسل بقيء ولا رجْعٍ ، ولا دخل للنحلة في بطن قط ، وفي القرآن قول الله عز وجل : (وأوحى ربك إلى النحل أن اتخذي من الجبال بيوتاً ومن الشجر ومما يعرشون ، ثم كلي من كل الثمرات فاسلكي سبل ربك ذللاً ، يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه ، فيه شفاء للناس ، إن في ذلك لآية لقوم يتفكرون) ، ولو كان إنما ذهب إلى أنه شيء يلتقط من الأشجار ، كالصموغ ومايتولد من طباع الأنداء والأجواء ، والأشجار إذا تمازجت ، لما كان في ذلك عجب إلا بمقدار ما نجده في أمور كثيرة ، قلنا : فقد زعم ابن حائط ، وناس من جهال الصوفية ، أن في النحل أنبياء ، لقوله عز وجل : (وأوحى ربك إلى النحل) ، وزعموا أن الحواريين كانوا أنبياء ، لقوله عز وجل : (وإذ أوحيت إلى الحواريين) ، قلنا : وما خالف إلى أن يكون في النحل أنبياء ، بل يجب أن تكون النحل كلها أنبياء ، لقوله عز وجل على المخرج العام : (وأوحى ربك إلى النحل) ، ولم يخص الأمهات والملوك واليعاسيب ، بل أطلق القول إطلاقاً . و بعد فإن كنتم مسلمين ، فليس هذا قول أحد من المسلمين ، وإلا تكونوا مسلمين ، فلم

(١) كتاب الحيوان — الجزء الخامس ص ١٢٨ .

تجعلون الحجة على نبوة النحل كلاماً هو عندكم باطل ، وأما قوله عز وجل : (يخرج من بطونها شراب) ، فالعسل ليس بشراب ، وإنما [هو شيء] يحول بالماء شراباً أو بالماء نبيذاً ، فسماه كما ترى شراباً ، إذا كان يجيء منه الشراب ، وقد جاء في كلام العرب أن يقولوا : جاءت السماء اليوم بأمر عظيم ، وقد قال الشاعر :

إذا سقط السماء بأرض قوم رعيناه وإن كانوا غضابا

فزعموا أنهم يرعون السماء ، وأن السماءَ تسقط ، ومتى خرج العسل من جهة بطونها وأجوافها [فقد خرج في اللغة من بطونها وأجوافها] ، ومن حمل اللغة على هذا المركب لم يفهم عن العرب قليلاً ولا كثيراً ، وهذا الباب هو مفخر العرب في لغتهم ، وبه قال ، وبأشباهه اتسعت ، وقد خاطب بهذا الكلام أهل تهامه وهذيلاً وضواحي كنانة ، هؤلاءِ أصحاب العسل ، والأعراب أعرف بكل صمغة سائلة ، وعسلة ساقطة ، فهل سمعتم بأحد أنكر هذا البيان ، أو طعن عليه من هذه الحجة » .

والأمثال في هذا الباب كثيرة ، فإذا حاولنا الاستقصاء فيها تراخى الكلام ، فالذي يستخرج من كل ما تقدم أن الجاحظ في أمور الدين يذهب مذهبه في أمور العلم ، فكما نبّه في العلم على المسائل التي خرج فيها أصحابها من العقل ، فكذلك نبّه في أمور الدين على المسائل التي لا تطابق العقل ، وتنبيهه كان على أساليب شتى ، ذكرت شيئاً منها ، ومهما تختلف هذه الأساليب ، فإن جوهرها واحد ، فالجاحظ لا يريد إلا العلة وإلا البرهان في كل مسألة من المسائل ، ولقد عابوه باستهزائه من بعض الأحاديث ، أو من بعض الآيات ، ولو أنصفوا لعدّوا له فضلاً عظيماً في التفسير والتأويل ، فقد تبين لنا كيف يتفرغ للرد على بعض الطاعنين في القرآن ، فيهيب بهم إلى الصواب ، آخذاً عليهم مداخل الطرق ومخارجها ، يحمل الألفاظ مرةً على ظواهرها إذا كانت الحكمة في حملها على الظواهر ، ومرةً يحملها على بواطنها إذا كانت الحكمة في حملها على البواطن ، حتى لا يبقى للطاعنين متنفس يتنفسون منه .

ضحك الجاحظ

أدرج في هذا الفصل من أُفق من آفاق الجاحظ تتسع فيه أفياء الحقيقة ، إلى أُفق ينبسط فيه سلطان الجمال ، إن قطع عضو من أعضاء الحيوان ، أو إلقاء السم على هذا الحيوان ، أو استقصاء صفاته ، أو دفنه في النبات ، أو ذوقه ، أو بعج بطنه ، أو جمع أضداده في إناء ، إن هذا كله لا تلتمس فيه إلا الحقيقة ، وسواء أكانت هذه الحقيقة بنت الحواس أم كانت بنت العقل ، إنها جافَّة ، وأيُّ طراوة في تجارب نجرّبها في ضب ، أو في حية ، أو في ظليم ، أو في خنفساء ، أو في عقرب ، أو في جرَذ ، أو في نملة ، ولكن عبقرية البشر لا يتعاظمها تصوير الحقائق في صورة يتغير فيها الجفاف إلى الطراوة ، واليبس إلى الغضاضة ، وهذا التصوير إنما هو من عمل الفن ، فإذا أردنا أن ندرك قدرة الجاحظ عليه لزمنا أن نعجل إلى الإحاطة بناحية من نواحيه ، تنشىء لنا لذة تروّض قوانا العقلية ، فيخرج العقل من هذه الرياضة أقوى سلطاناً ، وأمرن طبيعة ، وأغنى مادة .

فها أنا أخرج من باب علم الجاحظ إلى باب فنه ، ولا يخطرن على بال أحد أن العلم والفن ضدان ، فالحقيقة أخت الجمال ، و إذا أردنا أن نعلم مقدار اتصالها بالجمال ، فلنسمع ما قاله واضع علم الكيمياء الحديث ، قال لافوازيه (Lavoisier) :

« ولما كانت الألفاظ هي التي تحفظ الأفكار وتنقلها ، نشأ عن ذلك أننا لا نستطيع تجويد اللغة إلاَّ إذا جوّدنا العلم ، ولا نستطيع تجويد العلم إلاَّ إذا جوّدنا اللغة ، ومهما تكن الأمور أكيدة ثابتة ، ومهما تكن الأفكار التي تولدها هذه الأمور صحيحة ، فإذا لم يتهيأ لنا بيان صحيح يعرب عن هذه الأفكار فلا ننقل إلا انفعالات خاطئة » .

هذا مقدار عطف عالم من أجل العلماء على الفن ، و إلى القارئ رأي اديب يفصح عن عطفه على العلم ، فقد تمنى موريس دوني (Maurice Donnay) في خطاب خطبه في الأكادمية أن ينشأ الأدب والعلم معاً كما ينشأ الشقيقان .

فالعلم والفن صنوان ، فلنعجل إلى البحث عن فن الجاحظ . أول جهة من جهات هذا الفن تهكم الجاحظ ، وقبل أن أتعرض للكلام على تهكمه لا بأس بإمضاء القول في أضاحيك الجاحظ .

للجاحظ ولع شديد بالضحك والإضحاك . فكأنما لا ينظر إلى الحياة إلا من وجهها المشرق ، وأي شيء أدل على فرط اهتمامه بالضحك من هـذه السطور التي تمثل لنا مقدار تفننه في بيان وجوه استحسانه ، وتأثيره في الطباع ، قال أبو عثمان[١] :

« ولو كان الضحك قبيحاً من الضاحك ، وقبيحاً من المضحك ، لما قيل للزَهْرة والحِبَرة والحَلْي والقصر المبني : كأنه يضحك ضحكاً ، وقد قال الله جلّ ذكره : (وأنه هو أضحك وأبكى ، وأنه هو أمات وأحيي) ، فوضع الضحك بحذاء الحياة ، ووضع البكاء بحذاء الموت ، و إنه لا يضيف الله إلى نفسه القبيح ، ولا يمنّ على خلقه بالنقص ، وكيف لا يكون موقعه من سرور النفس عظيماً ومن مصلحة الطباع كبيراً ، وهو شيء في أصل الطباع ، وفي أساس التركيب ، لأن الضحك أول خير يظهر من الصبي ، وقد تطيب نفسه ، وعليه ينبت شحمه ، و يكثر دمه ، الذي هو علة سروره ، ومادة قوته ، ولفضل خصال الضحك عند العرب تسمي أولادها بالضحاك و ببسام و بطاق و بطليق ، وقد ضحك النبي صلى الله عليه وسلم وفرح ، وضحك الصالحون وفرحوا ، و إذا مدحوا قالوا : هو ضحوك السن ، و بسام العشيات ، وهش إلى الضيف ، وذو أريحية واهتزاز ، و إذا ذموا قالوا : هو عبوس ، وهو كالح ، وهو قطوب ، وهو شتيم المحيا ، وهو مكفهرّ أبداً ، وهو كريه ، ومقبض الوجه ، وحامض الوجه ، وكأنما وجهه بالخل منضوح . وللضحك موضع وله مقدار ، وللمزح موضع

---

(١) كتاب البخلاء — مطبعة الجمهور ص ٦ .

وله مقدار ، متى جازهما أحد ، وقصر عنهما أحد ، صار الفضل خطلاً ، والتقصير نقصاً ، فالناس لم يعيبوا الضحك إلا بقدر ، ولم يعيبوا المزح إلا بقدر ، ومتى أريد بالمزح النفع ، وبالضحك الشيء الذي جعل له الضحك ، صار المزح جدًّا ، والضحك وقاراً » .

لم تفلت الجاحظ حجة من الحجج في دفاعه عن الضحك ، فهو يستعين بكل شيء في هذا الدفاع ، يستعين بالأدب وبالقرآن وبالطب وبالنبي وبالصالحين ، وهذه طريقته في تقرير معنى يستأنس به ، وما هذا المعنى في مقامنا إلا الضحك ، فالجاحظ مولع بالضحك ، ولكنه لا يريد أن ينفرد به ، وإنما يحاول أن يشارك فيه قراء كتبه ، فكأنما يحاول أن يحمل هؤلاء القراء على النظر إلى الحياة من الوجه الذي ينظر إليه منها ، فهو يحرص الحرص كله على إضحاك القارئ خوفاً من ملالته وسآمته ، فيصرف كل همه إلى إدخال السرور على قلبه ، والنشاط على ذهنه ، بما يهتدي إليه من النوادر والغرائب ، ولقد وضَّح حرصه هذا في مواطن كثيرة من كتبه ، وخاصة كتاب الحيوان ، وما خصصت هذا الكتاب إلا لجعله فيه للعلم أوفى نصيب ، فقبل أن يتفرغ للبحث عن الضب والغول والجن والهدهد والتمساح والظبي والأرانب والظربان وغير ذلك ، يستوقف القارئ في مقدمة كلامه ، ويعاهده على إضحاكه بشيء من النوادر ، والأخبار ، أو الأشعار ، خوفاً من إضجاره ، فمن المواطن التي استوقف فيها القارئ قبل أن يندفع في مباحث جافة ، وعلله فيها بالإضحاك ، موطن يقول فيه[1] :

« وليس من الأبواب باب إلا وقد يدخله نتف من أبواب أخر ، على قدر ما يتعلق بها من الأسباب ، ويعرض فيه من التضمين ، ولعلك أن تكون بها أشد انتفاعاً ، وعلى أني ربما وشَّحت [هذا الكتاب] وفصَّلت فيه بين الجزء والجزء بنوادر كلام ، وطرف أخبار ، وغرر أشعار ، مع طُرَف مضاحيك ، ولولا الذي نحاول من استعطافٍ على استتمام انتفاعكم لقد كنا تسخَّفْنا وسخَّفنا شأن كتابنا هذا » .

---

(١) كتاب الحيوان — الجزء السادس ص ٦ .

فنحن نرى في هذا الكلام مقدار اعتنائه بالإشارة إلى مضاحكه ، والتنبيه عليها .

ولقد فصل مذهبه أوضح تفصيل في قوله[١] :

« وإن كنا قد أمللناك بالجد ، وبالاحتجاجات الصحيحة والمروَّجة ، لتكثر الخواطر ، وتُشحذ العقول ، فإنا سنُنَشِّطُك ببعض البطالات ، وبذكر العلل الظريفة ، والاحتجاجات الغريبة ، فرب شعر يبلغ بفرط غباوة صاحبه [من السرور والضحك والاستطراف] ما لا يبلغه [حشدُ] أحر النوادر ، وأجمع المعاني ، وأنا أستظرف أمرين استظرافاً شديداً : أحدهما استماع حديث الأعراب ، والأمر الآخر ، احتجاج متنازعين في الكلام وهما لا يحسنان منه شيئاً ، فإنهما يثيران من غريب الطيب ما يضحك كل ثكلان وإن تشدد ، وكل غضبان وإن أحرقه لهيب الغضب ، ولو أن ذلك لا يحل لكان في باب اللهو والضحك والسرور والبطالة والتشاغل ما يجوز في كل فن ، وسنذكر من هذا الشكل عللاً ، ونورد عليك من احتجاجات الأغبياء حججاً ، فإن كنت ممن يستعمل الملالة ، وتعجل إليه السآمة ، كان هذا الباب تنشيطاً لقلبك ، وجماماً لقوتك ، ولتبتدئ النظر في باب الحمام ، وقد ذهب [عنك] الكلال ، وحدث النشاط ، وإن كنت صاحب علم وجد ، وكنت ممرناً موقَّحاً ، وكنت إلف تفكير وتنقير ، ودراسة كتب ، وحلف تبيُّن ، وكان ذلك عادة لك ، لم يضرك مكانه من الكتاب ، وتخطيه إلى ما هو أولى بك ، وعلى أني قد عزمت ، والله الموفق ، أني أوشح هذا الكتاب وأفصل أبوابه بنوادر من ضروب الشعر ، وضروب الأحاديث ، ليخرج قارئ هذا الكتاب من باب إلى باب ، ومن شكل إلى شكل ، فإني رأيت الأسماع تمل الأصوات المطربة ، والأغاني الحسنة ، والأوتار الفصيحة ، إذا طال ذلك عليها ، وما ذلك إلا في طريق الراحه التي إذا طالت أورثت الغفلة ، وإذا كانت الأوائل قد سارت في صغار

---

(١) كتاب الحيوان — الجزء الثالث ص ٢ .

الـكتب هذه السيرة ، كان هذا التدبير لما طال وكثر أصلح ، وما غايتنا من ذلك كله إلا أن تستفيدوا خيراً » .

وللجاحظ مقامات كثيرة أشار فيها إلى ولعه بالإضحاك ، أكتفي بالقدر اليسير الذي ذكرته تفادياً من التطويل ، ولقد كان في تكريره هذه الإشارة دليل واضح على شغل ذهنه بالإضحاك . وإذا علمنا أن الجاحظ عاش في عصر نقلت فيه كتب الهند ، وترجمت حكم اليونانيين ، وحوّلت آداب الفرس ، إذا علمنا أن عصر الجاحظ كان عصر حساب وطب ومنطق وهندسة وفلسفة وفلاحة وتجارة ، وغير ذلك من الأبواب التي تتعب الأذهان وتجهد العقول ، إذا علمنا هذا كله لم نعجب من ميـل الجاحظ إلى الاستنشاط ببعض البطالات ، وبذكر العلل الظريفة ، والاحتجاجات الغريبة .

ولكن العلم وحده ، وما طبع به من طابع جاف ، لم يكن السبب الأكبر الذي من أجله لجأ الجاحظ إلى الإضحاك حرصاً على نشاط القارئ ، أفلم يضع كتاب البخلاء الذي قال فيه[1] :

« ولك في هذا الكتاب ثلاثة أشياء : تبيّن حجة طريفة ، أو تعرف حيلة لطيفة ، أو استفادة نادرة عجيبة ، وأنت فى ضحك منه إذا شئت ، وفي لهو إذا مللت الجد » .

ولقد ذهب بعضهم إلى أن ما تضمنه هذا الـكتاب من احتجاج الأشحاء ، ونوادر أحاديث البخلاء ، لا صحة له ، وإنما الجاحظ توخى في هـذا كله مجرد الضحك والإضحاك . على أني لا أستغرب شيئاً مما ورد فى كتاب البخلاء ، فقد تكون نوادره صحيحة ، ومن عرف أخبار البخلاء وجالسهم وخالطهم لا يستبعد كتاب الجاحظ في احتجاجهم ونوادرهم ، فضلاً عن أن الجاحظ لم يخترع الأسماء اختراعاً ، فقد قال في مقدمة البخلاء :

---

(١) كتاب البخلاء ص ٥ .

« وقد كتبنا لك أحاديث كثيرة مضافةً إلى أربابها ، وأحاديث كثيرة غير مضافة إلى أربابها ، إما بالخوف منهم و إما بالإكرام لهم » .

وكيف كان الأمر فلا يخرج كتاب البخلاء عن الإضحاك ، كما لم يخرج طبع الجاحظ عن الضحك والإضحاك ، وربما ذهب فى هذا الباب مذهباً أبعد ، فعمد إلى الأدب المجرد فسمى الأشياء بأسمائها دون شيء من التورية ، وسيأتي الكلام على هذا المذهب .

يستخرج من كل ما تقدم أن الجاحظ مولع بالضحك والإضحاك ، وقد اجتمع له في هذا المعنى ما لا يسهل اجتماعه لغيره ، خلقة مشوهة تعين على المزح والظرف ، وربما كانت مصدر الضحك والإضحاك ، وطبع على الهزل ، فالجاحظ مطبوع على الهزل ، يلتقط النكتة ولو في الطريق ، لا يبالي في سبيلها بمخاطبة العامة ولو أسمعوه ما يكره ، لا تفوته النكتة ولو في ديوان الخلفاء ، ونحن نعلم ما صنعه بابن العيناء لما تقلد خلافة إبراهيم بن عباس الصولي على ديوان الرسائل ، أنه مولع بالنادرة ولو جلبت هذه النادرة أشد الأذى ، ولم يفتنا ما فعله بمحفوظ النقاش فقد أكل اللبأ كله ولم يعبأ بفالجه طمعاً في الضحك والنشاط والسرور ، ومن فرط اهتمامه بالظرافة يخالط أهل الهزل ، و يروي من النوادر ولو على نفسه ، من هذا القبيل قوله (١) :

« فأما الذي أصابني أنا من الذبان ، فإني خرجت أمشي في المبارك (٢) أريد دير الربيع ، ولم أقدر على دابة ، فمررت في عشب [أَشِبٍ] ونبات ملتف ، كثير الذبان ، فسقط ذباب من تلك الذبان على أنفي فطردته ، فلم أقدر ، فتحول إلى عينيَ ، [فطردته ، فعاد إلى موق عيني] ، فزدت في تحريك يدي ، فتنحى عني بقدر شدة حركتي ، وذبي عن عيني ، ولذبان الكلأ والغياض والرياض وقع ليس لغيرها ، ثم عاد إلي فعدت عليه ، ثم عاد [إليّ] فعدت بأشد من ذلك ، فلما عاد

---

(١) كتاب الحيوان — الجزء الثالث ص ١٠٧ .

(٢) المبارك : نهر بالبصرة . ويمشي فيه : أي في شاطئه .

استعملت كمي ، فذببت به عن وجهي ، ثم عاد وأنا في ذلك أحث السير ، أؤمل بسرعتي انقطاعه عني ، فلما عاد نزعت طيلساني من عنقي ، فذببت به عني بدل كمي ، فلما عاود ولم أجد له حيلة استعملت العدو ، فعدوت منه شوطاً [تامًّا] لم أتكلف مثله مذ كنت صبياً ، فتلقاني الأندلسي ، فقال لي : مالك يا أبا عثمان ، هل من حادثة ؟ قلت : نعم ، [أكبر الحوادث] ، أريد أن أخرج من موضع للذبان علي فيه سلطان ، فضحك حتى جلس وانقطع عني ، وما صدقت بانقطاعه عني حتى تباعد جدًّا » .

كلف الجاحظ بالإضحاك أمر بيّن ، وقد بسط مذهبه هذا في أكثر كلامه ، ولست فى حاجة إلى ذكر نادرة من نوادره فى أثناء كلام له على بعض الحيوان ، أو على الفلسفة ، أو على الدين ، فإن هذه النوادر مبعثرة في كتبه ، والحقيقة أن الذهن قد تتعبه أمور العلم فيحتاج إلى التنشيط ، فبينما الجاحظ يمضي القول في العقرب ، وفي مقدار الانتفاع برمادها ، وفي طلبها الإنسان ونحوه ، وفي استخراجها من بيوتها ، إذ تعن على باله نادرة سمعها من أبي عبيدة فيقول[1] :

« قال أبو عبيدة : لسعت أعرابيًّا عقرب بالبصرة ، فخيف عليه ، فاشتد جزعه ، فقال بعض الناس : ليس شيء خير له من أن تغسل له خصية زنجي عرق ، وكانت ليلة غَمِقَة ، فلما سقوه قطب ، فقيل [له] : طعم ماذا تجد ؟ قال : طعم قربة جديدة » .

أو يخبره محمد وعلي ابنا بشير بهذا الخبر ، فيرويه ، فيقول[2] :

« إن ظئراً لسليمان بن رياش لسعتها عقرب ، فملأت الدنيا صراخاً ، فقال سليمان : اطلبوا لها هذه العقرب ، فإن دواءها أن تلسعها لسعة أخرى في ذلك المكان ، فقالت العجوز : قد برئت ، وقد سكن وجعي ، ولا حاجة لي فى هذا العلاج ! قال : فأتوه بعقرب ، لا والله إنْ يُدْرَى أهي تلك أم غيرها ؟ فأمر بها ، فأمسكت ، فقالت :

---

(١) كتاب الحيوان — الجزء الخامس ص ١١١ .
(٢) « « « الخامس ص ١١١ .

أنشدُكَ بالله واللبن ، وأرسلها عليها ، فلسعتها ، فغشي عليها ومرضت [زماناً] ، وتساقط شعر رأسها ، فقيل لسليمان في ذلك ، فقال : يا مجانين ، لا والله إن رد عليها روحها إلا اللسعة الثانية ، ولولا هي لقد كانت ماتت » .

ولا شك في أن أمثال هذه النوادر تخفف من مؤونة البحث والتنقير ، والتعمق والتدقيق ، وإذا جاز لنا أن نؤاخذ الجاحظ بشيء في هـذا الباب ، فإنما نؤاخذه في بعض الأحايين بفرط ولعه بالإضحاك ، فقد يخرجه غلوه في هذا المعنى عن المقدار ، فيرسل مثلاً في كلامه على بعض الحيوان أحاديث ونوادر من الشعر لا تتعلق بهـذا الحيوان ، فكأنما الجاحظ يريد أن يضحك القارئ ويسره كيف كان الأمر ، فهو يعتمد هذا الإضحاك أحياناً ، وهنا موطن الكلفة ، وموقع الإفراط ، فإذا تعمدنا الإضحاك فقليلاً ما نضحك ، والنادرة إن لم تكن بنت الطبع كانت فاترة .

وهذا المذهب الذي يلجأ اليه ليس فيه شيء من قوارص الكلام ، وربما أوحاه إليه عصره وطبعه ، وقد قلد فيه الأوائل ، فقد سمعنا قوله في هذا المعنى : وإذا كانت الأوائل قد سارت في صغار الكتب هذ السيرة ... ولكننا لا ندري من هم الأوائل ، أهم العرب أنفسهم ، أم هم اليونانيون ، أم الفرس ، أم أهل الهند ، وفي كل حال لم يتوخَّ الجاحظ في إضحاك القارئ إلا التنشيط والاستجمام . وسنتعرض في الفصل الآتي للمذهب المبني على القوارص ، وهو التهكم .

تهكم الجاحظ

إلى جنب هذا المذهب الذي ذهبه الجاحظ فى الضحك والإضحاك مذهب آخر، وهو التهكم، ولعل بين المذهبين بعض الصلة، و إن كان كل منهما يختلف عن الآخر، فصاحبهما يحتاج إلى شيء من خفة الروح، ولكن هذه الخفة في الإضحاك بريئة من الهمز واللمز، و إنما غايتها التنشيط والاستجمام، أما في التهكم فقد يمازجها الخبث، سواء أكان هذا الخبث ظاهراً أم كان باطناً.

وقد كان التهكم من جملة أساليب سقراط في تقرير فلسفته، فكان سقراط في تهكمه يرمي إلى مناقضة خصمه، فيسأله مسائل من باب تجاهل العارف، فكان في بدء الأمر يقر مذهب خصمه، ثم يتلطف فى سؤاله، فلا يزال به من سؤال إلى سؤال حتى يفضي به إلى المناقضة فى القول.

أصل الأمر فى التهكم أن تقول قولاً وأنت تريد ضده، فلما قال النّظام لإبراهيم ابن هاني: ما بعد هذا الكلام كلام، لم يقصد فى هذه العبارة إلا ضدها، ظاهر كلامه الاعتراف بعلم إبراهيم، ولكن باطنه تعريض بجهله.

لست في حاجة إلى الكلام على خصائص التهكم، فإن هذا الكلام داخل فى البديع، و إنما أقتصر فى مثل هذا المقام على الإشارة إلى أن التهكم أكثر ما يستعمل في الخطاب، فهو يغلب على الأحاديث حتى يكاد يكون لهجة ينفرد بها بعض الناس، وقد يكون هذا التهكم لباس فكرة فيها فرح وسرور، أو صيغة مزح روحاني، أو قالباً يفرغ فيه غضب، أو حقد، أو يأس، أو غير ذلك من هوائج النفس.

و إذا أردنا أن نعرف رأي متهكم من حذاق المتهكمين في هذا المذهب ، فلنسمع ما قاله أناتول فرانس Anatole France :

« لا أزداد تفكيراً في حياة البشر إلا ازددت اعتقاداً أن من الواجب علينا أن نجعل شهود هذه الحياة وقضاتها : التهكم والشفقة .

فالتهكم بابتسامه يحبب إلينا الحياة ، والشفقة بدموعها تقدس هذه الحياة ، والتهكم الذي أرغب فيه ليس فيه شيء من القساوة ، إنه لا يستهزئ بالحب والجمال ، فهو رقيق وفيه عطف ، فضحكه يكظم من الغيظ ، وهذا التهكم هو الذي يعلمنا أن نسخر من الأشرار والحمقى ، ولولاه لأفضى بنا الضعف إلى كراهيتهم » .

إن هذا الكلام على وجازته يصور لنا قيمة التهكم ، فإذا اشتمل هـذا المذهب على تحبيب الحياة وتقديسها ، و إذا دربنا على السخر بكل شرير ، و بكل أحمق ، بدلا من أن نعبأ بهذا الشرير ، أو بهذا الأحمق ، فما أعظم شأنه ، وما أهنأ بال الذين يعرفون كيف يتصرفون فيه .

أفعلم الجاحظ أن يسخر من الأشرار والحمقى ؟ وقبل أن ننظر في هذا كله لا أرى محذوراً في ذكر أنماط من تهكم الإفرنجة على سبيل المقايسة والموازنة .

إمام المتهكمين في فرنسة إنما هو ڤولتير Voltaire وهذا نمط من لسعه :

أنشأ جان جاك روسو رسالة موضوعها : أصل تفاوت الناس ، وقد كانت أكادمية ديجون اقترحت هذا الموضوع ، وطلبت التسابق فيه ، ولكن روسو لم يجل في هذا الميدان ، فلم يحرز قصب السباق الذي أحرزه سنة ١٧٤٩ في رسالة جعل فيها الآداب والعلوم مصدر الفساد .

اتصلت هذه الرسالة بڤولتير ، فكتب إليه كتاباً يرد فيه عليه ، وقد جاء في جملة هذا الكتاب ما يلي :

لم يجترم الجرائم الكبيرة إلا مشهورو الجهلاء ، فإن الذى يجعل من هـذا العالم وادي دموع إنما هو جشع الرجال الذي لاسبيل إلى نقع غليله ، وعنجهيتهم التي

لاسلطان عليها . فإن الآداب تغذى الروح ، وتصلحها ، وتسليها ، و إنها لتخدمك في الوقت الذي تعترض فيه عليها .

ثم ختم رسالته بهذا الكلام :

أعلمني السيد . . . إن صحتك رديئة ، فينبغي لك أن تجودها بشميم هواء وطنك وأن تتمتع بالحرية ، وأن تشرب معي لبن بقرنا ، وترعى من عشبنا .

فالهمز يتخلل هذا التهكم المصقول الحواشي .

فكأن ڤولتير يقول لروسو : إن جسمك معتل ، واعتلال الجسم يؤدي عادة إلى اعتلال العقل ، فكأن ڤولتير يقول لروسو : إن عقلك لا يخلو من اعتلال .

وهذا نمط آخر في التهكم ، وهو قول (لابروير) La Bruyère في المهوّسين في حب الكتابة :

« يأخذ فلان ورقة وقلماً فجأة من دون أن يفكر في ذلك من قبل ، فيقول في نفسه أُريد أن أُؤلف كتاباً ، على أنه ليس له استعداد للكتابة ، ولكنه فى حاجة إلى خمسين (بستولاً[1]) ، فأصيح به من غير جدوى : خذ المنشار يا ديوسكور وانشر ، أو اصنع دائرة دولاب ، فتحصل على أجرتك ، ولكنه لم يتعلم هذه الحِرَفِ كلها ، فأقول له : انسخ إذن ، أو صحح في المطبعة ، لا تكتب ، بيد أنه يريد أن يكتب وأن يطبع كتاباته ، ولما كانت المطبعة لا يرسل إليها دفتر أبيض ، فإنه يسوده بما يروقه ، فيكتب مثلاً : إن نهر السين يجري فى باريز ، و إن الأسبوع فيه سبعة أيام ، أو إن السماء ماطرة ، ولما كان هذا الكلام لا يخالف الدين ولا الحكومة ، ولا يؤدي نشره بين العامة إلا إلى إفساد الذوق ، وتعويد العامة الأشياء التي لا طعم لها ، يعرض على المراقبة ، ثم يطبع ، فيعاد طبعه مع ما فى ذلك من العار على عصرنا وعلى كبار المؤلفين » .

فهذا الكلام كله تهكم ، فإن قول (لابروير) إن نهر السين يجري في باريز ،

---

(١) ضرب من العملة .

أو إن هذا الكلام لا يخالف الدين ولا الحكومة، إن هذا القول كله إنما هو همز ولمز.

ما لنا ولهذا كله ، فلنعجل إلى استهزاء الجاحظ !

إذا كان التهكم على نحو ما قال (أناتول فرانس) يعلمنا أن نهزأ بالأشرار وبالحمقى ، فقد علَّم هذا التهكم الجاحظ أن يهزأ بطائفة من الناس فيهم الحمقى ، وقد اجتمعت له أسباب التهكم ، ومهّدت له السبيل إليه .

أفلم تلده أمٌّ مطبوعة على التهكم ، فإن مجيئها بطبق الكراريس التي علمنا أمرها في كلامنا على حياته استهزاء بولد يقضي أيامه في طلب العلم ، وهو عالة على امرأة تمونه !

أفلم يخرّجه في الأدب والعلم رجال لا يضيعون فرص التهكم إذا سنحت هذه الفرص ؟ فعبارات أبي عبيدة والنظّام التي مرّت بنا في كلامنا على ثقافة الجاحظ ، أشباه : لا عليك ، فإن مرقك لا يؤذي ، وأمثال : ما بعد هذا الكلام كلام ، إنما هي عبارات يتخللها التهكم .

ولقد ظهر ميل الجاحظ إلى الاستهزاء من صغر أمره ، وحداثة سنه ، وإلى القارىء القصة التي تناهت إلينا ، وهي من آثار هذه الحداثة ، قال الجاحظ[1] :

« وبينما أنا أجالس يوماً في المسجد مع فتيان من المسجديين ، مما يلي أبواب بني سليم ، وأنا يومئذ حدث السن ، إذ أقبل أبو سيف الممرور ، وكان لا يؤذي أحداً ، وكان كثير الظرف ، من قوم سراةٍ ، حتى وقف علينا ، ونحن نرى في وجهه أثر الجدّ ، ثم قال مجتهداً : والله الذي لا إله إلاَّ هو إن الخُرء لحلو ، ثم والله الذي لا إله إلا هو [إن الخرء لحلو ، ثم والله الذي لا إله إلا هو إن الخرء لحلو] ، يميناً باتّةً ، يسألني الله عنها يوم القيامة ، فقلت له : أشهد أنك لا تأكله ، ولا تذوقه ، فمن أين علمت ذلك ؟ فإن كنت علمت أمراً فعلمنا مما علمك الله ، قال : رأيت الذبّان يسقط على النبيذ الحلو ، ولا يسقط على الحازِر ، ويقع على العسل ، ولا يقع على الخل ، وأراه على الخُرْء أكثر منه على التمر ، أفتريدون

(١) كتاب الحيوان — الجزء الثالث ص ١١٢ .

حجة أبين من هذه ؟ فقلت : يا أبا سيف بهذا ، وشبهه يعرف فضل الشيخ على الشاب ! » .

واشتدّ فيه الميل إلى الاستهزاء بالحمقى كل حياته ، فمن استهزائه بأمثال هذه الطبقة من الناس قوله في أثناء كلام له على المكي (١) :

« وكان المكي طيباً ، طيب الحجج ، ظريف الحيل ، عجيب العلل ، وكان يدعي كل شيء على غاية الإحكام ، ولم يحكم شيئاً قط ، [لا] من الجليل ، ولا من الدقيق ، وإذ قد جرى ذكره فسأحدثك ببعض أحاديثه ، وأُخبرك عن بعض علله ، لِتَتَلَهَّى بها ساعة ، ثم نعود إلى [بقية] ذكر الذبان .

ادَّعى هذا المكي البصر بالبراذين ، ونظر إلى برذون واقف ، قد ألقى صاحبه [في] فيه اللجام ، فرأى فاس اللجام ، وأين بلغ منه ، فقال لي : العجب كيف لا يَذْرَعُه القيء ، وأنا لو أدخلت إصبعي [الصغرى] في حلقي لما بقي في جوفي شيء إلاَّ خرج ؟ ! قلت : الآن علمت أنك تبصر ، ثم مكث البرذون ساعة يلوك لجامه ، فأقبل عليّ ، فقال لي : كيف لا يَبرُد أسنانه ؟ قلت إنما يكون [علم هذا] عند البصراء مثلك ، ثم رأى البرذون كلما لاك اللجام والحديدة ، سال لعابه على الأرض فأقبل عليّ وقال : لولا أن البرذون أفسد الخلق عقلاً لكان ذهنه قد صفا ، قلت له : قد كنت أشك في بصرك بالدواب ، فأما بعد هذا فلست أشك فيه .

وقلت له مرة ونحن فى طريق بغداد : ما بال الفرسخ يكون فى هذه الطريق فرسخين والفرسخ يكون أقل من مقدار نصف فرسخ ، ففكر طويلاً ، ثم قال : كان كسرى يقطع للناس الفراسخ ، فإذا صانع صاحب القطيعة زادوه ، وإذا لم يصانع نقصوه .

وقلت له مرة ، علمت أن الشاري حدثني أن المخلوع بعث إلى المأمون بجراب فيه سمسم ، كأنه يخبر أن عنده من الجند بعدد ذلك الحبّ ، وأن المأمون بعث إليه بديك

(١) كتاب الحيوان — الجزء الثالث ص ١٠١ .

أعور يريد أن طاهر بن الحسين يقتل هؤلاء كلهم ، كما يلقط الديك الحب ، قال : فإن هذا الحديث أنا ولَّدته ، ولكن انظر كيف سار فى الآفاق ، وأحاديثه وأعاجيبه كثيرة » .

ظهر ميل الجاحظ إلى الاستهزاء من غضاضة عوده ، واستحكم فيه هذا الميل بعد أن تهيأت له أسباب التهكم بحذافيرها ، فقد خلق مطبوعاً على هذا التهكم ، وقوّت فيه ثقافته هذا الطبع ، وعاش فى عصر احتاج فيه إلى السخرية ، عاش فى عصر ترك فيه الجمهور الأكبر والسواد الأعظم التوقف عند الشبهة ، والتثبت عند الحكومة ، وعزل الحق فيه جانباً ، ومات ذكر الحلال والحرام ، ورفض ذكر القبيح والحسن . والخلاصة عاش فى عصر استفاضت فيه الزندقة ، وشاعت فيه طائفة من الخرافات فى طبقات العامة ، و بعض العلماء والمؤلفين ، فلم يجد الجاحظ بدًّا له من التنبيه على هذه الخرافات ، وعلى هذا الضلال وهو الرجل الذي وقف نفسه على نصرة الحق عمره كله ، وخاصة فقد أمكن القول في عصره وصلح الدهر ، فلم يبق للجاحظ إلا إظهار ما عنده ، والقيام بما يلزمه من نصرة للحق ، وهجمة على الباطل ، وخاصة فقد كثرت خصومه وحسّاده ومتعقبوه ، فلم يجد له أمضى سلاحاً من التهكم ، هذا التهكم الذي قال فيه ڤولتير : إذا أردت أن تقتل خصمك فاجعله هزأةً .

فاجتهد الجاحظ فى جعل خصمه هزأة كل حياته ، ولئن عابه ابن قتيبة باستهزائه من الحديث استهزاء لا يخفى على أهل العلم ذكره ، فلم يستهزىء الجاحظ بالصحيح من الأحاديث ، و إنما استهزأ ببعض تأويلات وتفسيرات لا يقرّها عقل عالم اشتغل بالتحقيق والتمحيص قرناً متكاملاً ، فلنجتهد فى بيان بعض مواطن من هذا الاستهزاء .

للجاحظ أسلوب في التهكم على بعض أهل التفسير والتأويل بسيط جدًّا ، وقد بلغ من بساطته أنه لا يكاد يظهر عليه أثر الاستهزاء والسخرية ، فهو يدس هذا التهكم دسًّا دون أن يظهر على بيانه ، فبدلاً من أن يتعرض لهذه الطائفة من العلماء تعرضاً ، ويجادلهم جدالاً ، يكتفي فى أكثر الأوقات بالدلالة على آرائهم ، والإشارة

إلى مذاهبهم ، ولـكن هذه الإشارة مهما تكن خفية ، ومهما تكن رمزاً ، لا تخلو من روح التهكم ، فبينما الجاحظ مثلاً يمضى قوله فى باب من أبواب العلم ، كباب ما يعتري الإنسان بعد الخصاء ، وكيف كان قبل الخصاء ، و بينما يفيض فى هذا الباب فى أمور علمية ، إذ يعرض له رأي من الآراء التي لا يؤيدها العلم ، فيكتفي بالتنبيه عليه ، كقوله مثلاً[1] :

« وزعم بعض المفسرين وأصحاب الاخبار أن أهل سفينة نوح كانوا تأذوا بالفأر ، فعطس الأسد عطسة ، فرمى من منخريه بزوج سنانير ، فلذلك السنور أشبه شيء بالأسد ، وسلح الفيل زوج خنازير . فلذلك ، الخنزير أشبه شيء بالفيل .

ثم يردف هذا القول كلامه الآتي :

قال كيسان : فينبغي أن يكون ذلك السنور آدم السنانير، وتلك السنورة حوّاءها وضحك [فضحك] القوم » .

إن مجرّد ذكره لأشباه هذه الآراء فى أثناء بحثه عن أمور مبنية على العلم والعقل كاف للدلالة على سخريته بأصحابها ، فكأنه يغمز بعينيه غمزاً ، فهو لا يتولى الطعن على هذه الآراء والمذاهب ، و إنما يكفي نفسه مؤنة هذا الطعن بتركه للقارىء حق الحكم على مثل هذه الآراء ، وهذا الاسلوب على نزاهته الظاهرة لا يخلو من مهارة وحذق ، ولِمَ لا أقول لايخلو من خبث ، فإن الجاحظ لايتولى فيه التشنيع والتهجين ، و إنما يجرّ القارئ جرًّا إلى هذا التشنيع و إلى هذا التهجين ، ثم ينسحب انسحاباً ، فيخرج بعد إيقاظه الفتنة كابن اللبون ، لا ظهراً ولا ضرعاً .

ونظائر هذا التهكم مستفيضة فى كتاباته ، ومن هذا القبيل قوله[2] :

« ويزعم زرادشت ، وهو مذهب المجوس ، أن الفأرة من خلق الله ، وأن السنور من خلق الشيطان ، وهو إبليس ، وهو أهْرمَن ، فإذا قيل له : كيف تقول ذلك ،

(١) كتاب الحيوان — الجزء الأول ص ٦٧ .
(٢) « « « الرابع ص ٩٩ .

والفأرة مفسدة ، تجذب فتيلة المصباح ، فتحرق بذلك البيت ، والقبائل الكثيرة ، والمدن العظام ، والأرباض الواسعة بما فيها من الناس والحيوان والأموال ، وتقرض دفاتر العلم ، وكتب الله ، ودقائق الحساب والصكاك والشروط ، وتقرض الثياب ، وربما طلبت القطن لتأكل بذره ، فتدع اللحاف غربالاً ، وتقرض الجرب ، وأوكية الأسقية ، والأزقاق ، والقرب ، فتخرج جميع ما فيها ، وتقع في الآنية وفي البئر ، فتموت فيه ، وتحوج الناس إلى مؤن عظام ، وربما عضت رجل النائم ، وربما قتلت الإنسان بعضتها ، والفأر بخراسان ربما قطعت أذن الرجل ، وجرذان أنطاكية تعجز عنها السنانير ، وقد جلا عنها قوم ، وكرهها آخرون ، لمكان جرذانها ، وهي التي نجرت المسنَّاة حتى كان ذلك سبب الحَشر بأرض سبأ ، وهي المضروب بها المثل ، وسيل العرم مما تؤرخ بزمانه العرب ، والعرم المسنَّاة ، وإنما كان جرذاً ، وتقتل النخل والفسيل ، وتخرب الضيعة ، وتأتي على أزمَّة الركاب والخُطُم ، وغير ذلك من الأموال . والناس ربما اجتلبوا السنانير ليدفعوا بها بوائق الفار ، فكيف صار خلق الضار المفسد من الله ، وخلق النافع من خلق الشيطان ؟ والسنور يعدى به على كل شيء خلقه الشيطان ، من الحيات والعقارب ، والجعلان و بنات وردان ، والفأرة لا نفع لها ، ومؤنها عظيمة ؟ قال : لأن السنور لو بال في البحر لقتل عشرة آلاف سمكة ! فهل سمعت بحجة قط ، أو بحيلة ، أو بأضحوكة ، أو بكلام ، ظهر على تلقيح هرة يبلغ مؤن هذا الاعتلال ؟ ! فالحمد لله الذي كان هذا مقدار عقولهم واختيارهم » .

على أنه هذه المرة لم يكتم استهزاءه ، فقد دل عليه بقوله : فهل سمعت قط بحجة ، أو بحيلة . . . بيد أنه ، وإن أفصح عن سخريته بهذه العبارة الأخيرة ، وكان في مندوحة عنها ، فإن تدوينه لمثل هذه الأقوال كاف للاعراب عن هذا التهكم الكامن فى ذهنه .

ومثل هذا الاستهزاء كثير فى كلامه ، لا أجد بي حاجة إلى الاستزادة منه ، وإنما ضربت مثلاً على سبيل الاستئناس .

وقد يخرج في بعض الأحايين في رده على من يعيب كتبه ، عن البساطة التي لمحت إليها ، فيرهف قلمه ، ويحشد طبعه ، فبدلاً من أن يلجأ إلى رباطة جأش المتهكمين ، وإلى هدوئهم وسكونهم ، يثور ثورته ، فيقول لهذا العائب الذي عابه بأكثر كتبه[1] :

« بهرك ما سمعت ، وملأ صدرك الذي قرأت ، وأبعلك وأبطرك ، فلم تتجه للحجة وهي لك معرضة ، ولم تعرف المقاتل[2] وهي لك بادية ، ولم تعرف باب المخرج إذ جهلت باب المدخل ، ولم تعرف المصادر إذ جهلت الموارد . رأيت أن سب الأولياء أشفى لدائك ، وأبلغ في شفاء سقمك ، ورأيت أن إرسال اللسان أحضر لذة ، وأبعد من النصب ، ومن إطالة الفكرة ، ومن اختلاف إلى أرباب هذه الصناعة . ولو كنت فطنت لعجزك ، [و] وصلت نقصك بتمام غيرك ، واستكفيت من هو موقوف على كفاية مثلك ، وحبيس على تقويم أشباهك ، كان ذلك أزين في العاجل ، وأحق بالمثوبة في الآجل ، وكنت إن اخطأتك الغنيمة ، لم تخطئك السلامة ، وقد سلم عليك المخالف بقدر ما ابتلى [به] منك الموافق ، وعلى أنه لم يبتل منك ، إلاّ بقدر ما ألزمته من مؤنة تثقيفك ، والتشاغل بتقويمك ، وهل كنت في ذلك إلا كما قال العربي : هل يضر السحاب نبح الكلاب ، وإلا كما قال الشاعر :

هل يضر البحر أمسى زاخراً أن رمى فيه غلام بحجر

وهل حالنا في ذلك إلا كما قال الشاعر :

ما ضر تغلب وائل أهجوتها أم بلت حيث تناطح البحران

وكما قال حسان بن ثابت :

ما أبالي أنبَّ بالحزن تيس أم لحاني بظهر غيب لئيم

وما أشك أنك قد جعلت طول إعراضنا عنك مطية لك ، ووجهت حلمنا عنك

---

(١) كتاب الحيوان — الجزء الأول ص ٦ .

(٢) في الأصل : المقابل .

إلى الخوف منك ، وقد قال زفر بن الحارث لبعض من لم يرحق الصفح ، فجعل العفو سبباً إلى سوء القول :

فإن عدت والله الذي فوق عرشه منحتك مَسْنُونَ الغرارين أزرقا
فإن دواء الجهل أن تُضْرَبَ الطلَى وأن يُغْمَسَ العِرِّيضُ حتى يُغرَّقا

وقال الأول :

وضغائن داويتها بضغائن حتى شفيت و بالحقود حقودا

وقال الآخر :

وما نَفَى عنك قوماً أنت خائفهم كمثل رقمك جهالاً بجهال
فاقعس إذا حربوا واحرب إذا قعسوا ووازن الشر مثقالاً بمثقال » .

إلى آخر هذا الكلام . . .

غير أن هذه الأساليب كلها فى التهكم ، لا تكون شيئاً قياساً إلى تهكمه فى كتابه التربيع والتدبير ، فهذا الكتاب إنما هو المثل الأعلى فى التهكم ، والحجة القاطعة ، فقد كان استهزاؤه فيه على أساليب فنية ، يخرج فى السخرية بالرجل من باب إلى باب ، ومن شكل إلى شكل ، حتى يمزقه تمزيقاً ، فيصغره فى عيون الناس أولاً ، ثم يصغر هذا الرجل فى نفسه ، فيتمنى لو أن الأرض خسفت به خوفاً من أن تقع عليه عين ، وهل يبلغ الإفحاش فى القول من رجل ، ما يبلغه منه تصويره فى صور شتى ، كل صورة منها معرض تعرض علينا فيه ناحية من نواحيه ، وفي كل معرض من هذه المعارض صورة هزلية .

فمرة يعرض علينا طائفة من آداب نفسه ، وصفات عقله ، فى معرض هزلي ، فيقول[1] : « وأنا أبقاك الله أعشق إنصافك ، كما تُعشق المرأة الحسناء ، وأتعلم خضوعك للحق ، كما أتعلم التفقه في الدين ، ولربما ظننت أن جورك إنصاف قوم آخرين ، وأنك يقنعك سماع رجال منصفين ، وما أظنك صرت إلى معارضة الحجة بالشبهة ، ومقابلة الاختيار بالاضطرار ، واليقين بالشك ، واليقظة بالحلم ، إلا بالذي

(١) رسائل الجاحظ على هامش المبرد — الجزء الأول ص ٤٦ .

خصصت به من إيثار الحق ، وألهمته من فضيله الإنصاف ، حتى صرت أحوج ما تكون إلى الإنكار ، أذعن ما تكون بالإقرار ، وأشد ما تكون إلى الحيله فقراً ، أشد ما تكون للحجة طلباً » .

ثم لا يكتفي بهذا المعرض حتى يضيف إليه هذه الصورة[1] :

« غير أن ذلك بطرف ساكن ، وصوت خاضع ، وقلب جامع ، وجأش رابط ، ونية جسور ، وإرادة تامة ، مع غفلة كريم ، وفطنة عليم ، إن انقطع خصمك تغافلت ، وإن خرق توقفت ، غير منخوب ، ولا متشعب ، ولا مدخول ، ولا مشترك ، ولا ناقص النفس ، ولا واهن العزم ، ولا حسود ، ولا منافس ، ولا متغالب ، ولا متعاقب ، يفل الحد ، ويصيب المفصل ، ويقرب البعيد ، ويظهر الخفي ، ويميز الملتبس ، ويلخص المشكل ، ويعطي المعنى حظه من اللفظ ، كما يعطي اللفظ حظه من المعنى ، ويحب المعنى إذا كان حيًّا يلوح ، وظاهراً يصيح ، ويبغضه مستهلكاً بالتعقيد ، ومستوراً بالتقريب » .

وإذا فرغ من هذا المعرض عرض علينا محاسن علمه فيقول[2] :

« تخبرني ما جرى بينك وبين هرمس في طبيعة الفلك ، وعن سماعك من أفلاطون ، وما دار بينك وبين أرسطاطاليس ، وأي نوع اعتقدت ، وأي شيء اخترت ، فقد أبت نفسي غيرك ، وأبت أن تتشفى إلا بخبرك ، ولولا أني كلف برواية الأقاويل ، ومغرم بمعرفة الاختلاف ، وأني أستجيز مسألتك عن كل شيء ، وابتذالك في كل أمر ، لما سمعت من أحد سواك ، وما انقطعت إلى أحد غيرك » .

وإذا انتهى من محاسن علمه انتقل إلى محاسن أخلاقه فيقول[3] :

« واعلم أني وإياك متى تحاكمنا إلى كرمك ، قضى لي عليك ، ومتى ارتفعنا إلى عدلك حسن العفو عني عندك ، وفصل ما بيننا وبينك ، وفرق ما بين أقدارنا

(١) رسائل الجاحظ على هامش المبرد — الجزء الأول ص ٤٧ .
(٢) رسائل الجاحظ على هامش المبرد — الجزء الأول ص ٥٧ .
(٣) رسائل الجاحظ على هامش المبرد — الجزء الأول ص ٦٢ .

وقدرك ، أنا نسيء وتغفر ، ونذنب وتستر ، ونعوجّ وتقوم ، ونجهل وتعلم ، وأن عليك الإنعام ، وعلينا الشكر » .

وإذا فرغ من الاستهزاء بآداب نفسه ، وصفات عقله ، ومحاسن علمه ، ومكارم أخلاقه لم يبق له إلا الاستهزاء بجماله الفاتن ، فيعرض هذا الجمال فيقول [١] :

« وهل تقع الأبصار إلا عليك ، وهل تصرف الإشارة إلا إليك ، وأي أمرك يس بغاية ، وأي شيء منك ليس في النهاية ، وهل فيك شيء يفوق شيئاً ، أو يفوقه شيء ، أو يقال ، لو لم يكن كذا لكان ، أو لو كان كذا لكان أتم ، وأين الحسن الخالص والجمال الفائق ، والملح المحض ، والحلاوة التي لاتستحيل ، والتمام الذي لايحل . إلا فيك ، أو عندك ، أو لك ، أو معك ، لا ، بل أين الحسن المصمت ، والجمال المفرد ، والقد العجيب ، والملح المنثور ، والفضل المشهور ، إلا لك وفيك ، وهل على ظهرها جميل حسيب ، وعالم أديب ، إلا وظلك أكبر من شخصه ، وظنك أكثر من علمه ، واسمك أفضل من معناه ، وحلمك أثبت من نجواه » .

وقد تفنن في هذا الاستهزاء التفنن كله ، فلا تغني هذه الأنماط التي ذكرتها عن الرجوع إلى أصل الكتاب .

***

هذا آخر ما خطر على البال من تهكم رجل هزأ بأشياء كثيرة في هذا العالم ، هزأ بالخرافات والأباطيل وبالحمقى ، وربما كان خروجه من ديوان الخليفة هزءاً بالعظمة نفسها ، بل ربما سخر بشيء أعظم من العظمة ، فإذا كان الجاحظ في تعظيمه الشيء وتصغيره ، وفي تحسينه إيّاه وتقبيحه ، يرمي إلى حقيقة فلسفية ، فيصوّر لنا طبقة من الناس ، يستحسنون طائفة من الأمور ، ثم يصوّر لنا طبقة غيرهم ، يستقبحون ما استحسن غيرهم ، إذا كان غرض الجاحظ فى هذه الأساليب تقرير هذه الحقيقة ، فكأنه يريد أن يقول لنا لا حقيقة مطلقة فى الدنيا ، وإذا كان هذا قوله ، فكأنما الجاحظ هزأ بالحياة كلها .

---

(١) رسائل الجاحظ على هامش المبرد — الجزء الأول ص ٦٨ .

مذهب الجاحظ في النقد

رأيه في التوليد — رأيه في أولية الشعر — إهتمامه بالصنعة

قبل أن أنقد فن الجاحظ وأدبه ولغته ، لِمَ لا أنظر في نقد الجاحظ نفسه ، كيف كان ينقد فن غيره .

أشرت في مستهل القول إلى شيء يسير من أطوار النقد في كل عصر من عصور أدبنا ، وقد تبين لنا في هذه الإشارة أن الجاحظ ظهر في العصر لذي نبَّهوا فيه على توليد الرواة ، وعلى اختلاف لسان حمير ولسان قريش .

ولقد يصعب على رجل مثل الجاحظ قضى عمره كله في التمحيص أن يمر بمواطن الزور في الأدب ، فيغفل الكلام عليها ، فقد أشار إلى التوليد فقال :[1]

« ولقد ولّدوا على لسان خلف الأحمر ، والأصمعي ، أرجازاً كثيرة ، فما ظنك بتوليدهم على ألسنة القدماء ، ولقد ولّدوا على لسان جحشويه في الحلاق أشعاراً ما قالها جحشويه قط ، فلو تقذروا من شيء تقذروا من هذا الباب » .

وقال في موطن آخر في توليدهم على بشار[2] :

« قال صاحب الكلب : السنور يَسْوَى في صغره درهماً ، فإذا كبر لم يسْوَ شيئاً ، وقال العمّي :

كسنور عبدالله بيع بدرهم صغيراً فلما شب بيع بقيراط

. . . وقد يضاف هذا البيت إلى بشار وهو باطل » .

غير أن الجاحظ لم يدل على الذي ولّدوه ، فلم يضف شيئاً إلى ما قاله ابن سلاّم في

---

(١) كتاب الحيوان — الجزء الرابع ص ٦٠ .
(٢) « « الخامس ص ٩٦ .

زيادة الرواة ، ولو دل على مواطن التوليد لما اتسع مجال الشك في بعض أدبنا ، وقد كان يسهل على الجاحظ وأمثاله أن يمحصوا و يدققوا ، حتى يستخرجوا بعد هـذا التمحيص والتدقيق الزيادات التي زادها المولدون ، فهم متصلون بتطور اللغة من عهدها الجاهلي المتعارف إلى عهدها الإسلامي ، ومن عهدها الإسلامى إلى عهدها العباسي ، فليس بينهم و بين هذه العصور التي تطورت اللغة في أثنائها إلا قرنان ، أو ثلاثة قرون ، فقد كان يتيسر لهم أن يعرفوا روح كل عصر ، ولغته ، وفنه ، لأنهم على نحو ما قلت متصلون بتلك العصور ، أما اليوم فإن التنبيه على مواطن التوليد قد يكون عقبة كؤوداً ، فإذا أردنا أن نعرف أن هذا البيت من الشعر قد نحله شاعر من الشعراء لزمنا أن نتعمق في ديوان الشاعر كله ، حتى نعلم هل هذا البيت الذي نُحله من روحه ، أو لغته من لغته ، أو فنه من فنه ، فإذا اعترضتنا المصاعب في تمييز بيت من الأبيات ، فكم تعظم هذه المصاعب في تمييز قصائد بحذافيرها ، قيلت في عصور متفاوتة ، بعيدة عنا .

وليس فى لغتنا معجم يبين لنا أن اللفظ الفلاني استعمل في العصر الفلاني ، ثم بطل استعماله بعد ذلك العصر ، فقد تمر بنا ألفاظ لشاعر من الشعراء ، نظنها فى بدء الأمر غريبة ، وقد تكون هذه الألفاظ شائعة فى عصر هذا الشاعر ، فإذا لم يكن فى لغتنا معجم يدون الألفاظ بحسب تاريخها صعب علينا أن نعرف أن هـذا اللفظ مولد على لسان فلان . والشك فى الأدب لا يخلو فى خاتمة أمره من محاذير ، وقد فطن الجاحظ لهذا الأمر ، فقال في خطاب جماعة مالوا إلى ردّ بعض الأمثال على جماعة آخرين[1] :

« و إن جاز لكم أن تردوا عليهم هذا المثل ، جاز لكل من كره مثلاً أو شاهداً أن يرد عليهم كما رددتم ، وفي ذلك إفساد أمر العرب كله ، فإن زعمت أن الديك كان أحق به ، فخصومك كثير ، ولسنا نحيط بأوائل كلامهم ، على أي مقادير كانوا

(١) كتاب الحيوان — الجزء الثاني ص ٥٥ .

يضعونها ، ومن أي شيء اشتقوها ، وكيف كان السبب ، ورب شيء أنكرناه ، فإذا عرفنا سببه أقررنا به » .

إلا أن الجاحظ فى مصاعب التدقيق فى التوليد ، قد ركب هذا المركب الخشن ، فتفرغ لتمحيص خطبة زعم أنها منسوبة إلى معاوية [١] ، وبعد أن فرغ من ذكر الخطبة قال :

« وفي هذه الخطبة ، أبقاك الله ، ضروب من العجب : منها أن هذا الكلام لا يشبه السبب الذي من أجله دعاهم معاوية ، ومنها أن هذا المذهب في تصنيف الناس ، وفي الإخبار عنهم ، وعما هم عليه من القهر والإذلال ، ومن التقية والخوف ، أشبه بكلام علي ، وبمعانيه ، وبحاله ، منه بحال معاوية ، ومنها أنا لم نجد معاوية فى حالة من الحالات يسلك في كلامه مسلك الزهاد ، ولا يذهب مذاهب العباد ، وإنما نكتب لكم ونخبر بما سمعناه ، والله أعلم بأصحاب الأخبار ، وبكثير منهم » .

غير أن الجاحظ كان يجب عليه في رد هذه الخطبة أن يسلك مسلكاً أقرب ، فيأتي بنماذج من خطب علي ، وبنماذج من خطب معاوية ، وأن يقابل بين هذه الأنماط كلها ، فيشير إلى ألفاظ علي ، ويشير إلى ألفاظ معاوية ، ويدل على الألفاظ التي يألفها علي ، والألفاظ التي يألفها معاوية ، فيقول : هذا اللفظ مثلاً من ألفاظ علي ، أو هذا التركيب من تركيب علي ، أو هـذا الفن من فن علي ، وقد وردت اللفظة والتركيب والفن في خطبة معاوية ، فهذا كله مردود . ولو فعل ذلك لكان تمحيصه أبلغ ، لأن لكل خطيب ، أو لكل شاعر ، أو لكل كاتب ، لكل واحد من هؤلاء الثلاثة ، مفردات ومصطلحات وتراكيب لا يحيد عنها ، فهي ملازمته ، وقد يستعملها على الرغم منه ، ويكرر استعمالها دون أن يشعر بها ، أما قول الجاحظ : « ومنها أنا لم نجد معاوية في حال من الحالات يسلك في كلامه مسلك الزهاد ، ولا

(١) راجع الخطبة في البيان والتبيين — الجزء الثاني ص ٢٨ .

يذهب مذاهب العباد » ، فلا يخلو من بعض الضعف ، لأن الرجل إذا حضرت وفاته قد تتبدل حالة عقله ، وحالة روحه .

على أن الجاحظ قد تجرد في بعض المقامات للتنبيه على مواطن التوليد في الشعر أيضاً ، فلم يكن ضعيف الحجة في هذا التنبيه ، فمن هذا رده طائفة من الأشعار ، من جملتها هذا البيت للأفوه الأودي[١] :

كشهاب القذف يرميكم به   فارس في كفه للحرب نار

فقال في رد هذا البيت[٢] :

« وأما ما رويتم من شعر الأفوه الأودي ، فلعمري إنه لجاهلي ، وما وجدنا أحداً من الرواة يشك في أن القصيدة مصنوعة . وبعد ، فمن أين علم الأفوه أن الشهب التي يراها إنما هي قذف ورجم ، وهو جاهلي ، ولم يدّع هذا أحد قط إلا المسلمون ، فهذا دليل آخر على أن القصيدة مصنوعة » .

***

أما وقد عرفنا رأي الجاحظ في التوليد ، فلا بأس بأن نعرف رأيه في أولية الشعر ، وعلى هذا تنشأ لنا صورة تصور لنا مذهبه في نقد بعض الآراء الأدبية العامة ، من هذا النحو قوله[٣] :

« وأما الشعر فحديث الميلاد ، صغير السن ، أول من نهج سبيله ، وسهل الطريق إليه ، امرؤ القيس بن حجر ، ومهلهل بن ربيعة . وكتب أرسطاطاليس ، ومعلمه أفلاطون ، ثم بطليموس ، وديمقراطس وفلان وفلان ، قبل بدء الشعر بالدهور قبل الدهور ، والأحقاب قبل الأحقاب ، ويدل على حداثة الشعر قول امرئ القيس ابن حجر :

---

(١) كتاب الحيوان — الجزء السادس ص ٨٨ .
(٢) كتاب الحيوان — الجزء السادس ص ٩٠ .
(٣) « « « الأول ص ٣٧ .

إن بني عوف ابتنوا حسنا　　ضيعه الداخلون إذ غدروا

أدوا إلى جارهم خفـارته　　ولم يضع بالمغيب من نصروا

لا حميري وَفَى ولا عدس　　ولا است عير يحكها الثفر

لكن عوير وفى بذمته　　لا قصر عابه ولا عور

فانظر كم كان عمر زرارة ، وكم كان بين موت زرارة ومولد النبي عليه الصلاة والسلام ، فإذا استظهرنا الشعر وجدنا له إلى أن جاء الله بالإسلام خمسين ومائة عام ، وإذا استظهرنا بغاية الاستظهار فمائتي عام » .

وقال في مقام آخر(١) :

« وقد قيل الشعر قبل الإسلام في مقدار من الدهر أطول ما بيننا اليوم وبين أول الإسلام » .

ففي قوله الأول جعل عمر الشعر مائتي عام . وفي هذا القول جعله مائتين ونيفاً ، وفي كلا الحالين اشتطاط .

أصحيح أن امرأ القيس أول من نهج سبيل الشعر ، وسهّل الطريق إليه ؟ قد يكون امرؤ القيس أول من حفظت أشعاره ، أو من أوائل الشعراء الذين تناهت إلينا أشعارهم ، وأما أن يكون أول الشعراء فلا ، وقد أشار بعض شعراء الجاهلية إلى تقادم الشعر ، فقال امرؤ القيس نفسه :

عوجا على الطلل القديم لعلنا　　نبكي الديار كما بكى ابن حذام

وقال زهير :

ما أرانا نقول إلا معـارا　　أو معاداً من قولنا مكرورا

وقال عنترة :

✲ هل غادر الشعراء من متردّم ✲

فالذي يستنبط من قول امرئ القيس وزهير وعنترة أنه جاء قبلهم شعراء ، جالوا

---

(١) كتاب الحيوان — الجزء السادس ص ٨٩ .

في الشعر كل مجال ، وحلقوا في سمائه كل محلق ، وقد انقطعت عنا أخبار الذين أورثوا عنترة وزهيراً وامرأ القيس فيض قلوبهم ، وصوب أذهانهم ، وانطوت آثارهم ، فلا نعرف عنهم شيئاً ، فلغة العرب متقادمة العهد ، فلا يمكن أن تنشأ دفعة واحدة على الصورة التي نشأت عليها في العصر الجاهلي المعروف ، فلا ريب في أنها سبقتها أحقاب مديدة ، انتقلت فيها اللغة من طور إلى طور ، حتى وصلت إلى ماوصلت إليه ، فالعصور التي انتقلت اللغة في أثنائها من مرتبة إلى مرتبة غامضة مبهمة ، فهي سر من الأسرار ، وهذه ثلمة في تاريخ أدبنا ، ولا تسد هذه الثلمة إلا إذا درسنا اللغات السامية ، ولغات الأمم التي خالطها العرب في قديم الدهر ، وعثرنا على كتابات قديمة منقوشة . إن لغة العرب لم تنته إلينا بحذافيرها ، فإن الذي جاءنا عن العرب غيض من فيض ، فكثير من الكلام ذهب بذهاب أهله ، قال ابن فارس : ذهب علماؤنا أو أكثرهم إلى أن الذي انتهى إلينا من كلام العرب هو الأقل ، ولو جاءنا جميع ما قالوه ، لجاءنا شعر كثير ، وكلام كثير .

والمعروف أن لبلاد العرب الجنوبية حضارة يمتد تاريخها إلى القرن الثامن قبل السيد المسيح ، فأين اللغة التي صورت هذه الحضارة ، وكيف تكون حضارة ولا تكون معها لغة .

يقول أحد أدباء الفرنسيس[١] :

« النثر الأدبي في التاريخ لا يأتي ، على نحو ما يظنون ، قبل الشعر ، و إنما يأتي بعده ، والذي يأتي قبل الشعر إنما هو اللسان الطبيعي العامل ، لسان الحوائج والمنافع ، ولكننا نستطيع أن نجعل من قوانين التاريخ الأدبي العامة أن كل أدب يبدأ بالشعر ، ثم ينزل إلى النثر بإلغاء القيود التي تقيد اللغة الشعرية ، و باطراح هذه القيود ، أي بالتخلي عن لوازم الفن كلها ، إن لم يكن بالتخلي عن نتائج الفن » .

فإذا كان الأدب يبدأ بالشعر ، ثم ينزل إلى النثر ، فأين النثر الذي نزل إليه الشعر

(١) فن النثر — لانسون ص ١٠ .

الجاهلي ، أهو هذا النثر الإسلامي المتكامل الذي ظهر فجأة دون أن يكون لتكامله عامل من العوامل ، لا شك في أن النثر الإسلامي سبقه نثر ، وهذا النثر سبقه شعر ، ولم تبق لنا الأيام من هذا كله إلا الشعر الجاهلي المتعارف ، و إلا قليلاً من النثر الجاهلي .

مثل اللغات كمثل المخلوقات الحية في عالمي الحيوان والنبات ، فكما أن الحيوانات والنباتات تولد ، فتعيش ، فتموت ، فكذلك اللغات ، فإنها أشبه شيء بهذه المخلوقات ولميلاد اللغات وحياتها وموتها عوامل منطقية وفلسفية وتاريخية وغير ذلك ، تجمعها كلمة : حياة الألفاظ ، ولست أعلم بحثاً يأخذ بمجامع القلوب نظير البحث عن حياة الألفاظ .

فقول الجاحظ : إن الشعر الجاهلي عمره قرنان ، فيه اشتطاط ، على أن الجاحظ نفسه يقول ، : ولسنا نحيط بأوائل كلامهم (أي كلام العرب) على أي مقادير كانوا يضعونها ، ومن أي شيء اشتقوها ، وكيف كان السبب ... فإن الذي يقول هذا القول لا ينبغي له أن تزلق به قدمه هذا المزلق ، فيجعل الشعر حديث الميلاد ، صغير السن .

وسواء أرشدت مسالكه في الدلالة على مواقع الزور في التوليد أم لم ترشد ، فإنه نزّاع إلى التمحيص .

فلننظر بعد هذا كله في طبيعة ذوقه ، كيف يذوق نتائج القرائح ، وثمرات الخواطر ، أيقتصر على استحسان المعاني وحدها ؟ أم أنه مولع بالصنعة ؟ وهل وقف به ولعه بالصنعة على تفضيل أساليب المتقدمين ، أم إنه مال إلى مذاهب المولدين ؟ وما غايتنا من هذا كله إلا استخراج صورة عامة لذوقه الفني من آرائه المبعثرة في أضعاف كتبه ، حتى يتمثل لنا ذوقه ، كما تمثل لنا تحقيقه .

للجاحظ ولع خاص بالصنعة ، وأريد بالصنعة في هذا المقام الفن على مصطلح عصرنا . فهو ميال إلى استحسان الألفاظ ، فمن قوله في هذا الباب ، وقد نقد بيتين من الشعر[1] :

---

(١) كتاب الحيوان — الجزء الثالث ص ٤٠ .

« وأنا قد رأيت أبا عمرو [الشيباني] ، وقد بلغ من استجادته لهذين البيتين ، ونحن في المسجد يوم الجمعة ، أن كلف رجلاً ، حتى أحضر دواة وقرطاساً ، حتى كتبهما له ، وأنا أزعم أن صاحب هذين البيتين لا يقول شعراً أبداً ، ولولا أن أدخل في [الحكم] بعض الفتك لزعمت أن ابنه لا يقول شعراً أبداً ، وهما قوله :

لا تحسبن الموت موت البلى ... فإنما الموت سؤال الرجال

كلاهما موت ولكن ذا ... أفظع من ذاك لذل السؤال

وذهب الشيخ إلى استحسان المعنى ، والمعاني مطروحة في الطريق ، يعرفها العجمي والعربي والبدوي والقروي [والمدني] ، وإنما الشأن في إقامة الوزن ، وتمييز اللفظ ، وسهولته ، وسهولة المخرج ، [وكثرة الماء] ، وفي صحة الطبع ، وجودة السبك ، فإنما الشعر صناعة ، وضرب من الصبغ ، وجنس من التصوير » .

فالجاحظ مفتون بالفن ، فهو يريد أن نعطي المعاني حقوقها من الألفاظ ، وأظن أن هذا المذهب يحتاج إلى شيء من التوضيح ، فقد يخطر على البال أن الذهاب إلى استحسان الألفاظ إنما يراد به الحط من مقادير المعاني ، حتى يتوهم المتوهمون أن الذين يستحسنون الألفاظ يقولون : المعاني لا قيمة لها ، وإنما القيمة للألفاظ وحدها ، ولكن الألفاظ في الحقيقة إنما هي خدم المعاني ، فقد وضعت للدلالة على فكر من الأفكار ، فلولا الفكر لم يكن اللفظ ، فحسن الألفاظ يستوجب حسن المعاني ، فإذا وجدنا ألفاظاً ضخمة ، ولم نجد لها معاني ضخمة ، استخرجنا من ذلك أن أصحابها لا يحوكون الكلام على حسب الأماني ، ولا يخيطون الألفاظ على قدود المعاني ، فقد تكون ألفاظ سيئة تشتمل على معان حسنة ، ولكن هذه المعاني لا يبقى لها أثر في القلوب ، لأنها لم تعط قسطها من الصنعة . لنضرب مثلاً لذلك ، ولنرجع إلى البيتين اللذين استشهد بهما الجاحظ : معناهما أن أصحاب النفوس الكريمة يفضلون الموت على سؤال الرجال ، فالمعنى فيهما حسن ولا شك ، ولكن الشاعر هل تهيأ له أن يكسوه ما يناسبه من اللفظ ؟ إذا كان الغرض من الشعر أن يعرض علينا حقائق

الأفكار المحسوسة ، حتى نكاد ندرك هذه الأفكار ذاتها ، وظواهر صيغها، كل هذا في شكل مرصوص كأنه بناء مبني لا خلل فيه ، إذا كان هذا هو الغرض من الشعر، فالبيتان اللذان ذمهما الجاحظ ، وخاصة البيت الثاني ، ليس فيهما شيء من الصور الشعرية ، فإن لغة البيت الثاني بعيدة عن لغة الشعر ، فكلمة : ذا ، وذاك ، وأشباههما إنما هي من الألفاظ الثقيلة على السمع .

فلما ذهب الجاحظ إلى استحسان الألفاظ ، لم يذهب إلى استقباح المعاني ، وإنما ذهب إلى أن الألفاظ التي صورت المعنى في هذين البيتين لم تكن مناسبة لهذا المعنى، فالفرق بينه وبين أبي عمرو الذي استجاد البيتين كالفرق بين الرجل الأديب ، وبين الرجل غير الأديب ، أو كالفرق بين صاحب الفن ، وبين المجرد من الفن ، فأبو عمرو لا اهتمام له بالفن ، فإنه ينظر إلى مجرد المعنى ، سواء عليه أكان لباس هذا المعنى مناسباً له ، أم كان غير مناسب، والجاحظ معتن بالفن ، فإنه لا ينظر إلى مجرد المعنى، وإنما يريد أن يكون هذا المعنى مصبوباً في قالب مناسب له ، فإذا كنا نستحسن المعاني وحدها ، ولا نبالي بالقوالب التي تفرغ فيها هذه المعاني لم يبق للفن قيمة ، ولم يبق للمفاضلة بين الآثار الفنية وجه ، فإذا خطر مثلاً على بال شاعر مثل البحتري معنى من المعاني ، فصبه في قالب مناسب له ، وخطر هذا المعنى نفسه على بال رجل من العامة ، فقذفه في لغته العامية ، فلا فضل للبحتري على العامي ، فإذا كان الأصل المعنى ، وإذا كان هذا المعنى قد وقع في خلد كل واحد منهما ، وكل واحد منهما استطاع أن يؤديه إلى غيره ، هذا بلغته الشعرية ، وهذا بلغته العامية ، فلا تفاضل بينهما ، فما الحاجة إذن إلى الفن ؟ فلا تخفى بعد هذا كله النتائج التي يؤدي إليها استحسان المعاني وحدها ، دون المبالاة بالألفاظ التي تصورها ، وخوفاً من هذه النتائج التي تؤدي إلى القضاء على الفن ومذاهبه تفرغ أكابر أدباء العرب والإفرنجة للمراماة دون حياض الفن ، فمن أدباء العرب من واطأ الجاحظ على رأيه ، كأبي هلال العسكري ، وابن رشيق ، وغيرهما ، فأبو هلال يقول بحسن التأليف ، وجودة

التركيب ، وكمال الحلية والمعرض ، وابن رشيق يختار جودة الألفاظ ، وحسن السبك ، وصحة التأليف . ومن أدباء الإفرنجة من دافع عن الصنعة على نحو الجاحظ .

فمن كلام « ڤولتير » : إن الأشياء تؤثر فينا في الأغلب من نواحي أساليبها ، أي من نواحي القوالب التي تصب فيها ، لأن للناس أفكاراً واحدة بوجه التقريب ، ولكن الأسلوب هو الذي يفرق بين كاتب وكاتب .

ومن كلام « فاكه » Faguet : إن الذي يخلد الكاتب إنما هو جمال الأُسلوب .

ومن كلام « فرانس » : ليس الفكر ملكاً لمن يبدعه ، وإنما هو ملك الذي يثبته في الأذهان .

من هذا كله ، يتبين لنا أن أكابر الأدباء وبلغاء الكتاب قد أجمعوا على فضل الأسلوب فالاعتناء بالأسلوب قديم عهده في الأمم ، فاليونانيون كانوا على هذا المذهب ، والرومانيون أولعوا الولع كله بجمال الأسلوب ، حتى أفرطوا في هذا الأمر ، فأدى بهم إفراطهم إلى التقصير في الكتابة الحسنة .

أين الشعراء الذين عاشوا في زمن البحتري ، أفيخلد البحتري ويموت شعراء عصره لولا الصنعة (١) .

ليس معنى هذا كله أن الأدباء الذين استشهدت بكلامهم سواء عليهم حسن المعاني وقبحها ، وإنما هؤلاء الأدباء يريدون أن نعطي المعاني الحسنة حقها من الألفاظ الحسنة ، فهم قد شعروا بتأثير الألفاظ في تخليد المعاني ، فعظموا من مقادير هذه الألفاظ .

وإذا أردنا أن نعرف تأثير الألفاظ فلنسمع ما قاله الأستاذ « باولوسكي » في مقالة أشار فيها إلى ترجمة الدكتور « ماردروس » Mardrus للقرآن بعد أن استعد لهذا الأمر عشرين سنة :

« لقد بلغ من تأثير القرآن في قلوب الثلاثمائة مليون مسلم مبلغاً أجمع فيه المبشرون

(١) راجع محاضرة الأسلوب في كتابي « المتنبيء »

على الاعتراف بأنهم لم يستطيعوا أن يردوا مسلماً عن دينه حتى اليوم ، واستنتج الدكتور من ذلك أن الكلمة إذا وضعت مواضعها ، وأنزلت منازلها كانت سحراً حلالاً ، فمن الذي يتبجح بأن يأتي بكلام ينزل على أكباد ثلاثمائة مليون رجل نزول الماء الزلال على الكبد الحرَّى » .

فالجاحظ مولع بالفن ، ولا يقعن في خلد أحد أن ولعه بالفن يفضي به إلى تحقير المعاني ، فإنه يعظم المعاني ، ويعطيها قسطها ، فمن قوله في ذلك ، وقد أعجبه تمام التشبيه ، وغرابة المعنى ، وشرف هذا المعنى(٢) :

« ولا يعلم في الأرض شاعر تقدم في تشبيه مصيب تام ، وفي معنى غريب عجيب ، أو في معنى شريف كريم ، أو في بديع مخترع ، إلا وكل من جاء من الشعراء من بعده أو معه ، إن هو لم يَعْدُ على لفظه ، فيسرقَ بعضه ، أو يدعيه بأسره ، فإنه لا يدع أن يستعين بالمعنى ، ويجعل نفسه شريكاً فيه ، كالمعنى الذي تتنازعه الشعراء ، فتختلف ألفاظهم وأعاريض أشعارهم ، ولا يكون أحد منهم أحق بذلك المعنى من صاحبه ، أو لعله [أن] يجحد أنه سمع بذلك المعنى قط ، وقال إنه خطر على بالي من غير سماع ، كما خطر على بال الأول ، هذا إذا قرعوه به ، إلا ما كان من عنترة في صفة الذباب ، فإنه وصفه ، فأجاد وصفه ، فتحامى معناه جميع الشعراء فلم يعرض له أحد منهم ، ولقد عرض له بعض المحدثين ممن كان يحسن القول ، فبلغ من استكراهه لذلك المعنى ، ومن اضطرابه فيه ، أنه صار دليلاً على سوء طبعه في الشعر ، قال عنترة :

جادت عليها كل عين ثرة فتركن كل حديقة كالدرهم
فترى الذباب بها يغني وحده هزجاً كفعل الشارب المترنم
غرداً يحك ذراعه بذراعه فعل المكب على الزناد الأجذم

قال : يريد فعل الأقطع المكب على الزناد ، والأجذم المقطوع اليدين ، فوصف الذباب إذا كان واقعاً ، ثم حك إحدى يديه بالأخرى ، فشبهه عند ذلك برجل

(١) كتاب الحيوان — الجزء الثالث ص ٩٦ .

مقطوع اليدين ، يقدح بعودين ، ومتى سقط الذباب فهو يفعل ذلك ، ولم أسمع في هذا المعنى بشعر أرضاه غير شعر عنترة » .

وسواء أأحسن عنترة في هذا المعنى على رأي فريق ، أم لم يحسن على رأي فريق آخر ، فإن الجاحظ ذهب إلى استحسان معانيه ، ولكنه لم يقتصر على استحسان المعاني وحدها ، فإن معاني عنترة في هذه الأبيات لو لم تصورها لغة شعرية تصويراً ناطقاً لما كان لها هذه القيمة ، فالجاحظ لم يذهب إلى استحسان الألفاظ إلا لأن الألفاظ هي التي تبرز المعاني ، وتثبتها في الأذهان على تراخي الأحقاب ، أما إجادة عنترة في أبياته أو عدم إجادته ، فإنما هذه مسألة متعلقها الذوق ، ولا جدال في الذوق ، فقد نستحسن معنى ويستقبحه غيرنا ، وقد نستقبح فكراً لا يستقبحه الناس ، فالذي يستنبط من كل ما تقدم أن استحسان الألفاظ على مذهب الجاحظ إنما وجهه إعطاء المعاني حقوقها من هذه الألفاظ ، بحسب مقاديرها ، حتى يكون لها الأثر الخالد ، فهو لا يتهاون بوضع الألفاظ في مواضعها ، لأن اللفظ إذا لم يصب في قالبه شوه المعنى ، أو قلبه ، أو أضاعه ، كلفظ « يخون » : في البيت الآتي ، قال الجاحظ :

« وفي منحول شعر النابغة [1] :

فألفيت الأمانة لم تخنها   كذلك كان نوح لا يخون

وليس لهذا الكلام وجه ، وإنما ذلك كقولهم كان داود لا يخون ، وكذلك كان موسى لا يخون عليهما السلام ، وهم ، وإن لم يكونوا في حالة من الحالات أصحاب خيانة ولا تجوز عليهم ، فإن الناس إنما يضربون المثل بالشيء النادر من فعل الرجال ومن سائر أمورهم ، كما قالوا : عيسى ابن مريم روح الله ، وموسى كليم الله ، وإبراهيم خليل الرحمن ، صلى الله عليهم وسلم . ولو ذكر ذاكر الصبر على البلاء فقال : كذلك كان أيوب لا يجزع ، كان قولاً صحيحاً ، ولو [قال] : كان كذلك نوح عليه السلام لا يجزع لم تكن الكلمة أعطيت حقها ، ولو ذكر الاحتمال وتجرع الغيظ ، فقال : وكذلك

(١) كتاب الحيوان — الجزء الثاني ص ٩٠ .

كان معاوية لا يسفه ، وكان الأحنف لا يفحش ، لكان كلاماً مصروفاً عن جهته ، ولو قال : كذلك كان حاتم لا يبخل لكان ذلك كلاماً معروفاً ، ولكان القول قد وقع موقعه ، وإن كان حاتم لا يعرف بقلة الاحتمال وبالتسرع إلى المكافأة ، ولو قال : سألتك فمنعتني ، وقد كان الشعبي لا يمنع ، وكان النخعي لا يقول « لا » لكان غير محمود في جهة البيان ، وإن كان ممن يعطي ويختار نعم على لا ، ولكن لما لم يكن ذلك هو المشهور من أمرهما ، لم تصرف الأمثال إليهما ، ولم تضرب بهما » .

فنحن نرى أن كل هم الجاحظ في أساليب نقده إنما هو إعطاء الكلمة حقها ، حتى يقع القول موقعه ، وحتى يكون محموداً في جهة البيان ، فالجاحظ من هذا الباب من أكبر رجال الفن ، وإذا نظرنا في لغته تبين كيف يعطي الكلام حقوقه .

وقد حمله مذهبه هذا ، وأعني به إنزال اللفظ في منزله دون شيء من الغلو في استعمال الألفاظ ، على إنزال المعاني في منازلها دون شيء من المبالغة في تصور هذه المعاني وتخيلها ، فكما أنه يتذمم من الغلو في اللفظ ، فكذلك يتذمم من الغلو في المعنى ، فهو لا يريد من المعاني إلا ما كان صادقاً ، فمن قوله[1] :

« وإذا استوحش الإنسان ، تمثّل له الشيء الصغير في صورة الكبير ، وارتاب ، وتفرق ذهنه وانتقضت أخلاطه ، فرأى ما لا يُرى ، وسمع ما لا يُسمع ، وتوهم على الشيء اليسير الحقير أنه عظيم جليل ، ثم جعلوا ما تصور لهم من ذلك شعراً تناشدوه ، وأحاديث توارثوها فازدادوا بذلك إيماناً ، ونشأ عليه الناشىء ، وربي به الطفل ، فصار أحدهم حين يتوسط الفيافي ، وتشتمل عليه الغيطان في الليالي الحنادس فعند أول وحشة وفزعة ، وعند صياح بوم ومجاوبة صدى ، وقد رأى كل باطل ، وتوهم كل زور ، وربما كان في أصل الخلق والطبيعة نفاجاً كذاباً ، وصاحب تشنيع وتهويل ، فيقول في ذلك من الشعر على حسب هذه الصفة ، فعند ذلك يقول : رأيت الغيلان ، وكلمت السعلاة ، ثم يتجاوز ذلك إلى أن يقول : قتلتها ، ثم يتجاوز

---

(١) كتاب الحيوان — الجزء السادس ص ٧٨ .

ذلك إلى أن يقول : رافقتها ، ثم يتجاوز ذلك إلى أن يقول : تزوجتها ، قال عبيد ابن أيوب :

فلله در الغول أي رفيقة لصاحب قفر خائف مُتَقَـتِّر

وقال :

أهذا خليل الغول والذئب والذي يهيم بربات الجمال الهراكل

وقال آخر :

أخو قفرات حالف الجن وانتفى من الأنس حتى قد تقضت وسائله

له نسب الإنسى يعرف نجله وللجن منه خلقه وشمائله

ومما زادهم في هذا الباب ، وأغراهم به ، ومدّ لهم فيه ، أنهم ليس يلقون بهذه الأشعار ، وبهذه الأخبار ، إلا أعرابيًّا مثلهم ، وإلا غبيًّا لم يأخذ نفسه قط بتمييز ما يستوجب التكذيب والتصديق ، أو الشك ، ولم يسلك سبيل التوقف والتثبت في هذه الأجناس قط ، وإما أن يلقوا راوية شعر ، أو صاحب خبر ، فالراوية عندهم كلما كان الأعرابي أكذب في شعره كان أطرف عنده ، وصارت روايته أغلب ، ومضاحيك حديثه أكثر ، فلذلك صار بعضهم يدعي رؤية الغول ، أو قتلها ، أو مرافقتها ، أو تزويجها ، وآخر يزعم إنه رافق في مفازة نمراً ، فكان يطاعمه ويؤاكله » .

ولكن الجاحظ على اهتمامه بالألفاظ ، وفرط اعتنائه بالصنعة ، وعلى شدة ميله إلى السلف الطيب ، والأعراب الأقحاح ، الذين لم يجد لهم ألفاظاً مسخوطة ، ولا معاني مدخولة ولا طبعاً رديًّا ، ولا قولاً مستكرهاً ، لم يؤثر المحافظة على أساليب المتقدمين التى تناهت إليه من عصر الجاهلية والإسلام ، وإنما رأى أن لكل عصر أطواراً ، وأن الانتقال من طور إلى طور إنما هو من علامات الحياة .

اتصل الجاحظ بعصر انقلبت فيه الأفكار كل منقلب ، فقد نقلت في ذلك العصر كتب الهند ، وترجمت حكم اليونانيين ، وحولت آداب الفرس ، فكان لهذه الأفكار المنقولة تأثير في أدب العرب ، فقد استوجبت هذه الأفكار صيغاً حديثة لا عهد

للعربية بها فدخل النثر في طور لم يدخله من قبل ، ولم يكن الشعر بمعزل عن آثار الانقلاب فإن الشعراء اتصلوا بخلفاء متقلبين في أعطاف الحضارة والنعيم ، فكان من بدائه الأمور أن يكون في شعرهم أثر من صور هذه الحياة الحديثة .

ومن هؤلاء الشعراء الذين ظهرت على شعرهم آثار حديثة تختلف عن الآثار التي كانت تظهر على الشعر من قبلهم في الجاهلية والإسلام ، بشار ، وأبو نواس ، والبحتري وأضرابهم .

فكما انتقل الجاحظ في النثر من طور إلى طور ، فلجأ إلى أساليب تستطيع أن تستوعب الآثار المنقولة ، فكذلك انتقل ذوقه في الشعر من طور إلى طور ، فاختار من هذا الشعر ما ظهرت عليه آثار الانقلاب ، فلم يؤثر المحافظة على الآثار القديمة ، وإنما تطلب الصور الحديثة ، دون المبالاة بالعصبية التي تعترض على الذين يفضلون شعر أهل البدو.

فمن الطبيعي بعد هذا الانقلاب أن يفضل أبا نواس، أو بشاراً ، من الذين وسعوا آفاق الشعر ، ولم يضيقوا هذه الآفاق .

فإذا تطاول مثلاً حماد عجرد لبشار ، وقال فيه أبياتاً ، ناضل الجاحظ عن بشار فقال [1].

« وما [كان] ينبغي لبشار أن يعا[illegible] من جهة الشعر ، وما يتعلق بالشعر ، لأن حماداً في الحضيض ، و بشاراً مع العيُّوق ، وليس في الأرض [illegible]

شعره في المحدث ، إلاّ و بشار أشعر منه » .

ولا يعرف الجاحظ شاعراً بعد بشار أشعر من أبي نواس [2] :

وله آراء كثيرة في أبي نواس تتعلق بفصاحة أسلوبه ، وجودة طبعه ، منها قوله [3] :

---

(١) كتاب الحيوان — الجزء الرابع ص ١٤٥ .

(٢) « « « ص ١٤٦ .

(٣) طبقات الأنباري — ص ٩٧ .

« ما رأيت رجلا أعلم باللغـة من أبي نواس ، ولا أصح لهجة ، مع مجانبة الاستكراه » .

ومنها قوله بعد أن ذكر رجزاً له [١] :

« وأنا كتبت لك رجزه في هذا الباب ، لأنه كان عالماً راوية ، وكان قد لعب بالكلاب زماناً ، وعرف منها ما لا تعرفه الأعراب ، وذلك موجود في شعره ، وصفات الكلاب مستقصاة في أراجيزه ، هذا مع جودة الطبع ، وجودة السبك ، والحذق بالصنعة ، وإن تأملت شعره فضلته ، إلا أن تعترض عليك فيه العصبية ، أو ترى أن أهل البدو أبداً أشعر ، وأن المولدين لا يقاربونهم في شيء ، فإن اعترض هذا الباب عليك فإنك لا تبصر الحق من الباطل ما دمت مغلوباً » .

ليس معنى هذا كله أن الجاحظ يفضل المولدين من الشعراء على شعراء الجاهلية والإسلام ، وانما معناه أن الجاحظ يماشي عصره ، فكما ماشى هذا العصر في تجديد النثر بسبب جدة الأفكار ، فكذلك ماشاه في استحسان الشعر المولد ، وإلا فإن الجاحظ ما كان يتأخر عن ضرب الأمثال بامرئ القيس بن حجر ، والنابغة الذبياني ، وزهير بن أبي سلمى ، ثم بجرير والأخطل والفرزدق [٢] .

---

(١) كتاب الحيوان — الجزء الثاني ص ١٠ .

(٢) كتاب الحيوان — الجزء الخامس ص ٩٦ .

مذهب الجاحظ في الأدب

أحطنا بثلاث نواح من نواحي الجاحظ ، فقد تكشف لنا علمه ودينه ونقده ، فكان في علمه يبني على أصول معينة وصولاً إلى الحقائق ، وكان في دينه يعمل عقله في التفسير والتأويل دون أن يكون لأحد سلطان عليه ، وكان في نقده على نحو ما رأينا في علمه يتوخى الحقائق مهتماً بالفن الاهتمام كله ، فإذا عرفنا هذا ، فهل علينا من حرج أن نعرف طائفةً من مذاهبه في الأدب ، كما عرفنا طائفةً من مذاهبه في العلم والدين والنقد ، وآراء الجاحظ في الأدب مشتتة في أثناء كتبه ، فلا نجد له مباحث مطردة في هذا الباب يأخذ بعضها برقاب بعض ، فكأنه يلهو بمجامع المعاني لهواً ، وهذا اللهو من خصائص عبقريته .

وعلى هذا النحو أننا لا نطمع في الاستقصاء في آرائه الأدبية ، وإنما نتوخى معرفة اليسير منها ، لعلنا نتصور الجاحظ في صورة الأديب ، كما تصورناه في صورة العالم ، أو في صورة الفيلسوف ، أو في صورة الناقد .

قبل أن أتفرغ لبيان أفكاره الأدبية لا أرى لي مندوحة عن الإشارة إلى مذهبه في الأدب ، فالجاحظ من أصحاب الأدب المجرّد ، إنا نعلم أنه عاش في عصر استفاضت فيه الحرية في كثير من الأمور ، من جملة هذه الأمور تسمية الأشياء بأسمائها دون اللجوء إلى الكنايات ، فإذا تصفحنا بعض الشعر في هذا العصر ظهرت لنا ألفاظ عارية تصور الطبيعة في حقائق صورها ، دون شيء من التعفف ، والجاحظ متصل بعصره الاتصال كله على نحو ما تبين لنا ذلك ، فلم ينسلخ من أثر من آثار هذا العصر ، فإذا وجد أن الأدب المجرد مذهب من المذاهب المستفيضة أخذ به ولم يتورع ، فهو صورة عصره في كثير من الأمور ، فمن قوله في هذا المعنى [1] :

(١) كتاب الحيوان — الجزء الثالث ص ١٢ .

و بعض الناس إذا انتهى إلى ذكر ... ارتدع ، وأظهر التقزز ، واستعمل باب التورع . وأكثر من تجده كذلك فإنما هو رجل ليس معه من العفاف والكرم والنبل والوقار إلا بقدر هذا الشكل من التصنع ، ولم يكشف قط صاحب رياء ونفاق إلا عن لؤم مستعمل[١] ، ونذالة متمكنة » ، إلى آخر ما ذكره ثم أيد مذهبه هذا بطائفة من كلام النبي صلى الله عليه وسلم وكلام بعض الخلفاء الراشدين ، والسلف الطيب .

ففي كلام الجاحظ ما يدل على أن هذا الشكل من الأدب لم يشع الشيوع كله ، فقد كانت طائفة من الناس يرتدعون ، ويظهرون التقزز ، ويستعملون باب التورع ، إلا أن الجاحظ كان يرى أن هذه الأخلاق إنما هي ضرب من التصنع ، وكيف كان الأمر فالذي يهمنا إنما هو المذهب نفسه ، ولهذا المذهب رجال ظهروا في فرنسة في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر ، منهم هنري بيل Henri Beyle ، وفي مقدمتهم بالزاك Balzac وفلوبر Flaubert ثم زولا Zola وغيرهم ، فيكاد يكون بالزاك أستاذ الأدب المجرد ، أو الأدب الواقع على حسب المصطلح ، فقد أحيا في رواياته جماعات تصوّرها على نحو جماعات اللحم والدم .

لمح بالزاك في مقدمة رواية من رواياته إلى غرضه ، فالغاية التي يرمي إليها إنما هي كتابة التاريخ الطبيعي للرجل ، فنحن ندرك من هذه الكلمة النتائج التي تؤدي إليها كتابة التاريخ الطبيعي للبشر ، شأن صاحب هذا المذهب إنما هو وصف القبح والجمال ، ووصف الخير والشر على وجه واحد ، فلا قبح ولا جمال ، ولا خير ولا شر في نظر أهل هذا الأدب ، وإنما هي مظاهر مختلفة يظهرها الرجل ، فهم يشبهون الإنسان بحيوان أو بنبات .

ليست غايتنا التبسط في الكلام على أهل الأدب المجرد ، وإنما أردنا أن نقابل

---

(١) لعله : عن لؤم مستفحل .

بينهم و بين الجاحظ ، فالجاحظ يختلف عنهم من حيث إنه لم يتوسع في هذا المذهب ، فهو لم يضع روايات يرمي فيها إلى تصوير القبح والجمال ، أو الخير والشر ، و إنما لجأ إلى مفردات قد لجأوا إلى أشباهها نظراً إلى التحامها بموضوعاتهم ، فهو يشبههم في قليل من المواطن . فقد نجد من كلامه ما هو مجرد من الأدب نسبة إلى عصرنا ، وقد يكون هذا الكلام مألوفاً في عصره ، إلا أنه كيف كان الأمر فلا نستطيع في هذه الأيام أن نستعمل أضراب هذا الكلام ، لأن عصرنا لم يتهيأ لهذا النوع من الأدب ، أما كلام الجاحظ الذي أشرت إليه فإنه يتجلى لنا في بحثنا عن لغته .

وقد جرّته هذه الحرية في الأدب إلى حرية مثلها في اللغة ، وهذا ما قاله في بعض كلامه على الكلاب[1] :

«فأما الذي شهدت أنا من أبي إسحق بن سيّار النظام ، فإنا خرجنا ليلةً في بعض طرقات الأُبُلَّة ، وتقدمته شيئاً ، وألح عليه كلب من شكل كلاب الرعاء ، وكره أن يعدو فيغريَه ويُضَرِّيَه ، وأنف أيضاً من ذلك ، وكان أنفاً ، شديد الشكيمة ، أبّاءً للهضيمة ، وكره أن يجلس مخافة أن يشغر عليه ببوله ، أو لعله أن يعضه فيهرِت ثوبه ، وألح عليه ، فلم ينله بسوء ، فلما جزنا حده وتخلصنا منه ، قال إبراهيم في كلام له كثير ، يعدد خصاله المذمومة ، فكان آخر كلامه أن قال : إن كنت سبع ، فاذهب مع السباع ، وعليك بالبراري والغياض ، و إن كنت بهيمة ، فاسكت عنا سكوت البهائم » . فلما بلغ الجاحظ إلى قوله البهائم ، قال :

ولا تنكر قولي وحكايتي عنه بقول ملحون ، من قولي : إن كنت سبع ، ولم أقل إن كنت سبعاً ، وأنا أقول : إن الإعراب يفسد نوادر المولدين ، كما أن اللحن يفسد كلام الأعراب ، لأن سامع ذلك الكلام إنما أعجبته تلك الصورة ، وذلك المخرج ، وتلك اللغة ، وتلك العادة ، فإذا دخَلْت على هذا الأمر الذي إنما أضحك بسخفه ، و بعض كلام العجمية التي فيه ، حروفَ الإعراب ، والتحقيق والتثقيل ،

---

(١) كتاب الحيوان — الجزء الأول ص ١٣٦ .

وحولته إلى صورة ألفاظ الأعراب الفصحاء ، وأهل المروءة والنجابة ، انقلب المعنى مع انقلاب نظمه ، وتبدلت صورته » .

فلم يأنف الجاحظ بعد أن بسط مذهبه هذا من لحن ، أو من كلام غير معرب ، أو من لفظ معدول عن جهته ، حتى قال في كتاب البخلاء[١] :

« وإن وجدتم في هذا الكتاب لحناً ، أو كلاماً غير معرب ، ولفظاً معدولاً عن جهته ، فاعلموا أنا إنما تركنا ذلك ، لأن الإعراب يبغض هذا الباب ، ويخرجه من حده ، إلا أن أحكي كلاماً من كلام متعاقلي البخلاء ، وأشحاء العلماء ، كسهل ابن هرون وأشباهه » .

ولم يقتصر على استعمال اللحن ، والكلام غير المعرب ، واللفظ المعدول عن جهته ، وإنما أوصى بهذا المذهب ، فقال[٢] :

« ومتى سمعت ، حفظك الله ، بنادرة من كلام الأعراب ، فإياك وأن تحكيها إلا مع إعرابها ومخارج ألفاظها ، فإنك إن غيرتها بأن تلحن في إعرابها ، وأخرجتها مُخرج كلام المولدين والبلديين ، خرجتَ من تلك الحكاية وعليك فضل كبير ، وكذلك إذا سمعت بنادرة من نوادر العوام ، ومُلحة من مُلَح الحِشوة والطغام ، فإياك وأن تستعمل فيها الإعراب ، أو أن تتخير لها لفظاً حسناً ، أو تجعل لها من فيك مخرجاً سَرِيًّا ، فإن ذلك يفسد الإمتاع بها ، ويخرجها من صورتها ، ومن الذي أُريدت له ، ويذهب استطابتهم إياها واستملاحهم لها » .

فإذا عرفنا ميله إلى الحرية في التصوير ، وإلى الحرية في اللغة ، لزمنا أن نعرف مذاهبه في هذا التصوير ، وفي هذه اللغة ، ما هي الأصول التي يبني عليها الفن ؟

لم يعتن الجاحظ بشيء في أبواب الفن اعتناءه بالمناسبة بين الألفاظ والمعاني ، فإن قاعدة : لكل مقام مقال ، تكاد تكون أغلب قواعده ، فما أكثر ذكره لها في كلامه ، وما أكثر تنبيهه على استعمالها ، ولا عجب في ذلك ، فإذا رأينا كيف يناسب بين

(١) كتاب البخلاء ص ٣٣ .

(٢) البيان والتبيين — الجزء الأول ص ٨١ .

ألفاظه ومعانيه ، وكيف تكون ألفاظه على أقدار هذه المعاني ، عرفنا السبب الذي من أجله يحرص هذا الحرص على أن يكون المقال مطابقاً للمقام ، فقد نبه على هذه القاعدة في مواطن كثيرة من كلامه ، لا أرى بي حاجة إلى ذكرها كلها ، وإنما اجتزئ بذكر بعضها ، فمن قوله في هذا المعنى(١) :

« ولكل ضرب من الحديث ضرب من اللفظ ، ولكل نوع من المعاني نوع من الأسماء ، فالسخيف للسخيف ، والخفيف للخفيف ، والجزل للجزل ، والإفصاح في موضع الإفصاح ، والكناية في موضع الكناية ، والاسترسال في موضع الاسترسال ، وإذا كان موضع الحديث على أنه مضحك وملهي ، وداخل في باب المزاح والطيب ، فاستعملت فيه الإعراب ، انقلب عن جهته ، وإن كان في لفظه سخف ، وأبدلت السخافة بالجزالة ، صار الحديث الذي وضع على أن يسر النفوس ، يُكْرِبُها ، ويأخذ بأكظامها » .

أو قوله(٢) :

« وقبيح بالمتكلم أن يفتقر إلى ألفاظ المتكلمين في خطبة ، أو رسالة ، أو في مخاطبة العوام والتجار ، أو في مخاطبة أهله وعبده وأمته ، أو في حديثه إذا تحدث ، أو خبره إذا أخبر ، وكذلك [فإنه] من الخطأ أن يجاب ألفاظ الأعراب ، وألفاظ العوام ، وهو في صناعة الكلام داخل . ولكل مقام مقال ، ولكل صناعة شكل » .

أو قوله(٣) :

« ووجدنا الناس إذا خطبوا في صلح بين العشائر أطالوا ، وإذا أنشدوا الشعر بين السماطين في مديح الملوك أطالوا ، وللإطالة موضع وليس ذلك بخطل ، وللإقلال موضع ، وليس ذلك من عجز ... ورأينا الله تبارك وتعالى إذا خاطب العرب والأعراب

---

(١) كتاب الحيوان — الجزء الثالث ص ١٢ .

(٢) كتاب الحيوان — الجزء الثالث ص ١١٤ .

(٣) « « « الأول ص ٤٦ .

أخرج الكلام مخرج الإشارة والوحي والحذف ، وإذا خاطب بني إسرائيل ، أو حكى عنهم ، جعله مبسوطاً ، وزاد في الكلام » .

ومثل الإشارة إلى قاعدة : لكل مقام مقال ، كثير في كلام الجاحظ ، ولكن كيف يريد الجاحظ أن يكون هذا المقال ؟ ما هي قواعد الإنشاء في نظره ؟ أيريد أن يرسل الكاتب كلامه على سجيته ، دون شيء من التنقيح ؟ أم يريد أن ينقح هذا الكلام ؟

اهتم الجاحظ بالتنقيح كل الاهتمام ، فهو يعلم مقدار فتنة الكاتب بكلامه ، فلم يجد بدًّا من تنبيهه على التهذيب ، فقال :[1]

« وينبغي لمن كتب كتاباً أن لا يكتبه إلا على أن الناس كلهم له أعداء ، وكلهم عالم بالأمور ، وكلهم متفرغ له ، ثم لا يرضى بذلك حتى يدع كتابه غفلاً ، ولا يرضى بالرأي الفطير ، فإن لابتداء الكتاب فتنة وعجباً ، فإذا سكنت الطبيعة ، وهدأت الحركة ، وتراجعت الأخلاط ، وعادت النفس وافرة ، أعاد النظر فيه ، فيتوقف عند فصوله ، توقف من يكون وزنُ طمعه في السلامة أنقص من وزن خوفه من العيب ، ويتفهم معنى قول الشاعر :

إن الحديث تغر القومَ خلوته حتى يلج بهم عيٌّ وإكثار

ويقف عند قولهم في المثل : كل مجرٍ في الخلاء يُسَرُّ ، فيخاف أن يعتريه ما اعترى من أجرى فرسه وحده ، أو خلا بعلمه عند فقد خصومه ، وأهل المنزلة من أهل صناعته ، وليعلم أن صاحب القلم يعتريه ما يعتري المؤدب عند ضربه وعقابه ، فما أكثر من يعزم على خمسة أسواط ، فيضرب مائة ، لأنه ابتدأ الضرب وهو ساكن الطباع ، فأراه السكون أنه أن الصواب في الإقلال ، فلما ضَرب تحرك دمه ، فأشاع فيه الحرارة ، فزاد في غضبه ، فأراه الغضب أن الرأي في الإكثار ، وكذلك صاحب القلم ، فما أكثر من يبتدئ الكتاب وهو يريد مقدار سطرين ، فيكتب عشرة ،

---

(١) كتاب الحيوان — الجزء الأول ص ٤٤ .

والحفظ مع الإقلال أمكن ، وهو مع الإكثار أبعد ، واعلم أن العاقل إن لم يكن بالمتبع ، فكثيراً ما يعتريه من ولده ، أن يَحْسُنَ في عينه منه المقبَّح في عين غيره ، فليعلم أن لفظه أقرب نسباً منه من ابنه ، وحركته أمسُّ به رحماً من ولده ، لأن حركته شيء أحدثه من نفسه ، وبذاته ، ومن عين جوهره فصلت ، ومن نفسه كانت ، وإنما الولد كالمخطة يتمخطها ، والنخامة يقذفها ، ولا سواء إخراجك من جزئك شيئاً لم يكن منك ، وإظهارك حركة لم تكن حتى كانت منك ، ولذلك تجد فتنة الرجل بشعره ، وفتنته بكلامه وكتبه ، فوق فتنته بجميع نعمته ، وليس الكتاب إلى شيء أحوج منه إلى إفهام معانيه ، حتى لا يحتاج السامع لما فيه من الروية ، ويحتاج من اللفظ إلى مقدار يرتفع به عن ألفاظ السفلة والحشوة ، ويحطه من غريب الإعراب ووحشي الكلام » .

وقال في مقام آخر [١] :

« وليس في الأرض خصمان يتنازعان إلى حاكم إلا كل واحد منهما يدعي عدم الإنصاف والظلم على صاحبه ، وليس في الأرض إنسان إلا وهو يطرب من صوت نفسه ، ويعتريه الغلط في شعره ، وفي ولده ، إلا أن الناس في ذلك طبقات من الغلط ، فمنهم الغرق المغمور ، ومنهم من قد نال من الصواب ، ونال من الخطإ ، ومنهم من يكون خطؤه مستوراً ، لكثرة صوابه ، فما أحسن حاله ما لم يمتحن بالكشف ، ولذلك احتاج العاقل [في العجب بولده ، و] في استحسان كتبه وشعره ، من التحفظ والتوقي ، ومن إعادة النظر والتهمة ، إلى أضعاف ما يحتاج إليه في سائر ذلك » .

ولكنه على شدة اهتمامه بالتنقيح والتهذيب ، لا يريد المبالغة في هذا الأمر ، لأنه يعلم أن المبالغة قد تفضي بالكاتب في خاتمة الأمر إلى شيء من التنطع والتنطس ، فلذلك قال [٢] :

---

(١) كتاب الحيوان — الجزء الثاني ص ٣٧ .

(٢) كتاب الحيوان — الجزء الأول ص ٤٥ .

« وليس له أن يهذّبه جدًّا ، وينقّحه ، ويصفيه ، ويروّقه ، حتى لا ينطق إلاّ بلب اللب ، وباللفظ الذي قد حذف فضوله ، وأسقط زوائده ، حتى عاد خالصاً لا شوب فيه ، فإنه إن فعل ذلك ، لم يفهم عنه إلا بأن يجدد لهم إفهاماً مراراً وتكراراً ، لأن الناس كلهم قد تعودوا المبسوط من الكلام ، وصارت أفهامهم لا تزيد على عاداتهم ، إلا بأن يعكس عليها ويؤخذ بها ، ألا ترى أن كتاب المنطق الذي قد وسم بهذا الاسم ، لو قرأته على جميع خطباء الأمصار ، و بلغاء الأعراب ، لما فهموا أكثره ، وفي كلام إقليدس كلام يدور ، وهو عربي ، وقد صفي ، ولو سمعه بعض الخطباء لما فهمه ، ولا يمكن أن يفهمه من يريد تعليمه ، لأنه يحتاج إلى أن يكون قد عرف جهة الأمر ، وتعود اللفظ المنطقي الذي استخرج من جميع الكلام . قال معاوية بن أبي سفيان ، رضي الله تعالى عنهما لصُحَار العبدي : ما الإيجاز ؟ قال : أن تجيب فلا تبطئ ، وتقول فلا تخطئ ، قال معاوية : أوَ كذلك تقول ؟! قال صحار : أقلني يا أمير المؤمنين ، لا تخطئ ولا تبطئ . فلو أن سائلاً سألك عن الإيجاز ، فقلت لا تخطئ ولا تبطئ ، وبحضرتك خالد بن صفوان لما عرف بالبديهة ، وعند أول وهلة أن قولك لا تخطئ متضمن بالقول ، وقولك لا تبطئ متضمن بالجواب ، وهذا حديث كما ترى آثروه ورضوه ، ولو أن قائلاً قال لبعضنا : ما الإيجاز ؟ لظننت أنه يقول : الاختصار . والإيجاز ليس يعنَى به قلة عدد الحروف واللفظ ، وقد يكون الباب من الكلام من أتى عليه فيما يسع بطن طومار فقد أوجز ، وكذلك الإطالة ، وإنما ينبغي له أن يحذف بقدر ما لا يكون سبباً لإغلاقه ، ولا يُرَدِّد وهو يكتفي من الإفهام بشطره ، فما فضل عن المقدار فهو الخطل » .

وإذا كان الجاحظ يرمي إلى التهذيب والتنقيح ، فمن الطبيعي أن يجعل للألفاظ صفات وخصائص ، وأن يحمل الكاتب على توخي هذه الصفات وهذه الخصائص ، ما هي طبائع الألفاظ التي يميل إليها الجاحظ ؟ قال في هذا المعنى [١] :

(١) البيان والتبيين — الجزء الأول ص ٤٧ .

« وأحسن الكلام ما كان قليله يغنيك عن كثيره ، ومعناه في ظاهر لفظه ، وكان الله عز وجلّ قد ألبسه من الجلالة ، وغشاه من نور الحكمة ، على حسب نية صاحبه وتقوى قائله ، فإذا كان المعنى شريفاً ، واللفظ بليغاً ، وكان صحيح الطبع ، بعيداً عن الاستكراه ، منزهاً عن الاختلال ، مصوناً عن التكلف ، صنع في القلب صنيع الغيث في التربة الكريمة ، ومتى فصلت الكلمة على هذه الشريطة ، ونفذت من قائلها على هذه الصفة ، أصحبها الله من التوفيق ، ومنحها من التأييد ، ما لا يمتنع من تعظيمها به صدور الجبابرة ، ولا يذهل عن فهمها عقول الجهلة ، وقد قال عامر ابن عبد القيس : الكلمة إذا خرجت من القلب وقعت في القلب ، وإذا خرجت من اللسان لم تجاوز الآذان » .

ومن قوله أيضاً[1] :

« ومتى شاكل ، أبقاك الله ، ذلك اللفظ معناه ، وأعرب عن فحواه ، وكان لتلك الحال وفقاً ، ولذلك القدر لفقاً ، وخرج من سماجة الاستكراه ، وسلم من فساد التكلف ، كان قميناً بحسن الموقع ، وبانتفاع المستمع ، وأجدر أن يمنع جانبه من تناول الطاعنين ، ويحمي عرضه من اعتراض العيابين ، ولا تزال القلوب به معمورة ، والصدور مأهولة ، ومتى كان اللفظ أيضاً كريماً في نفسه ، متخيراً في جنسه ، وكان سليما من الفضول ، بريئاً من التعقيد ، حبب إلى النفوس ، واتصل بالأذهان ، والتحم بالعقول ، وهشت إليه الأسماع ، وارتاحت له القلوب ، وخف على ألسن الرواة ، وشاع في الآفاق ذكره ، وعظم في الناس خطره ، وصار ذلك مادة للعالم الرئيس ، ورياضة المتعلم الريّض ، فإن أراد صاحب الكلام صلاح شأن العامة ، ومصلحة حال الخاصة ، وكان ممن يعم ولا يخص ، وينصح ولا يغش ، وكان مشغوفاً بأهل الجماعة ، شنقاً لأهل الاختلاف والفرقة ، جمعت له الحظوظ من أقطارها ، وسيقت إليه القلوب بأزمتها ، وجمعت النفوس المختلفة الأهواء على محبته ،

(١) البيان والتبيين — الجزء الثاني ص ٣ .

وجبلت على تصويب إرادته ، ومن أعاره الله من معرفته نصيباً ، وأفرغ عليه من محبته ذنوباً ، حنت إليه المعاني ، وسلس له نظام اللفظ ، وكان قد أغنى المستمع من كد التكلف ، وأراح قارئ الكتاب من علاج التفهم ، ولم أجد في خطب السلف الطيب ، والأعراب الأقحاح ، ألفاظاً مسخوطة ، ولا معاني مدخولة ، ولا طبعاً رديًّا ، ولا قولا مستكرهاً ، وأكثر ما نجد ذلك في خطب المولدين البلديين المتكلفين ، ومن أهل الصنعة المتأدبين ، وسواء كان ذلك منهم على جهة الارتجال والاقتضاب ، أوكان من نتائج التخير والتفكر ، ومن شعراء العرب من كان يدع القصيدة تمكث عنده حولاً كريتاً ، وزمناً طويلاً ، يردد فيها نظره ، ويقلب فيها رأيه ، اتهاماً لعقله ، وتتبعاً على نفسه ، فيجعل عقله ذماماً على رأيه ، ورأيه عياراً على شعره ، إشفاقاً على أدبه ، وإحرازاً لما خوله الله من نعمته » .

فأكبر همه انتخاب اللفظ النبيه الشريف ، واجتناب اللفظ الهجين الردىء .

وقبل أن يشرع الكاتب في الكتابة يلزمه أن يتصور المعنى ، ثم يتصو راللفظ على قدر هذا المعنى (١) :

« وشر البلغاء من هيأ رسم المعنى قبل أن يهيئ المعنى ، عشقاً لذلك اللفظ ، وشغفاً بذلك الاسم ، حتى صار يجر إليه المعنى جرًّا ، ويلزقه به إلزاقاً ، حتى كأن الله تعالى لم يخلق لذلك المعنى اسماً غيره ، ومنعه الإفصاح عنه إلا به » .

هذه بوجه التقريب القواعد التي رسمها الجاحظ في صناعة الكلام ، وإذا أجملناها وجدنا أنها تتعلق بالمناسبة بين الألفاظ والمعاني ، وبتنقيح الألفاظ دون شيء من الغلو في هذا التنقيح ، وبما يؤدي إليه التنقيح من انتخاب الألفاظ وتخيرها ، فهي من هذا الوجه تشبه في بعض الأحوال القواعد التي يضعها أدباء الإفرنجة ، فإذا قابلنا مثلاً بين ما قاله الجاحظ وبين ما قاله الشاعر الفرنسي « بوالو » في فنه الشعري ، وجدنا القولين متشابهين في كثير من الوجوه ، فإذا تم للأديب هذا كله ،

---

(١) رسائل الجاحظ على هامش الكامل — الجزء الأول ص ٢٨ .

واجتمعت له أسبابه ، فليعمل بعد هذا بما قاله الجاحظ له[1] :

« وليس ينبغي لكتب الآداب والرياضات أن يحمل أصحابها على الجد الصرف ، وعلى العقل المحض ، وعلى الحق المر ، وعلى المعاني الصعبة التي تستكد النفوس ، وتستفرغ المجهود ، وللصبر غاية ، وللاحتمال نهاية » .

فما ينبغي للأدب في نظر الجاحظ أن يكون متعبة للعقل ، وإنما الأدب في رأيه ضرب من الرياضة ، وعلى هذه الصورة يشبه مذهب الجاحظ في قدر الأدب مذهب أكابر الأدباء في فرنسة ، وفي جملتهم الأستاذ « لانسون » Lanson الذي يريد أن يكون الأدب : رياضة وذوقاً ولذة[2] .

---

(١) رسائل الجاحظ على هامش الكامل — الجزء الأول ص ١٥٥ .

(٢) راجع كتابي : المتنبئ — ص ٤ .

تفكير الجاحظ

تبين لنا في كلامنا على عصر الجاحظ أن الجاحظ متصل بكل أفق من آفاق هذا العصر ، فلئن استفاضت حرية التفكير في عصره ، فما غاب عن هذه الحرية ، فقد كان يرجع إلى عقله في كل مذهب من مذاهبه ، ولئن شاعت الزندقة والخرافات والأباطيل في أيامه ، فما غفل عن التنديد بها ، والتقذر منها . بقي أن نعلم مقدار اتصاله بالناحية الثالثة من نواحي عصره ، وهي جهة الانقلاب الفكري ، فما هو نصيب الجاحظ من هذا الانقلاب ؟

نقلت في أيامه كتب الهند ، وترجمت حكم اليونانيين ، وحولت آداب الفرس ، فما هو حظ الجاحظ من هذا النشاط الفكري ؟

قد كنت ذكرت في بعض المواطن أن الجاحظ إنما هو كامل من الكملة ، وأردت بكلمة الكامل ما يريد الإفرنجة بكلمتهم Encyclopédiste فالجاحظ لخّص معارف عصره على نحو أرسطاطاليس في القديم ، وقد أشار بعض الإفرنجة إلى امتداد هذه العبقرية ، وانبساط مجالها ، فاستشهد أحدهم ، وهو البارون « كارادي ڤو » Baron Carra de Vaux في كتابه : مفكرو الإسلام ، بفصل الجاحظ في نفع الكتاب ، وهو الفصل الذي عقده في مقدمة كتاب الحيوان ، فدل على براعته في الإنشاء ، فبعد أن ذكر البارون طائفة من هذا البحث قال :

«هذا بوجه التقريب نمط من أنماط فصول الجاحظ ، إن في هذا كله مجموعاً قد يكون في بعض الأحيان غير منسجم ، ولكنه ملآن بالحوادث والأفكار ، إني لا أجسر على أن أؤكد أن كل فصوله قد تكون خصيبة مثل هذا الفصل ، ولكننا قد نلاقي في كلها بعض الشيء ، ولنذكر أيضاً أن في رسائله الصغيرة قطعاً جديرة باستيقاف

الباحثين ، وخليقة بدراسة خاصة ، ففي رسالة التربيع والتدوير تعرض لنا ، ولا أدري كيف يكون ذلك ، سلسلة طويلة فيها مسائل في كل أنواع الموضوعات والعلوم ، في التاريخ والأساطير ، وطبقات الأرض ، كأن هذا كله إنما هو برنامج « معلمة[١] » تدل على روح التطلع في القرن التاسع ، وفي رسالة الأسود والأبيض كلام موجز على تاريخ الزنج ، وذكر أبطالهم وفتوحاتهم ، كل هذا مجموع حوادث قل من يعرفها ، وقد تنفع في البحث عن روح الأمم والأجناس .

إن هذا النوع من علم الروح كثيراً ما يستهوي الجاحظ ، فهو يرجع إليه من حين إلى آخر ، فإن عقله الغريب ، الميال إلى النقائض ، يحمله على النظر في الأمم التي لم يكن لها على أيامه مقام عال ، وعلى هذه الصورة إن لرسالته في مدح الترك فائدة ، ومن الممكن أن تكون هذه الرسالة أول الكتب التي توسع أصحابها في الكلام على الترك ، وجعلوا لهم بعض الشأن ، فإن خصائص الأمم تشغل ذهن الجاحظ ، فهو يأتي على ذكرها في عدة مواطن » .

* * *

خاض الجاحظ في كل باب من الأبواب ، فلم يتعاظمه الكلام على الاجتماع ، أو على الأخلاق ، أو على التربية والتعليم ، أو على الطبيعة ، أو على التاريخ الطبيعي ، أو على فلسفة اللغة ، إلى غير ذلك من المذاهب التي تدل على سعة عبقريته ، غير أن الاستقصاء في هذه الغرائب والعجائب قد يطول أمره ، ولكننا لامندوحة لنا عن الإلمام ببعضها ، حتى نعرف شيئاً من امتداد عقل الجاحظ .

يتنقل الجاحظ على نحو ما قال البارون « كارادي ڤو » من فكر إلى فكر ، ولكنه يظل في هذه التنقلات صاحب نكتة ، خفيف الروح محبوب النفس ، إنه يلعب من دون أن يضجر غيره في هذا اللعب .

مرةً يخطر بباله باب من أجل أبواب الاجتماع في هذا العصر ، وهو الكلام على

---

(١) ترجمة (Enclopédie) .

حقوق النساء ، فينبري للدفاع عن المرأة ، والمطالبة بتوفير حقوقها ، فكأنه نصير النساء في أيامنا هذه[١] :

« ولسنا نقول ، ولا يقول أحد ممن يعقل ، أن النساء فوق الرجال ، أو دونهم بطبقة ، أو طبقتين ، أو بأكثر ، ولكنا رأينا ناساً يزرون عليهن أشد الزراية ، ويحتقرونهن أشد الاحتقار ، ويبخسونهن أكثر حقوقهن ، وأن من العجز أن يكون الرجل لا يستطيع توفير حقوق الآباء والأعمام إلا بأن ينكر حقوق الأمهات والأخوال ، فلذلك ذكرنا جملة ما للنساء من المحاسن ، ولولا أن ناساً يفخرون بالجلد وقوة المنة ، وانصراف النفس عن حب النساء ، حتى جعلوا شدة حب الرجل لأمته وزوجته وولده دليلاً على الضعف ، وباباً من الخور ، لما تكلفنا كثيراً مما شرطناه في هذا الكتاب » .

وقد قال في مقام آخر[٢] :

« ونحن ، وإن رأينا أن فضل الرجل على المرأة في جملة القول في الرجال والنساء أكثر وأظهر ، فليس ينبغي لنا أن نقصر في حقوق المرأة ، وليس ينبغي لمن عظّم حقوق الآباء أن يصغّر حقوق الأمهات ، وكذلك الإخوة والأخوات ، والبنون والبنات ، وأنا وإن كنت أرى أن حق هذا أعظم ، فإن هذه أرحم » .

ومرةً يتغلغل في أعماق الجماعات ، فيقلب النظر في أخلاقهم ، فلا يزال يمارس هذه الأخلاق ، ويدون في ذهنه نتائج مراسه وتجربته ، حتى يكشف الغطاء عن أسرارها ، فيقذف في هذا المعنى بالرأي الخمير الذي لا تزيده الأيام إلا قوةً وتمكناً ، من هذا الباب كلامه على السفلة والوضعاء والمحقَّرين الذين إذا صار إليهم شيء من الأمر ظلموا وغشموا[٣] :

---

(١) رسائل الجاحظ على هامش كامل المبرد — الجزء الأول ص ١٥٢ .

(٢) رسائل الجاحظ على هامش كامل المبرد — الجزء الأول ص ١٦١ .

(٣) كتاب الحيوان — الجزء السادس ص ٢٢ .

والكبر في الأجناس الذليلة من الناس أرسخ وأعم ، ولكن الذلة والقلة مانعتان من ظهور كبرهم ، فصار لا يعرف ذلك إلا أهل المعرفة ، كعبيدنا من السند ، وذمتنا من اليهود ، والجملة أن من قدر من السفلة والوضعاء والمحقرين أدنى قدرة ، ظهر من كبره على من تحت قدرته على مراتب القدرة ما لا خفاء به ، فإن كان ذمياً وأحس بما له في صدور الناس تزيد في ذلك ، واستظهرت طبيعته بما يظن أن فيه رقع ذلك الخرق ، وحياص ذلك الفتق ، وسد تلك الثلمة ، فتفقد ما أقول لك ، فإنك ستجده فاشياً ، وعلى هذا الحساب من هذه الجهة صار المملوك أسوأ مَلَكَةً من الحر ، وشيء قد قتلتُه علماً ، وهو أني لم أر ذا كبر قط على من دونه إلا وهو يذل لمن فوقه بمقدار ذلك ووزنه » .

ونحن إذا تفقدنا ما قاله وجدناه فاشياً كل الفشو ، حتى نكاد نلمس بأيدينا هذه الأخلاق في كل جانب من جوانبنا ، فما أصدق قوله ، وما أبين رأيه ! لقد تعمق في روح الجماعات ، وأمعن في دراسة هذه الروح ، فبعد دراسته للحيوان وإظهاره لأخلاقه وطبائعه ، ومقابلته بين أصناف هذا الحيوان ، وكلامه على تعادي هذه الأصناف ، بعد هذا كله يرتفع إلى أفق أعلى من أفق الحيوان ، فيصور عداوة الإنسان ، ويوضح أسباب هذه العداوات ، فيقول[1] :

« وأسباب عداوات الناس ضروب : منها المشاكلة في الصناعة ، ومنها التقارب في الجوار ، ومنها التقارب في النسب ، والكثرة من أسباب التقاطع في العشيرة والقبيلة ، والسَّاكن عدو للمُسْكِن ، والفقير عدو للغني ، وكذلك الماشي والراكب ، وكذلك الفحل والخصي ، وبغضاء السُّوَق موصولة بالملوك ، وكذلك [المعتَقُ عن دُبُرٍ] ، والموصَى له بالمال الرغيب ، وكذلك الوارث والموروث ؛ ولجميع هذا تفسير ، ولكنه يطول » .

فلو أحببنا أن نمتحن قوله في هذه الأيام ، لما وجدنا فيه انحرافاً عن الحق ، فليست

(١) كتاب الحيوان — الجزء السابع ص ٣٠ .

آراؤه في الاجتماع إلا بنات تجربته وعيانه . وكما أنه درس أخلاق الجماعات العامة ، فكذلك درس أخلاقهم الخاصة ، وأمعن في هذه الدراسة في مثل كلامه على البخل أو على العشق أو على الحسد ، فلم يفته لون من ألوانها ، أو حركة من حركاتها ، أو هيأة من هيآتها ، ومن قرأ كتابه في الحاسد والمحسود تجلت له قدرته على تصوير الأخلاق الخاصة ، فيكاد يكون في هـذا الباب عالماً من علماء النفس ، يتصل بأجزائها فيقار بها ، ويخالطها ، ويعرض لكل ناحية من نواحيها ، ويصف هـذه الناحية أدق وصف ، ويصورها أتم تصوير ، حتى إذا فرغ من البواطن ، انتقل به الكلام إلى الظواهر ، فراقبها ، وتأمل فيها ، واستخرج منها صفاتها البارزة ، وخصائصها الظاهرة ، ولولا أني أعتقد أن في نقل طائفة من هـذا كله تشويهاً للمحاسن لنقلتها .

ماذا أنقل ؟ أأنقل هذا التعريف الوجيز الذي صور فيه بكلمتين داء الحسد ، فقال : « والحسد أبقاك الله من داءٍ ينهك الجسد ، ويفسد الأود ، علاجه عسر ، وصاحبه ضجر ، وهو باب غامض ، وأمر متعذر ، وما ظهر منه فلا يداوى ، وما بطن منه فمداويه في عناء » ؟

فمن كان له صلة بحاسد من الحساد ، تجلت له صحة هذا التعريف ، وشعر بقوته ، فأي حاسد لم نر جسده منهوكاً ، وصدره ضجراً ، لا يملكه غمض الليل ، ولا يذوق لذة البال ، فلا تقع عينه على صاحب نعمة إلا اضطربت كل أعصابه ، وكأن الطبيعة عادلة ، فقد جعلت في قلب الحاسد عقابه ، وما هذا العقاب إلا النار التي تأكله .

أم أنقل حالة الحاسد الظاهرة :

« وما لقيت حاسداً قط إلا تبين مكنونه بتغير لونه ، وشخوص عينه ، وإخفاء سلامه ، والإقبال على غيرك ، والإعراض عنك ، والاستثقال لحديثك ، والخلاف لرأيك » ؟

أم حالته الباطنة وهي تنحصر في :

« تراكم الغموم على قلبه ، واستكمان الحزن في جوفه ، وكثرة مضضه ، ووسواس ضميره ، وتنغص عمره ، وكدر نفسه ، ونكد عيشه » ؟

أم تمكن الحسد من صاحبه ، وسلطانه عليه :

« ما خالط الحسد قلباً إلا لم يمكنه ضبطه ، ولا قدر على تشحينه وكتمانه ، حتى يتمرد عليه بظهوره وإعلانه ، فيستعبده ويستميله ، ويستنقطه لظهوره عليه ، فهو أغلب على صاحبه من السيد على عبده ، ومن السلطان على رعيته ، ومن الرجل على زوجته ، ومن الآسر على أسيره » ؟

أم وصفه علاج الحسد :

« فإذا أحسست ، رحمك الله ، من صديقك بالحسد ، فأقلل ما استطعت من مخالطته ، فإنه أعون الأشياء على مسالمته ، وحصّن سرك منه تسلم من شره وبوائق ضره ، وإياك والرغبة في مشاورته ، ولا يغرنك خدع ملقه ، وبيان زلقه ، فإن ذلك من حبائل نفاقه ، فإن أردت أن تعرف آية مصداقه ، فأدنين إليه من يهينك عنده ، ويذمك بحضرته ، فإنه سيظهر من شأنه لك ما أنت به جاهل ، ومن خلاف المودة ما أنت عنه غافل ، وهو ألح في حسده لك من الذباب ، وأسرع في تمزيقك من السيل إلى الحدُور » ؟



أم وصفه الحاسد نفسه :

« فهو الكلب الكلب ، والنمر النمر ، والسم القشب ، والفحل القطم ، والسيل العرم ، وإن مَلك قتل وسبى ، وإن مُلك عصى وبغى ، حياتك موته ، وموتك عرسه وسروره ، يصدق عليك كل شاهد زور ، ويكذب كل عدل مرضي ، لا يحب من الناس إلا من يبغضك ، ولا يبغض إلا من يحبك ، عدوك بطانة ، وصديقك علانية » ؟

فإذا دققنا في هذه الأوصاف كلها تحقق عندنا ما قلته من أن الجاحظ عالم من

علماء النفس ، يبني علمه على تجربته ، ثم يصف ما توحي إليه هذه التجربة وصف صاحب صنعة وفن .

ولما كانت التربية والتعليم لا تبعد كثيراً عن الأمور الاجتماعية ، لم يشأ الجاحظ أن يكون غريباً عنها ، فقد أدلى في هذا الباب بدلوه ، وعلى بعد عهده عنا ، وعلى تقدم علم التربية والتعليم في عصرنا استطاع الجاحظ أن يأتي فيه بمذاهب تكاد تكون من أحدث المذاهب . أظن أن من أحدث قواعد التربية والتعليم التي نطبقها في مدارسنا تدريب الطالب على الاستنباط من دون أن يلجأ إلى الحفظ ، لأن الحفظ يسد عليه سبيل الاستنباط ، فيجمد عقله ، ويبلد ذهنه ، وهذا ما قاله الجاحظ في هذا الباب[1] :

« وكرهت الحكماء الرؤساء أصحاب الاستنباط والتفكير جودة الحفظ ، لمكان الاتكال عليه ، واغفال العقل من التمييز ، حتى قالوا : الحفظ عذق الذهن ، ولأن مستعمل الحفظ لا يكون إلا مقلداً ، والاستنباط هو الذي يفضي بصاحبه إلى برد اليقين وعز الثقة ، والقضية الصحيحة ، والحكم المحمود أنه متى أدام الحفظ أضر ذلك بالاستنباط ، ومتى أدام الاستنباط أضر ذلك بالحفظ » .

وكتابه في المعلمين قد اشتمل على القواعد المتبعة في التعليم في أيام الجاحظ ، فهو يصور لنا أساليب التربية والتعليم في العرب .

ولم يكن نصيب الجاحظ من علوم الطبيعة بأقل من نصيبه من بعض فصول في الاجتماع والأخلاق والتعليم وما شابه ذلك ، إلا أنه قد يكون في آرائه الاجتماعية أصح فكراً ، وأقل خطأ ، أما في العلوم الطبيعية ، فالجاحظ على جلالة بعض أقواله فيها ، قد لا يسلم من خطأ ، فإن علوم الطبيعة قد تقدمت في السنين الأخيرة ، ولكن الأخلاق واحدة في العصور ، قديمها وحديثها ، فالحسد الذي صوره الجاحظ إنما هو شبه الحسد الذي نقاسي شره في أيامنا .

---

(١) رسائل الجاحظ على هامش المبرد للكامل — الجزء الأول ص ١٩ .

خاض الجاحظ في كثير من علوم الطبيعة ، في الحكمة الطبيعية والكيمياء ، وتوسع في التاريخ الطبيعي ، وخاصة في علم الحيوان .

فلننظر إلى بعض آرائه في هذه العلوم .

كانوا في عصر الجاحظ ، يمزجون الدين بالعلم ، ومعنى هذا أنهم إذا جادلوا في أمر من أمور الدين استعانوا في بعض الأحوال بمذاهب العلم ، من هذا الشكل مجادلة الجاحظ لمجوسي عارضه ، وقد قرأنا هذه المعارضة في كلامنا على عصر الجاحظ في فصل حرية الفكر ، فمن قول الجاحظ :

« والماء ليس يجمد للبرد فقط ، فيكون متى رأينا بلدة ثلجها أكثر حكمنا أن نصيبها من البرد أوفر ، وقد تكون الليلة باردة جدًّا ، وتكون متغيرة ، فلا يجمد الماء ويجمد فيما هو أقل منها برداً ، وقد يختلف جمود الماء في الليلة ذات الريح على خلاف ما يقدرون و يظنون ، وقد خبرني من لا أرتاب بخبره ، أنهم كانوا في موضع من الجبل يستغنون به بلبس المبطنات ، ومتى صبوا ماء في إناء زجاج ، ووضعوه تحت السماء ، جمد من ساعته ، فليس جمود الماء بالبرد فقط . . . » .

أما اليوم فإننا لا نرضى بهذا الرأي على علاته ، فإننا إذا بحثنا عن جمود الماء قلنا يجمد الماء و يزاد حجمه إذا وصل إلى درجة من الحرارة تبلغ الصفر في الميزان المئوي ، وجموده على صورة قطعة من جليد ، مركبة من بلورات مسدسات الشكل وكثافتها ٩١٨ ٪



وكما تعرّض للحكمة الطبيعية ، فقد تعرّض للتاريخ الطبيعي ، فهو من أصحاب مذهب التولد الذاتي ، وله في هذا المعنى حكايات كثيرة ، من جملتها قوله[1] :

« والذباب من الخلق الذي يكون مرة من السفاد والولاد ، ومرة من تعفن الأجسام والفساد الحادث في الأجرام ، والباقلاء إذا عتقَ شيئاً في الأنبار استحال كله ذباباً ، فربما أغفلوه في تلك الأنبار ، فيعودون إلى الأنبار ، وقد تطاير من

(١) كتاب الحيوان — الجزء الثالث ص ١١٠ .

الكوى والخروق ، فلا يجدون في الأنبار إلا القشور ، والذباب الذي يخلق من الباقلاء يكون دوداً ، ثم يعود ذباباً ، وما أكثر ما ترى الباقلاء مثقباً ، في داخله شيء كأنه مسحوق ، إذا كان الله قد خلق منه الذبان وصيّره ، وما أكثر ما تجده فيه تام الخلق ، ولو تم جناحاه لقد كان طار » .

وله من هذا الشكل آراء كثيرة في كتاب الحيوان ، فهو يؤمن بحدوث الخلق من غير ذكر ولا أنثى ، ويخلق الديدان من الجيف [١] ويخلق القمل من العرق والوسخ إذا علاهما ثوب ، أو ريش ، أو شعر [٢] .

لقد أبطل العلم هذه الآراء بمجامعها ، فقد دلّت تجارب « باستور » Pasteur على أن التولد الذاتي أمر ممتنع ، فكل حجيرة مصدرها حجيرة مثلها ، وكل حي لا يلده إلا حي مثله ، معنى هذا أن الأحياء لا تلدها المواد العضوية ، أو المواد المعدنية .

وقد كان للمتقدمين معتقدات غريبة في هذا الباب ، فقد زعموا أن القمل يلده لحم الإنسان ، وأن الديدان يلدها اللحم الفاسد ، وأن البق ينشأ عن اختمار الروائح وما شابه ذلك ، إن هذا كله قد ردّه العلم في أيامنا ، وإذا وجدنا الديدان في اللحوم ، فمعنى هذا أن الذباب باض في هذه اللحوم ، فلو منعنا الذباب عن البيض لامتنعت الديدان ، فإذا ظهرت أحياء في مادة عضوية ، أو في مادة معدنية ، فهذه الأحياء ناشئة عن أحياء مثلها تغلغلت في هذه المواد ، وما أكثر تجارب باستور في هذا المعنى .

وإلى جنب هذه الآراء الباطلة قد نجد للجاحظ آراء جليلة في العلم ، تكاد تكون من أحدث الآراء ، فالحيوان في بيئة ما يكون تركيب خلقته مناسباً لهذه البيئة ، فمن قول الجاحظ في الضب [٣] :

« قالوا : من كَيْس الضب أن لا يتخذ جحره إلاَّ في كُدْية ، وهو الموضع الصلب ، أو في ارتفاع عن المسيل والبسيط ، ولذلك توجد براثنه ناقصة كليلة ، لأنه يحفر في الصلابة ، ويعمق الحفر » .

---

(١) كتاب الحيوان — الجزء الثالث ص ١١٤ .
(٢) « « الخامس ص ١١٢ .
(٣) « « السادس ص ١٢ .

أفرأينا كيف علل نقصان براثن الضب وكلالتها ، فبراثنه ناقصة كليلة لأنه يحفر في الصلابة ويعمق الحفر ، وهذا التعليل علمي محض .

وإلى جنب هذا كله بحثه عن غريزة الحيوان وعن إحساسه ، وما أحببت أن أستقصي في هذه الآراء ، فأدل على ما بطل منها ، وعلى ما صح في عصرنا هذا ، فإن هذا العمل إنما هو عمل العالم لا الأديب ، فإذا تفرغ علماؤنا لتدوين أطوار العلم في العرب ، استطاعوا أن يجدوا للجاحظ مادة واسعة في هـذا الباب ، وأما عملنا فإننا نقتصر فيه على إيجاز في الكلام على الجاحظ من حيث سعة عبقريته .

وبينما نجده يبحث أمثال هذه المباحث إذ يتفرغ لباب من أروع أبواب اللغة ، وهو باب حياة الألفاظ ، إنّا نعلم أن لتغيير معاني الألفاظ أسباباً منطقية ، وأسباباً روحية ، وأسباباً أدبية ، فمن جملة الأسباب المنطقية الاستعارة ، فالاستعارة تنقل اسم الشيء إلى شيء غيره لصفة من الصفات ، يشترك فيها الشيئان ، فورقة الشجر تعير اسمها ورقة الكتابة بسبب الرقة التي تشترك فيها الورقتان ، فلننظر كيف يخوض الجاحظ في مثل هذا الفصل فيقول[1] :

« ثم سموا الآطام التي كانت بالمدينة للامتناع بها من الأعداء صياصي ، قال الله عز وجل : (وأنزل الذين ظاهروهم من أهل الكتاب من صياصيهم) ، والعرب تسمي الجارح وذا الجُنّة صاحب سلاح ، فلما كان اسم سلاح الديك وما يمتنع به صيصية ، سموا قرن الثور الذي يجرح صيصية ، وعلى أنه يشبَّه في صورته بصيصية الديك ، وإن كان أعظم ، ثم لما وجدوا تلك الآطام معاقلهم وحصونهم وجُنَّتهم ، وكانت في مجرى الترس والدرع والبيضة ، أجروهما مجرى السلاح ، ثم سموها صياصي ، ثم أسموا شوكة الحائك التي بها تهيأ السداة واللحمة صيصية ، إذ كانت مشبهة بها في الصورة ، وإن كانت أطول شيئاً ، ولأنها مانعة من فساد الحوك والغزل ، ولأنها في يده كالسلاح ، متى شاء أن يجأ به إنساناً وجأه به . وقال دريد بن الصمة :



(١) كتاب الحيوان — الجزء الثاني ص ٨٥ .

نظرت إليــه والرماح تنوشه كوقع الصياصي في النسيج الممدد

وقد تسمي العرب إبرة العقرب شوكة ، كما تسمي صيصية الديك شوكة ، وهي من هذا الوجه شبيهة بشوك النخل ، ويقال لمن ضربته الحمرة : قد ضربته الشوكة ، لأن الشوكة إذا ضربت إنساناً فما أكثر ما تعتريه من ذلك الحمرة .... »

ثم توسع في هذا الباب على هذا النحو .

هذا نمط من الأفكار التي عالجها الجاحظ ، يدلنا على شيء من سعة علمه ، وامتداد أفياء عبقريته ، ومن خصائص الذين يخوضون في أبواب كثيرة ، ويتعرضون لمذاهب شتى قلة التعمق ، فقد تعرض لهم أفكار كثيرة لانبساط ثقافتهم ، فيلمون بها إلماماً ، ولا يتعمقون فيها تعمقاً ، فهم يفهمون كل ما يقع عليه نظرهم ، ولكنهم لا يفهمونا إياها في بعض الأوقات على نحو فهمهم لها ، فالجاحظ من هـذا القبيل في بعض مباحثه ، فهو يلهو بالمعاني لهواً ، فيخرج من فكر إلى فكر ، ومن معنى إلى معنى ، ولكنه يضرب في آفاق كل المعاني ، ويجول في ميدان كل الأفكار ، أيُّ كتاب من كتبه ، بل أي سطر من سطوره لا يوطىء للقارىء مجال التفكير ؟ وسواء أتوسع في أفكاره ، أم ألم بها إلماماً ، إنه عظيم ، ولست أدري هل أورثتنا عبقرية العرب أعظم منه ؟ فهل نعرف حياة أوسع آفاقاً من حياته العقلية ، وذهناً أخصب تربة من ذهنه ، وفكراً أشد انطلاقاً من القيود من فكره ؟ لقد ذاق لذة الحياة العقلية وتقلب في أعطافها ، فخالط عالم الأفكار ، واستأنس بهذا العالم ، فلم يستوحش من ناحية من نواحيه ، خاطب العقل في قرن متكامل ، ولكن هل نعلم أي عقل خاطبه ؟ لقد خاطب العقل الذي يكره كل باطل من الأباطيل ، وكل قيد من القيود ، فما كان عقله يأنس إلا بضياء الأشياء ، وما كان هـذا العقل ينقبض إلا عن ظلامها ، ففي كل يوم كان يطلع على العالم بأفكار حديثه ، فما كان غذاؤه إلا الأفكار وإلا المعاني ، لقد سكر كل حياته بألوان الأدب ، وبرنَّات ألفاظه ، وثمل كل عمره من لذة العلم ، فجعل هذا الأدب وهذا العلم نزهة عقله ، ومشحذة طبعه ، ونجح نفسه ، وعمارة صدره !

فن الجاحظ

قد تعتق طائفة من مذاهب الجاحظ في العلم ، أو قد تبلى جملة من آرائه في الفلسفة ، فالعلم لم يثبت على حال من الأحوال ، والفلسفة لم تجمد على شكل من الأشكال ، فهما عرضة للتغيير في كل عصر من العصور، فلكل زمن معتقداته وآراؤه ، ولكن الجاحظ إن لم يخلّده علمه أو فلسفته ، خلّده فنه ولغته .

لقد قضيت أياماً وأنا أفكر في فن الجاحظ ، كيف أشرع في الكلام على هذا الفن ؟ وكيف أفرغ من هذا الكلام ؟ واشتدت حيرتي لما طالعت طائفةً من كتب الإفرنجة ، ورأيت كيف يبحثون عن فن شعرائهم، أو كتابهم، أو خطبائهم، وأظن أنه سيمضي على أدبنا حين من الدهر قبل أن نصل إلى ما وصلوا إليه في هذا الباب .

إن لهم أسلوباً في البحث عن الفن لم يعهده أدبنا بعدُ ، فلا يكتفون بالإشارة إلى جزالة الكلام ، أو إلى رقته ، أو إلى محاسن التشبيهات والكنايات ، وغير هذا من الصور، ولكنهم يعرضون لألفاظ الكاتب ، فيبحثون عن هذه الألفاظ بحثاً مستفيضاً من حيث دلالتها على المعنى من طريق الحقيقة ، أو من طريق المجاز ، أو من حيث رنات هذه الألفاظ ، أو من حيث دلالتها على لون من الألوان ، أو على صوت من الأصوات ، أو من حيث إنها مجردة أو محسوسة ، إلى غير هذا من دقائق البحث ، ثم يبحثون عن النعت والمنعوت ، ثم يبحثون عن الفعل ، إلى أشباه هذه المباحث التي لا أجد لها في أدبنا نظيراً .

قضيت أياماً وأنا أفكر كيف أشرع في الكلام على فن الجاحظ ، وخاصة بعد أن تراءى لي تقصيرنا في هذا المجال ؟ وقلت في نفسي : وما أنت قائل في هذا المعنى ؟ وكيف أنت داخل هذا الباب ؟ أم كيف أنت خارج منه ؟ وخاصة فإنه أجل أبواب الجاحظ التي تدل على خلوده في الأدب .

أحبَّ الجاحظ الحياة حباً جمًّا ، فصوّر كل معرض من معارضها ، ولوّن كل صورة من هذه الصور بحقائق ألوانها ، فكان إفصاحه عن شعوره بالحياة خالصاً من كل تصنع ، فألبس كل معرض من المعارض ضرباً من اللباس ، وجعل لكل صورة من الصور نوعاً من الخطوط والألوان ، جرياً على قاعدته الغالبة : لكل مقام مقال .

ومن ولعه بهذه القاعدة ، وحرصه على أصولها ، تعلق الجاحظ بحرية الصيغ وبمرونتها ، فهو يتوخى الأساليب التي يخاطب بها الناس على مقادير عقولهم ، فمرة يخاطب بلغة العقل ، ومرة بلغة الحواس ، وهذا كله دليل على حرية عبقريته ، وحرية فنه .

لقد عرفنا كيف كانت حياة الجاحظ العقلية ، ووقفنا على نشاط فكره ، وعلى رغبته في التطلع ، ورأينا كيف يميل إلى ذوق الأفكار ، وإلى تمحيصها ، وكيف يسلك إلى التمحيص مسالك شتى ، مرة يستظهر بعقله ، ومرة بالتجربة والعيان ، فكل همه مصروف إلى معرفة الحق . وقد دفعه شغفه بهذه المعرفة إلى اجتناب كل كلفة ، وكل صيغة شعرية في علمه ، مما يبعد الأشياء عن حقائقها .

فلذلك كان فنه في أبواب العلم والفلسفة مبنيًّا على العقل وحده ، فهو في هذه الأبواب قليل الاستعارات ، قريب العبارات ، منقاد لعُريان الكلام يستعمله ، نفور من معتاصه يهمله ، على نحو ما قاله فيه البديع في مقامته الجاحظية ، لأنه في العلم والفلسفة يخاطب العقل وحده ، ولغة العقل مجرّدة ، والتجريد من خصائصها ، فالجاحظ قليل الصور في علمه وفلسفته ، حتى إذا اضطر إلى تشبيه في أثناء كلام له على بعض الحيوان ، قرّب تشبيهاته ، ولم يغلُ فيها ، بحيث تكون على مقربة من حواسنا ، تدركها هذه الحواس دون شيء من النصب والكلفة .

من هذا الشكل تشبيهه الذر بالخيط الأسود الممدود (١) :

« فلا يلبث ذلك الإنسان أن يراها قد أقبلت ، وخلفها صويحباتها كالخيط الأسود الممدود » .

---

(١) كتاب الحيوان — الجزء الرابع ص ٣ .

هذه صورة محسوسة ، فإنه لم يغلُ في المشبه به ، ولا في لونه ، ولا في هيأته ، فالخيط والسواد والمدّ ، كل هذا من الصور التي تراها العين لأول وهلة .

ولو عرضنا طائفة من تشبيهاته لوجدناها بجامعها على هذا النمط ، وهذه بعض الأمثال :

البعوضة مع صغر جسمها تفسخ الإنسان في أسرع من الإشارة باليد ، والحية تسقط أسرع من اللمح ، والشعر الذي يكون تحت حنك الكلب كأنه طاقة ، وساقا الكلب كأنهما خشبة من صلابتهما ، والحية انتصبت كأنها رمح مركوز ، أو عود ثابت ، والخصي كأن السيوف تلمع في لونه ، وكأنه مرآة صينية ، وكأنه وذيلة مجلوة ، وكأنه جمارة رطبة ، وكأنه قضيب فضة قد مسه ذهب ، وكأن في وجناته الورد .

وإذا أحب في غير أبواب العلم أن يبرز بعض صفات في معارض مصوَّرة ، لجأ إلى تشبيه الموصوف بأشخاص معروفين مشهورين ، حتى يكون المشبه به على مقربة منا ، كوصفه أحد البخلاء (١) :

« وكان يستعمل على خوانه من الخدع والمكائد والتدبير ما لم يبلغ بعضه قيس ابن زهير ، والمهلب بن أبي صفرة ، وخازم بن أبي خزيمة ، وهرثمة بن أعين ، وكان عنده فيه من الاحتيال ما لا يعرفه عمرو بن العاص ، ولا المغيرة بن شعبة » .



إنه لا ينزع في تشبيهاته إلا إلى ما يقرب من طريقته التي لجأ إليها كل حياته ، في كل مذهب من مذاهبه ، وما هذه الطريقة إلا الطريقة الحسية ، حتى إنه كثيراً ما يشبه بحاسة من الحواس ، كاليد ، أو كاللمح ، فكل صوره محسوسة .

لم يكن فنه في العلم والفلسفة إلا فن الفلاسفة والعلماء الذين ينصرفون إلى حل الأفكار ، والتنقيب عن صيغ العالَم ، فهم لا يلتمسون من الألفاظ إلا دلالتها على الأفكار دلالة وجيزة ، فالجاحظ يجرد كلامه من العناصر التي تجعل للكلام خصائص

---

(١) كتاب البخلاء ص ٨١ .

فنية ، فهو لا يجعل للصور مقاماً في كلامه ، و إنما المقام للعقل وللتمييز ، فكل تنميقه مداره على صحة البيان .

إن فن الجاحظ العلمي إنما هو فن الرجل الذي يخاطب العقل ، وأسلوبه فياض بالمعنى و بالمادة ، فهو يقذف بأفكاره كما هبطت عليه ، فكأن كتاب الحيوان ضرب من أحاديث في العلم والفلسفة ، ولكنها أحاديث ينيرها عقل رجل فنّان ، خفيف الروح ، فكأن الجاحظ في هذا الكتاب رجل مكسال ، فهو يخاف روح الترتيب ، فلا يريد إلا الحديث من دون أن يستفرغ جهده في الترتيب ، حتى يكاد القارئ يضيع في كثرة الاستطرادات وتعاظل الموضوعات ، وكما أنه لم يتعب في قذف أفكاره ، فكذلك لم يتعب في قذف ألفاظه ، فألفاظه تنفجر من ينبوع لغته الذي لا ينضب ، كما تنفجر أفكاره من ينبوع عقله الذي لا ينشف .

ولهذا الميل المستحكم فيه ، وأعني به الميل إلى الصيغ العقلية ، كان شعر الجاحظ بعيداً عن أن يكون ضرباً من الشعر ، فالجاحظ ، على نحو ما قاله فيه البديع ، في أحد شقي البلاغة يقطف ، وفي الآخر يقف ، فمن شعره قوله :

يطيب العيش أن تلقى حليماً غـذاه العـلم والرأي المصيب

ليكشف عنك حيرة كل ريب وفضل العـلم يعرفه الأريب

فإذا دققنا في ألفاظ هذين البيتين ، كالعلم والرأي والحيرة والريب ، تبين لنا أنها ألفاظ مجردة ، والشعر لا يعرض علينا الأفكار المجردة كما يفعل النثر ، ولكنه يعرض علينا حقائق هذه الأفكار المحسوسة ، حتى نكاد ندرك الأفكار ذاتها ، وظواهر صيغها ، كل هذا في شكل مرصوص ، كأنه بناء مبني لا خلل فيه ، فالشعر غرضه أن يعرض الفكر في معرض ظاهر ، فهو يتحامى التجريدات ومصطلحات العلم ، واستدلالات الفلسفة التي هي من خصائص النثر ، فهي تجعل الشعر في عالم يختلف عن عالم الخيال ، وعالم الصيغ المحسوسة[١] ، وفن الجاحظ ممزوج بهذا الاصطلاح

(١) راجع كتابي : المتنبئ ، فصل سحر العبقرية .

العلمي ، والاستدلال الفلسفي ، فما أبعده عن أفق الشعر ، وإذا مال في شعره إلى شيء من التصوير ، كالتشبيه بوشي البرود وما شاكله ، فلا نجد في تصاويره نوعاً من الإبداع ، وإنما يصب فيها على قوالب محفوظة ، ويذهب فيها مذاهب مألوفة .

غير أن الجاحظ لم يحبس نفسه على مذاهب العلم والفلسفة ، فقد أحب الحياة كما قلت ، وصور كل مشهد من مشاهدها ، وإنما جعل لكل صورة خصائصها ، فإذا أعطى الفلسفة والعلم مقاديرهما من الفن ، فهل قصر عن إعطاء غيرهما من معارض الحياة ما يستحقه من لوازم الفن ؟

إذا جاوزنا أفق العلم والفلسفة الذي جال فيه الجاحظ كل مجال ، وبنى فنه فيه على أصول العقل وجدنا أن فن الجاحظ قد دخل في طور آخر .

هل كان الجاحظ مصوّراً .

يقولون : المصوّر يبحث عن الألفاظ الدالة على المعاني من طريق الحقيقة دون المجاز ، المصوّر يبحث عن الألفاظ المحلية ، والألفاظ الفنية ، وعن صحة النعت .

فلنعمد إلى صورةٍ من صور الجاحظ ، كصورة قاضي البصرة عبد الله بن سوار ، قال الجاحظ[1] :



كان لنا بالبصرة قاضٍ يقال له عبد الله بن سوّار ، لم ير الناس حاكماً قط ولا زِمِّيتاً ولا ركيناً ، ولا وقوراً حليماً ، ضبط من نفسه ، وملك من حركته ، مثل الذي ضبط وملك ، كان يصلي الغداة في منزله ، وهو قريب الدار من مسجده ، فيأتي مجلسه ، فيحتبي ، ولا يتكئ ، فلا يزال منتصباً لا يتحرك له عضو ، ولا يلتفت ، ولا يحل حبوته ، ولا يحوّل رجلاً على رجل ، ولا يعتمد على أحد شقيه ، حتى كأنه بناء مبني ، أو صخرة منصوبة ، فلا يزال كذلك حتى يقوم إلى صلاة الظهر ، ثم يعود إلى مجلسه ، فلا يزال كذلك حتى يقوم إلى العصر ثم يرجع لمجلسه ، فلا يزال كذلك حتى يقوم لصلاة المغرب ، ثم ربما عاد إلى محله ، بل كثيراً ما كان يكون ذلك

(١) كتاب الحيوان — الجزء الثالث ص ١٠٦ .

إذا بقي عليه من قراءة العهود والشروط والوثائق ، ثم يصلي العشاء [الأخيرة] وينصرف ، فالحق يقال : لم يقم في طول تلك المدة والولاية مرة واحدة إلى الوضوء ، ولا احتاج إليه ، ولا شرب ماء ، ولا غيره من الشراب ، كذلك كان شأنه في طوال الأيام وفي قصارها ، وفي صيفها ، وفي شتائها ، وكان مع ذلك لا يحرك يده ، ولا يشير برأسه ، وليس إلا أن يتكلم ، [ثم يوجز ، ويبلغ بالكلام اليسير المعاني الكثيرة] ، فبينا هو كذلك ذات يوم وأصحابه حواليه ، وفي السماطين بين يديه ، إذ سقط على أنفه ذباب ، فأطال المكث ، ثم تحول إلى مؤق عينيه ، فرام الصبر في سقوطه على المؤق ، وعلى عضه ونفاذ خرطومه ، كما رام من الصبر على سقوطه على أنفه من غير أن يحرك أرنبته ، أو يُغَضِّنَ وجهه ، أو يذب بإصبعه ، فلما طال ذلك عليه من الذباب ، وشغله ، وأوجعه ، وأحرقه ، وقصد إلى مكان لا يحتمل التغافل ، أطبق جفنه الأعلى على جفنه الأسفل ، فلم ينهض ، فدعاه ذلك إلى أن والَى بين الإطباق والفتح ، فتنحى ريثما سكن جفنه ، ثم عاد إلى مؤقه بأشد من مرته الأولى ، فغمس خرطومه في مكان كان قد أوهاه قبل ذلك ، فكان احتماله له أضعف ، وعجزه عن الصبر في الثانية أقوى ، فحرك أجفانه ، وزاد في شدة الحركة ، وفي فتح العين ، وفي تتابع الفتح والإطباق ، فتنحى عنه بقدر ماسكنت حركته ، ثم عاد إلى موضعه ، فما زال يلح عليه حتى استفرغ صبره ، وبلغ مجهوده ، فلم يجد بدًّا من أن يذب عن عينيه بيده ، ففعل ، وعيون القوم إليه ترمقه ، وكأنهم لا يرونه ، فتنحى عنه بقدر ما رد يده ، وسكنت حركته ، ثم عاد إلى موضعه ، ثم ألجأه إلى أن ذب عن وجهه بطرف كمه ، ثم ألجأه إلى أن تابع بين ذلك ، وعلم أن فعله كله بعين من حضره من أُمنائه وجلسائه ، فلما نظروا إليه قال : أشهد أن الذباب ألجُّ من الخنفساء ، وأزهى من الغراب ، وأستغفر الله ، فما أكثر من أعجبته نفسه ، فأراد الله عزَّ وجل أن يعرفه من ضعفه ما كان عنه مستوراً ، وقد علمت أني عند الناس من أزْمَتِ الناس ، فقد غلبني وفضحني أضعف خلقه ، ثم تلا قوله تعالى : (وإن يسلبهم الذباب شيئاً لا يستنقذوه منه ، ضعف الطالب والمطلوب).

وكان بيّن اللسان ، قليل فضول الكلام ، وكان مهيباً في أصحابه ، وكان أحد من لم يطعن عليه في نفسه ، ولا في تعريض أصحابه للمنالة » .

فلنرجع بعد أن قرأنا هذا الوصف إلى كل دقيقة من دقائقه .

للصورة في عصرنا هذا شروط خاصة ، فمن خصائص الصورة أن يفصّل المصوّر على وجه عام هيأة الموصوف ، كالكلام على قامته ، وعلى لونه ، وعلى عينيه ، وعلى شعره ، وعلى أسنانه ، وما شابه ذلك ، فيتكلم على محاسن هذه الهيأة ، أو على مساويها ، فإذا فرغ من هذا كله تكلم على خصائص عقله ، فوصف محامد هذا العقل ، أو مقابحه ، ما بطن منها وما ظهر ، فإذا فرغ من هذا تكلم على قلبه ، فوصف مختلف عواطفه وأهوائه .

ليس في هذا الرسم شيء من المصاعب ، وإنما المصاعب أن يفصح الواصف عن كل شكل من الأشكال ، بلهجة من الكلام خاصة ، تباغت القارئ ، فتسليه وتسره .

أهمل الجاحظ الكلام على هيأة القاضي ، فلم يصف لنا شيئاً من قامته ، أو لونه ، أو عينيه ، أو شعره ، أو غير ذلك من ظواهره ، ولكنه لم يهمل الكلام على جلسته ، كيف يجلس هذا القاضي :

« يأتي مجلسه ، فيحتبي ولا يتكئ ، فلا يزال منتصباً لا يتحرك له عضو ، ولا يلتفت ، ولا يحل حبوته ، ولا يحوّل رجلاً على رجل ، ولا يعتمد على أحد شقيه إلخ ... » .

قلت : المصور يبحث عن الألفاظ الدالة على المعاني من طريق الحقيقة ، لا من طريق المجاز ، فإذا دققنا في هذه الألفاظ التي لجأ إليها الجاحظ ، وجدنا أنها بعيدة عن المجاز ، ولما اضطر إلى تشبيه هـذا القاضي في وقار جلسته ، رجع إلى عادته في التشبيهات المحسوسة ، فشبهه ببناء مبني ، وبصخرة منصوبة ، فلم يغل في هذا التشبيه ، وإنما كانت الصورة على مقربة من حواسنا ، فهي مثل قوله : « كالخيط الأسود الممدود » .

فالجاحظ في تصويره يعمد إلى الألفاظ التي تفصح عن المعاني من طريق الحقيقة، وإذا لجأ إلى المجاز، وقليلا ما يلجأ، فإنه يقرب ولا يبعد.

وكما يبحث المصور عن هذا الضرب من الألفاظ، فكذلك يبحث عن الألفاظ الفنية، فلما قال الجاحظ: «ثم ربما عاد إلى محله، بل كثيراً ما كان يكون ذلك إذا بقي عليه من قراءة العهود والشروط والوثائق»، لما قال الجاحظ هذا القول استعان بالألفاظ الفنية، ما هي هذه الألفاظ؟ «العهود والشروط والوثائق»، هذه هي مصطلحات القضاة.

وكما لم يهمل الجاحظ الكلام على جلسة القاضي، فكذلك لم يهمل الكلام على محاسن صفاته، ففي ثلاث كلمات وصف هذه المحاسن، فقال: «لم ير الناس حاكماً قط ولا زِمِّيتاً ولا ركيناً، ولا وقوراً حليما، ضبط من نفسه، وملك من حركته، مثل الذي ضبط وملك».

وبعد أن فرغ من الكلام على صفات عقله، تكلم على بعض صفات قلبه، ما هي هذه الصفات: الشعور الديني البارز في صلاة الظهر، وصلاة العصر، وصلاة المغرب، وصلاة العشاء في أوقاتها.

لاشك في أن الجاحظ لم يطل الكلام على هذه الصفات كلها، وإنما وصف منها ماله متعلق برجل قاض، لم تكن للصور في عصر الجاحظ القواعد التي لها في عصرنا، ولكن الجاحظ لم يغفل عن الكلام على الأشكال بلهجة تباغت، فتسلي وتسر، فمن هذه التسلية ومن هذه المسرة: سقوط الذباب على أنف القاضي، وإطالته المكث، وتحوله إلى مؤق عينيه، والمباغتة فيهما، وصبر القاضي على عضه، وعلى نفاذ خرطومه من غير أن يحرك أرنبته، أو يغضّن وجهه أو يذب بإصبعه.

ومن هذه التسلية ومن هذه المسرة، إطباق القاضي جفنه الأعلى على جفنه الأسفل، ومولاته بين الإطباق والفتح، وتحريكه أجفانه، وزيادته في شدة الحركة، والمباغتة فيهما ذب القاضي عن عينيه بيده، وبطرف كمه.

فالجاحظ مصور من أكبر المصورين ، وتكاد تكون قصة القاضى عبد الله بن سوار مثال التصوير في أدبنا ، فقد جرّ الجاحظ إلى هذا القاضي انتباه القارئ ، فثبَّت انتباهه هذا في مختلف أوضاعه ، وولّد عن هذه الأوضاع أفكاراً ، وألف بين هذه الأفكار ، فالصورة لم تكن حلاً مجرداً ، وإنما هي رسم حقيقي ، إنما هي معرض من معارض الحياة ، ليس فيها شيء من أوصاف العقل ، أو العاطفة ، مما لا تقع عليه عين ، وإنما فيها وصف شيء تراه العين ، فهي صورة واضحة قوية صُوِّر فيها وضع من الأوضاع في مختلف حالاته .

لا شك في أنا نلاحظ أن من أساليب الجاحظ في هذه القطعة الترديد ، فمن ترديده قوله : « فلا يزال كذلك حتى يقوم إلى صلاة الظهر . . . فلا يزال كذلك حتى يقوم إلى صلاة العصر . . . فلا يزال كذلك حتى يقوم لصلاة المغرب . . . » .

والترديد وسيلة من وسائل الفن ، فإن الكلمة المرددة توضح الفكر أحسن توضيح ، فتوحي المعنى إلى الذهن ، وتستثير هذا الذهن ، فإن اللفظة إذا رددت كان لترديد جرسها تأثير في تثبيت العناصر في الذهن .

وكثيراً ما يلجأ إلى هذا الباب ، فمرة يردد النعت ذاته ، كقوله في قصة محمد بن أبي المؤمل في البخلاء :

« ولم يكن أكله إلا على قدر أكله إذا أتى بذلك في طبق نظيف ، مع خادم نظيف عليه منديل نظيف » .

ومرة يردد الفعل كقوله في وصف سحابة (١) :

«فإذا سحابة ضحياء تكاد تمس الأرض . وتكاد تمس قمم رؤوسهم ...ثم قوله : ثم إنها دفعت بأشد مطر ... ثم اندفعت بالضفادع العظام ... ثم اندفعت بالشبابيط»

أو قوله (٢) :

---

(١) كتاب الحيوان — الجزء الأول ص ٦٨ .
(٢) « « السادس ص ١٠٢ .

« ومن العجب في قسمة الأرزاق أن الذئب يصيد الثعلب فيأكله ، ويصيد الثعلب القنفذ فيأكله ، ويريغ القنفذ الأفعى فيأكلها ... »

فكرر كلمة « تأكله » ثماني مرات في خمسة سطور ، وما يقال في الترديد يقال في لجوء الجاحظ إلى استعمال اللفظ وضده إظهاراً للمعنى ، فالغاية التي يؤدي إليها ترديد النعت ، أو الفعل ، أو الاسم ، إنما هي شبه الغاية التي يؤدي إليها استعمال اللفظ وضده ، فكل هذه الوسائل إنما المقصد منها تثبيت الفكر في الذهن .

هذه عناصر يسيرة يتركب منها بناء الجاحظ ، أما جملة البناء فإن لها أشكالاً شتى : مرة تتموج عبارته فتنبسط ، ثم تمتد حتى تغيب عن النظر ، فلا يقف بنا كلامه إلا بعد شيء من التعب ، ونماذج هـذه العبارة كثيرة ، منها قوله في وصف الكتاب[1] :

« وقد يذهب الحكيم وتبقى كتبه ، ويذهب العقل ويبقى أثره ، ولولا ما أودعت لنا الأوائل في كتبها ، وخلدت من عجيب حكمتها ، ودونت من أنواع سيرها ، حتى شاهدنا بها ما غاب عنا ، وفتحنا بها كل مستغلق كان علينا ، فجمعنا إلى قليلنا كثيرهم ، وأدركنا ما لم نكن ندركه إلا بهم ، لقد خسّ حظنا من الحكمة ، ولضعف سببنا إلى المعرفة » .

ومرة يقطعها تقطيعاً كأنها ألحان موسيقى ، كل لحن له رنته[2] :

« اللهم إنا نعوذ من فتنة القول ، كما نعوذ بك من فتنة العمل ، ونعوذ بك من التكلف لما لا نحسن ، كما نعوذ بك من العجب بما نحسن ، ونعوذ بك من السلاطة والهذر ، كما نعوذ بك من العي والحصر » .

فيأخذ كلامه في مثل هـذا التقطيع نصيبه من الراحة ، ويمهد للقارئ مثل هذا النصيب .

---

(١) كتاب الحيوان — الجزء الأول ص ٤٢ .
(٢) مقدمة البيان والتبيين .

ومرةً يرسل الكلام إرسالاً لا يبالي بتموجه وتقطيعه ، من هذا القبيل كلامه في البخلاء ، وفي كثير من كتاب الحيوان .

من كل ما تقدم يتبين لنا أن الصور التي يعرضها علينا الجاحظ قليلة ، وهي صور قريبة لا تتعب الحواس في إدراكها ، وإنما الجاحظ إذا أراد أن يصبغ فنه عمد إلى صباغ من غير الجنس الذي نعهده ، فهو يحيي فنه وينفخ فيه روحاً بلجوئه إلى توضيح حقائق التفاصيل ، إنه يصور الأفكار بريشة الحوادث نفسها ، فيختار لها أحوالاً وخصائص ترينا هذه الأفكار ، فإذا أردنا أن نعرف نموذجاً من هذا الفن ، فلنرجع إلى كلامه على ذرء الحمام وطلبه الولد[1] ، ليس في هذا الكلام شيء من الصور ، وإنما فن الجاحظ فيه تصوير الأفكار ذاتها بتفصيل دقائقها ، وأكثر كلام الجاحظ على هذا النمط .

وإذا شاء الباحث أن يستوفي خصائص فن الجاحظ أوشك أن ينقطع به الكلام ، وأظن أن في هذا القدر إشارة إلى فنه كافية . بقي علينا أن نعرف كيف عالج الجاحظ لغة هذا الفن ، وكيف زاولها ؟

أحاط الجاحظ بخصائص اللغة ، ووقف على مجاريها ومصارفها ، وتبحّر في جلائلها ودقائقها ، فقد ذكرت أنه صوّر كل معرض من معارض الحياة ، ولكن الكاتب إذا شاء أن يصور الحياة على هذا الشكل لزمه أن يحب الكلمة ، وأن يشعر بها كما يشعر بكل جزء من أجزاء الحياة ، وهذا ما انصرف إليه الجاحظ ، فكل ما يمكنه الكاتب أن يصنعه بالألفاظ صنعه الجاحظ ، فقد عرض على ذهنه مفردات اللغة بحذافيرها ، ثم ألف بينها تأليفاً محكماً ، عرض مفردات العلوم والصناعات ، ومفردات الحركات والأفكار ، ومفردات الجد والهزل ، والخلاصة عرض مفردات العالم بمجامعها .

أعظم خصائص الجاحظ في هذا المعنى تفقهه في اللغة ، فهو ينزل اللفظ في منازله ،

---

(١) كتاب الحيوان — الجزء الثالث ص ٤٦ .

ويصبه في قوالبه ، بحيث لو فتشنا عن لفظ آخر للمعنى الذي يمثله لنا لما وجدنا لفظاً غيره يقوم مقامه ، أو يسد مسده ، ولم يقتصر في هذا التفقه على باب من أبواب المعاني ، أو على نوع من أنواع الأفكار ، وإنما أعطى المعاني حقوقها من الألفاظ في كل فن من الفنون ، في الطب والفلسفة والصناعة والعلم ، وفي غير هذا كله من مذاهب الفكر ، فلا نجد في فلسفته إلا ألفاظ الكم والكيف وما يماثلهما من مصطلحات الفلاسفة ، وكذلك شأنه في كل باب من الأبواب ، فهو يستعمل لكل معنى من المعاني اللفظ الذي خلق لهذا المعنى ، فإذا أحب مثلاً أن يصور لنا كسر الأعضاء قال : فقأ العين ، وهشم الأنف ، وهتم السن ، ودق العظم ، وإذا أحب أن يمثل تجريد الأجسام من أغطيتها قال : سلخ الجلد ، ونفض الورق ، وكشطت الشمس جلودهم ، وكذلك لغته في تصوير فساد الأجسام ، كقوله : نغلت الجبنة ، أو في تصوير أصوات الحيوان ، كقوله : شحيج البغل ، ونهيق الحمار ، أو في تصوير الشرب ، كقوله : يلغ في الدم ، أو كقوله : الحسو والعبة والنغبة ، أو في تصوير بيوت الحيوان ، كقوله : الأفاحيص والتماريد إلى غير ذلك من خصائص تفقهه ، فهو آخذ بمخنق اللغة لا يفوته لفظ من ألفاظها ، ولا يغفل عن سر من أسرارها .

وإذا عمدنا إلى آثار الحياة الخاصة ، وجدنا أن الجاحظ قد أتقن لغة كل أثر من هذه الآثار مهما يكن حقيراً ، فقد أتقن لغة البخيل مثلاً ، فهو يستعمل في تصوير البخل ألفاظ البخلاء ، كالحبات والقراريط والدوانيق والأرباع والأنصاف وأشباهها ، وأتقن لغة الطبخ كالشواء والإنضاج واستحلاب الدسم ، وتعرق العظم ، والقفار ، والمسمون ، وأتقن لغة الطعام بحذافيرها كالشبارقات والأخبصة والفالوذجات وما يقاربها ، وأتقن لغة الماعون ، كالجفنة الأعشار ، أو القصعة المشبعة ، أو الجرة المكسورة العروة ، أو الحب المقطوع الرأس .

إنا نذكر أن الجاحظ يميل في فنه إلى الصور المحسوسة القريبة من كل حاسة من حواسنا ، وكما أولع بالصيغة المحسوسة ، فقد أولع باللفظة المحسوسة التي تؤثر في

حواسنا ، فكأنما صاغ لغته ليعرض على أنظارنا أشكال هذا العالم الظاهر ، عالم الحركات والهيآت والطعام واللباس وأضراب ذلك ، فلسنا نجد في لغته إلا أمثال قوله : تغمس خراطيمها ، يقطوس لها ، يتموج في إهابه ، يتخلج ، تعاريج ريشه ، تهاويل ألوانه ، التوبير ، إلى أشباه هذه اللغة المحسوسة .

ومن ولعه بهذه الطبقة من الألفاظ ، كان الجاحظ لا يتحامى في بعض الأوقات ألفاظاً نجدها في عصرنا هذا بارزة عن ظل الطهارة ، كألفاظ المناكح وما ضارعها ، ولا عجب في ذلك ، فإن الجاحظ من أصحاب الأدب الواقع .

وعلى الرغم من تبحر الجاحظ في اللغة وتفقهه فيها ، فإنه لم يجمد في هذه اللغة ، فقد تتبع مذاهب الفكر ، وأعطى كل طور من أطوار هذا الفكر حقه من الكلمات فإذا عرضت له طائفة من خصائص بعض الحيوان ، كالجاموس وكالخنزير ، أو من خصائص بعض الأجسام كالنار ، اشتق هذه الخصائص من الأسماء نفسها ، فقال : الجاموسية والخنزيرية والنارية والحيوانية والجوهرية ، وعلى هذه الصورة أثبت أن لغة العرب مستعدة للحياة ، متأهبة لمجاراة أوضاع هذه الحياة ومذاهبها .

وقد ذهب في هذا كله مذهباً أبعد ، فلم يتجنب في بعض الأوقات الألفاظ الأعجمية ، كلفظة : سوارست وأمثالها .

وتغلغل في روح العامة ، فاستأنس بمصطلحاتهم ، وانبسط إلى تعابيرهم ، فما كان ينقبض عن استعمال ألفاظهم في تضاعيف كلامه ، كالمخطراني ، والكاغاني ، والقرسي والإسطيل ، والمزيدي ، والمستعرض ، والمكدي ، والزكوري ، وما شابه ذلك ، فكأنما أراد أن تكون الحياة ملازمة للغته ، لا تفارقها طرفة عين ، فلسنا نعرف كاتباً لعب باللغة مقدار لعب الجاحظ .

وإذا وجدنا في بعض لغته شيئاً من الغموض ، فقد تكون هذه الألفاظ الغامضة ألفاظاً تاريخية ، وأريد بها الألفاظ التي كانت تدل في عصر الجاحظ ، أو في العصور التي تقدمته على معنى من المعاني ، كالطعام واللباس والسلاح وما ماثل ذلك ، ثم

ذهب هذا المعنى بذهاب الذين كانوا يستعملونه ، فبقي الاسم وانطوى المسمى ، فلا نستطيع أن نتصور الاسم ، لأننا لا نرى المسمى ولا نعرفه ، من هذا الشكل أسماء بعض الطعام ، كالعنب النيروزي ، والعنب الرازقي ، أو أسماء بعض اللباس ، كالقلنسوة الخدرية ، أو أسماء بعض السفن ، كالجعفرية مثلاً .

* * *

هذا آخر ما خطر بالبال من الكلام على لغة الجاحظ ، فقد أدركنا أن اللغة ألقت إلى الجاحظ طاعتها ، فصرفها في كل شيء . وما أريد أن أفرغ من هذا الموضوع قبل أن أبين على سبيل الاستشهاد مقدار اهتمام الإفرنجة باللغة ، وبانتخاب الألفاظ .

قال أناتول فرانس Anatole France في مقال له ، بحث فيه عن أسلوب لا فونتين La Fontaine :

« كان لافونتين يولع بالكلمات ، ويعرف كيف ينتخبها ، ولا يكون المرء كاتباً إلا إذا أحسن اختياره للألفاظ ، فالكلمات هى أفكار ، ولا سبيل إلى الإصابة في الحكم إلا بالتمكن من النحو والمفردات الصحيحة ، وأظن أن الشعب الأول في العالم إنما هو الشعب الذي يملك أحسن الأصول فى النحو وتنسيق اللفظ ، قد يقع في أغلب الحالات أن الرجال يتناحرون بسبب كلمات لا يدركون معانيها ، ولو فهم بعضهم كلام بعض لتعانقوا ، ولا شيء يعمل على رقي العقل البشري مثل معجم يضيء ظلمة كل شيء » .

يحب لا فونتين العبارات القديمة ، فإذا وقع نظره على كلمة قديمة جزلة المعنى ، استخرجها من موضعها ، وضمنها شعره في المقام المناسب .

« كان كثيراً ما يقرأ الروايات . وقد قرأ منها قديمها وحديثها » .

وإلى القارئ الكريم صفحة من كتاب : الخطيب العصري لصاحبه رودس Raudés ، أختم بها كلامي على الجاحظ ، قال « رودس » :

« أما وقد عرفتم كيف السبيل إلى استخراج المعاني من مكامنها ، والمعاني هي مادة الخطاب ، والركن الذي يبني عليه ، ولولاها لما تمهدت لكم المداخل على الكلام ، أما وقد عرفتم هذا كله ، فقد لزمكم أن تتبسطوا في استظهار المفردات حتى تتمكنوا من الإفصاح عما يزدحم فى صدوركم من متباين المعاني ، على أشكال تستعطفون بها القلوب ، وتجعلون للمعاني رونقاً وحياة .

أجل لقد لزمكم أن تحفظوا من الألفاظ ما أعان عليه الإمكان ، حتى لا ترتبكوا في الكلام ، فإذا فاتكم لفظ من الألفاظ لجأتم إلى غيره ، وإذا وردتم معنى من المعاني تيسر لكم الصدود عنه ، فبدلتم وعدلتم من غير أن يساوركم شيء من العجز عن ذلك .

ومن قل حفظه للألفاظ ، صعبت عليه مذاهب البيان ، فلا يجد إلى الإفصاح سبيلاً ، فإذا لم يجتمع في الذهن طائفة كبيرة من الألفاظ التي تضافر على توضيح معنى من المعاني ، ذهب هذا المعنى من الصدور ، وإذا لم تأخذوا أنفسكم باستظهار الألفاظ والتعمق في الإلمام بمعناها الحقيقي والمجازي والوقوف على ما يشاكلها ويجانسها ، وعلى مايخالفها وينافرها ، أخفقتم ولم تظفروا بحوجائكم من البيان .

كان الشاعر « تيوفيل غوتيه » يقرأ على ما يظهر صفحة من معجم لغوي في كل يوم ، ومن المحتمل أن بلزاك ، وبودلير ، وفلوبر ، وكلهم كتّاب واقفون على أسرار اللغة بمجامعها ، كانوا يمعنون في هـذه الكتب الضخمة (المعجمات اللغوية) ، التي تشتمل على عبقرية الأمة ، وتنعكس فيها مظاهر حضارتها ، على تباينها فى متعاقب الأحقاب .

فمن الصواب على ما أعتقد ، أن نتقيل طرائق هؤلاء الكتاب ، فنقرأ في كل يوم صفحة من صفحات المعاجم اللغوية ، فإن كثيراً منا يثابرون على تلاوة روايات الجرائد ، فلم لا نجد من يطالع صفحة من صفحات لاروس Larousse .

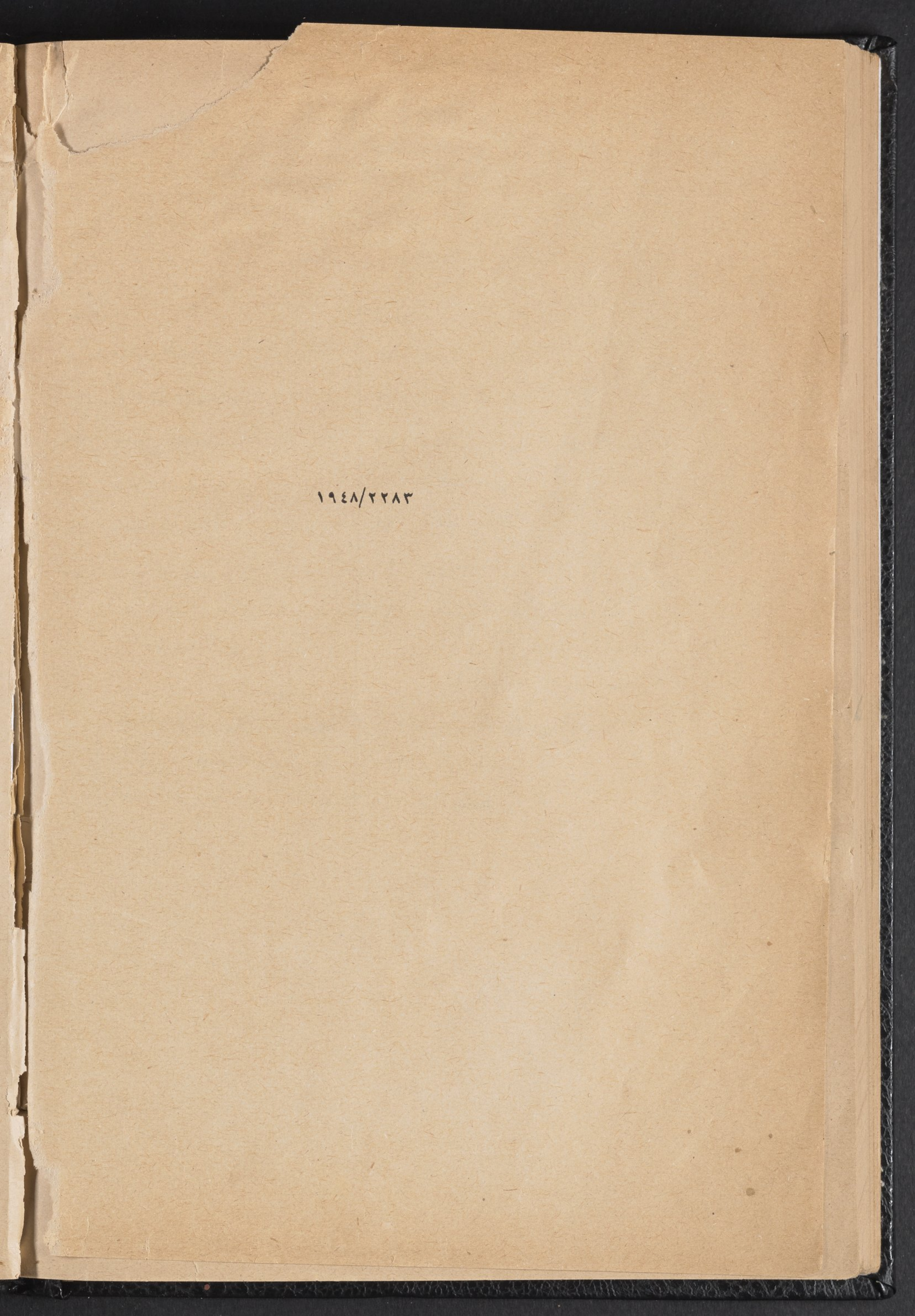
ربَّ كلمة تمرُّ بذهن رجل ذي مخيلة ، فتمثل له في ذهنه عالماً بجملته ، أو حكاية ، أو نادرة من نوادر التاريخ ، أو منحى من مناحي الطبيعة ، أو مدينة من المدن ،

أو عصراً من العصور ، وليس من السآمة فى شيء أن ينتقل الفكر من مبتدإ الأزمان إلى منتهاها ، ومن العلل والمقدمات إلى النتائج ، ومن هوميروس إلى هوغو ، وأن يجمع المرء من الألفاظ ما ينفعه في غده .

بيد أن معرفة الألفاظ وحدها لا تكفي المرء مؤنة الإبانة عن هواجس فكره على صورة تلائم ، وأسلوب يناسب ، فإن من الضروري أن يعرف المرء كيف يصل هذه الألفاظ بعضها ببعض ، وأن يركب منها جملة صحيحة ، واضحة المرمى ، يسهل على الذين يسمعونها إدراكها ، وفهم معانيها ، والسبيل إلى ذلك أن يستخرج المرء من الكتب والخطب العبارات الجميلة بانسجامها وتناسقها .

وعلى هذه الصورة تجمعون لأنفسكم مجموعة تضمون إليها في كل يوم طرائف حديثة ترجعون إليها ، فيتدرب ذهنكم على أساليب البيان ، وتقفون على اتصال الألفاظ بعضها ببعض ، فيكون لكلامكم رقة وطلاوة » .

فهرس



١٩٤٨/٢٢٨٣

